الفصل الأول

من المولد إلى المبعث

المبحث الأول: نسب الرسول ﷺ:

هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان.

أخرج هذا القدر من نسبه البخاري في صحيحه[1]، وهو المجمع عليه بين العلماء، أما ما بعده إلى آدم (عليه السلام) فمختلف فيه كثيرا[2]، وليس فيه ما يعتمد عليه[3]. ولكن مما لا خلاف فيه أن عدنان من نسل إسماعيل ابن إبراهيم (عليهما السلام)[4].

وأخواله من بني زهرة[5]، لأن أمه آمنة بنت وهب كانت منهم[6]. ويلتقي نسبه بنسبها في كلاب بن مرة[7].

وشاء الله أن يكون من أعلى وأطهر أهل الأرض نسبا وأشرفهم قوما وقبيلة وفخذا. وفي هذا يقول الرسول ﷺ: إن الله اصطفى كنانة من ولد

---

(١) الفتح (١٥/٣/ك. المبعث).

(٢) انظر هذا الاختلاف في مصادر مثل: تاريخ دمشق، السيرة النبوية، القسم الأول، ص ص ٣٦ ـ ٥٣، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان ص ص ٤٠ ـ ٤٣، تاريخ الإسلام للذهبي ـ السيرة النبوية، ص ص ١٧ ـ ٢٢.

(٣) انظر: البيهقي: دلائل النبوة (١/ ١٨٠).

(٤) يفهم ذلك من قول الرسول ﷺ: «إن الله عز وجل اصطفى بني كنانة من بني إسماعيل... الحديث» ـ مسلم (٤/١٧٨٢/ح ٢٢٧٦)، وغيره.

(٥) انظر: البخاري / الفتح (١٤/ ٢٢٣٠/ك. المناقب).

(٦) ابن حجر: الفتح (١٤/ ٢٣٠).

(٧) انظر: السيرة النبوية لابن حبان، ص ٤٤.

إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم[٨]. ويقول: «إن الله (عز وجل) يوم خلق الخلق جعلني في خيرهم، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين، ثم حين جعل القبائل جعلني في خير قبيلة، ثم حين جعل البيوت جعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نسبا، وخيرهم بيتا»[٩].

ولم يستطع أبوسفيان أن ينكر علو وسمو نسب الرسول ﷺ على الرغم مما كان له من عداء للرسول ﷺ قبل إسلامه، فقال: «هو فينا ذو نسب»[١٠].

ذلكم هو نسب محمد ﷺ الذي سماه جده عبدالمطلب بهذا الاسم رغبة منه عن أسماء أهل بيته، وأراد أن يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض[١١].

حكم وفوائد من هذا الاصطفاء:

١ ـ مادامت العرب لا تسمع إلا لذوي الأنساب العالية فيهم، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون نبيه محمد ﷺ من أعلاهم نسبا حتى لا يكون لأعداء الإسلام سلاح في أيديهم للصد عن سبيل الله، وحتى لا يتوهم متوهم أن رسالته ماهي إلا وسيلة لغاية وهي تغيير وضعه الاجتماعي.

٢ ـ إن اختيار الله تعالى لنبيه محمد ﷺ من العرب من دلائل حب الله تعالى لهم، وهذا يقتضي من المسلم أن يحبهم من حيث الجنس، لا من حيث الأفراد، لأن الأفراد قد ينحرفون عن الإسلام، فينبغي هنا كره أفعالهم المنحرفة لا كره جنسهم العربي.

---

(٨) مسلم (٤/١٧٨٢/ح ٢٢٧٦).

(٩) انظره في: البيهقي، دلائل النبوة (١/١٦٨)، سنن الترمذي (٥/٦٥٣/ح ٣٧٥٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وفي الزوائد: «رجال إسناده ثقات». وروى بمعناه الإمام أحمد: المسند (٤/١٦٦ ـ ١٦٧)، وبنحوه أبونعيم في الدلائل (١/٥٨).

(١٠) البخاري / الفتح (١٢/٧٠/ح ٢٩٤١).

(١١) ابن حجر: الفتح (١٥/٣) من رواية البيهقي بإسناد مرسل كما قال ابن حجر. وانظر: البيهقي: دلائل النبوة (١/١٦١).

المبحث الثاني: الختان والتسمية:

اختلف العلماء في أمر ختانه، فمنهم من قال إنه ولد مختونا. ومنهم من قال:

«ختنه جده عبدالمطلب يوم سابعه، وصنع له مأدبة، وسماه محمداً»[١٢] والذي رجحه بعض كبار العلماء القدماء أنه ولد مختونا[١٣]. وعندما سأله قومه عن سبب رغبته عن أسماء أهل بيته، أجابهم بأنه يريد أن يحمده الله في السماء ويحمده خلقه في الأرض[١٤].

وعرف الرسول ﷺ باسماء أخرى. فقد قال: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». وقال الراوي ـ الزهري: «والعاقب الذي ليس بعده نبي»[١٥]. وزاد ابن سعد[١٦]: «... والخاتم...»، وزاد مسلم[١٧] أسماء أخرى، وهي المقفى ونبي الرحمة، وزاد الترمذي[١٨] «...

---

(١٢) قاله الوليد بن مسلم بسنده إلى ابن عباس كما نقله عنه الذهبي في تاريخ الإسلام ـ السيرة، ص٢٧، وقال الذهبي إن هذا أصح مما رواه ابن سعد (١/١٠٣) بإسناده إلى العباس (رضي الله عنه) من أنه ولد مختونا مسروراً،...». قال محققا زاد المعاد (١/٨٢/حاشية ١) عن إسناد الوليد بن مسلم: «لا يصح، لأن محمد بن أبي السرى قال أبوحاتم: «لين الحديث، وقال ابن عدي: كثير الغلط، والوليد بن مسلم مدلس وقد عنعن». وذكر ابن القيم في الزاد (١/٨٢) رأي ابن عبدالبر فيه بأنه حديث مسند غريب، ورأي يحيى بن أيوب ـ أحد رواة الحديث ـ أنه طلب هذا الحديث فلم يجده عند أحد من أهل الحديث ممن لقيه إلا عند ابن أبي السري. ثم قال ابن القيم: «وقد وقعت هذه المسألة بين رجلين فاضلين، صنف أحدهما مصنفا في أنه ولد مختونا وأجلب فيه من الأحاديث التي لاخطام لها ولا زمام، وهو كمال الدين بن طلحة، فنقضه عليه كمال الدين بن العديم، وبين فيه أنه ختن على عادة العرب، وكان عموم هذه السنة للعرب قاطبة مغنيا عن نقل معين فيها، والله أعلم».

(١٣) روى أبونعيم في دلائله (١/١٥٤) مرفوعا إلى النبي ﷺ قوله: «من كرامتي على ربي أني ولدت مختونا، ولم ير أحد سوءتي»، وقال المحققان: «وأخرجه أيضا الطبراني في الأوسط والخطيب وابن عساكر من طرق عن أنس وصححه الضياء في المختارة...» قال الحاكم في المستدرك (٢/٦٠٢): «وتواترت الأحاديث أنه (عليه السلام) ولد مختونا» وانظر السيرة النبوية لابن حبان، ص٥٨، والسيرة الشامية (١/٤٢٠ ـ ٤٢١). وقد قوى الشيخ طرهوني: صحيح السيرة النبوية ـ حاشية رقم ١٤١ أحاديث ختان جده له».

(١٤) ابن حجر: الفتح (١٥/٣) من رواية البيهقي بإسناد مرسل كما قال ابن حجر.

(١٥) البخاري / الفتح (١٨/ ٢٨٠ح ٤٨٩٦)، مسلم (٤/١٨٢٨/ح ٢٣٥٤)، وغيرهما.

(١٦) الطبقات (١/١٠٤) بإسناد قوي حسن كما قال الذهبي في سيرته، ص٣٠.

(١٧) الصحيح (٤/١٨٢٨/ح ٢٣٥٥).

(١٨) الشمائل (٣٦٠) بإسناد حسن كما قال محقق تاريخ الإسلام للذهبي ـ السيرة ص ٣١ـ حاشية (٥).

نبي الملاحم...»[19]. وقد وردت أخبار بأن أمه سمته أحمد. فقد روى ابن سعد[20] بإسناد حسن عن علي (رضي الله عنه) قال: «قال رسول الله ﷺ: سميت أحمد.»

ولما كان والده قد توفي وهو في بطن أمه، فينصرف القائم بالتسمية إلى الأم. ويشهد لذلك ما رواه ابن سعد[21] من طريق الواقدي بسنده إلى أبي جعفر محمد بن علي، قال: أمرت آمنة وهي حامل برسول الله ﷺ أن تسميه أحمد. ويشهد له أيضاً ما رواه أبونعيم[22] عن بريدة وابن عباس قالا: «رأت آمنة في منامها فقيل لها: إنك قد حملت بخير البرية وسيد العالمين، فإذا ولدته فسميه أحمد ومحمداً... إلخ». ويشهد له ما رواه ابن اسحاق[23] ومن طريقه البيهقي في الدلائل[24]، وقال: «وكانت آمنة تحدث أنها أتيت حين حملت بمحمد ﷺ فقيل لها: فإذا وقع فسميه محمداً، فإن اسمه في التوراة والإنجيل أحمد، يحمده أهل السماء وأهل الأرض واسمه في القرآن محمد. فسمته بذلك. وفي آخره أنها أخبرت عبدالمطلب بما أمرت أن تسميه. فقال شعراً وفي آخره: أحمد مكتوب على اللسان». وقد رواه ابن عساكر[25] أيضاً.

وكني بأبي القاسم[26]، وأمر أن نسمي باسمه ولا نكني بكنيته[27]. وكناه جبريل (عليه السلام) بأبي إبراهيم، ولكنه كره أن يحول كنيته التي عرف بها[28]. واختلف العلماء في أمر التكني بكنيته، وفي أمر الجمع بين اسمه

---

(١٩) وعن المرويات عن أسماء النبي ﷺ - مما ذكرنا أو لم نذكر - انظر دلائل البيهقي: (١/ ١٥١ - ١٦١) والسيرة الشامية (١/ ٥١٢ - ٦٦٣) فقد عدها الشامي مرتبة على الحروف الأبجدية.

(٢٠) الطبقات (١/ ١٠٤).

(٢١) المصدر والمكان نفسايهما.

(٢٢) دلائل النبوة (١/ ٣٦ - ٣٧).

(٢٣) ابن هشام (١/ ٢١٠) بلفظ قريب من لفظ أبي نعيم، وبدون إسناد، فهو ضعيف.

(٢٤) دلائل النبوة (١/ ١١١ - ١١٢).

(٢٥) تاريخ دمشق - السيرة (١/ ٤٠٤).

(٢٦) انظر: مسلم (٣/ ١٦٨٢/ ح ٢١٣٣)، أحمد: المسند (٢/ ٤٣٣ و٣/ ٣٠١)، ابن سعد (١/ ١٠٧).

(٢٧) البخاري / الفتح (٢٢/ ٣٨٢ - ٨٤/ ح ٦١٨٧ - ٦١٩٠)، مسلم (٣/ ١٦٨٤/ ح ٢١٣٤). وعن المرويات الأخرى عن كنيته، انظر دلائل البيهقي (١/ ١٦٢ - ١٦٤).

(٢٨) ابن عساكر: تاريخ دمشق - قسم السيرة، ص ص ٢٧ - ٣٦، بإسناد حسن. وانظر الحديث في الإصابة (٣/ ٣٣٥ - ٣٦) في ترجمة «مأبور» من رواية ابن عبدالحكم في كتابه فتوح مصر.

وكنيته، فقيل إنما نهى عن التكني بكنيته في حال حياته، وقيل إنما نهى أن يجمع بين اسمه وكنيته فقط[٢٩].

ولم يعرف اسم: أحمد قبله، وسمت بعض العرب باسم محمد لما شاع قبيل وجوده أن نبياً سيبعث اسمه محمدٌ [٣٠].

المبحث الثالث: اليتم ورعاية الجد ثم العم:

اختلف أهل المغازي والسير في تاريخ وفاة والده. والذي قاله ابن إسحاق[٣١]، ورجحه ابن سعد[٣٢]، ان ذلك كان وهو في بطن أمه، وهو المشهور، الذي رجحه كثير من العلماء[٣٣]، أمثال: الذهبي[٣٤]، وابن كثير[٣٥]، وهو الذي قطعت به الآية القرآنية الكريمة: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾[٣٦].

وبذلك يكون الرسول ﷺ قد ولد يتيماً.

والمشهور أنه ولد بمكة يتيم الأب، في يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول[٣٧]، في العام المشهور بعام الفيل[٣٨]. وهو ما يراه المستشرقون مقابلا لعام ٥٧٠م. ولكن الباحث محمود باشا الفلكي توصل إلى انه كان

---

(٢٩) تفاصيل ذلك عند: ابن عساكر: تاريخ دمشق - السيرة - ص ص ٢٦ - ٣٤، وابن الجوزي الوفا بأحوال المصطفى (تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، ط ١ ١٩٨٨م) ص ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٣٠) انظر السيرة الشامية (١/٥٠٣) وما بعدها. وممن سمى محمداً: محمد بن أُحَيْحَة، محمد بن أسامة محمد بن البر، محمد بن الحارث بن حُذَيْج، محمد بن حِرْمَاز، محمد بن حمران، محمد بن خزاعي، محمد بن خَوْلي، محمد بن مسلمة، محمد بن سفيان بن مُجَاشع جَدّ جَدّ الفرزدق، محمد بن عدي.. إلخ وهم دون العشرين.

(٣١) ابن هشام (١/٢١٠) - بدون إسناد، فهو يكون بذلك ضعيفاً.

(٣٢) الطبقات الكبرى (١/٩٩ - ١٠٠) بإسناد ضعيف.

(٣٣) انظر ابن كثير: البداية والنهاية (٢/٢٨٥ - ٢٨٦) حيث ذكر الروايات المختلفة في ذلك؛ البيهقي: دلائل النبوة (١/١٨٧ - ١٨٨).

(٣٤) تاريخ الإسلام - السيرة النبوية، ص ٥٠.

(٣٥) البداية والنهاية (٢/٢٨٥ - ٢٨٦).

(٣٦) سورة الضحى: الآية رقم ٦.

(٣٧) ابن إسحاق - بدون إسناد - ابن هشام (١/٢١١)، فهو إذن ضعيف.

(٣٨) انظر النووي: السيرة، ص ١٥. وقد روى الذهبي بسنده إلى ابن عباس أن النبي ﷺ ولد يوم الفيل، وقال عن إسناده: «صحيح» - انظر: تاريخ الإسلام - السيرة، ص ٢٢. وروى ابن إسحاق بإسناد حسن أن الرسول ﷺ ولد عام الفيل. انظر: ابن هشام (١/٢١١).

التاسع من ربيع الأول، الموافق العشرين من (نيسان) عام ٥٧١م[٣٩].

وعندما مات والده كفله جده عبدالمطلب، وهو تحت رعاية أمه آمنة بنت وهب[٤٠].

وكانت وفاة والده بالمدينة، عند أخواله بني عدي بن النجار، عندما أرسله والده عبدالمطلب إليها ليشتري منها تمرا[٤١]. ودفن في دار النابغة، تحت عتبة البيت الثاني على يسار من يدخل دار النابغة. وكانت وفاته عن خمس وعشرين سنة[٤٢].

ظل الرسول ﷺ في رعاية أمه آمنة وكفالة جده عبدالمطلب بعد أوبته من بادية بني سعد.

وعندما بلغ من العمر ست سنين توفيت والدته آمنة بالأبواء[٤٣]، وهي راجعة به إلى مكة من زيارة قامت بها معه إلى أخوال أبيه بني عدي ابن النجار[٤٤] بالمدينة المنورة[٤٥].

وحملته مولاته وحاضنته أم أيمن إلى جده عبدالمطلب بمكة، فأخذ يحوطه

---

(٣٩) الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (١/ ٦٢).

(٤٠) وقد ثبت كفالة جده له من طرق عدة تتقوى إلى درجة الحسن لغيره. انظر في ذلك الحاشية رقم: ١٤١، ١٣٢، ١٦٧، ١٦١... من كتاب صحيح السيرة للطرهوني. وانظر: ابن إسحاق ـ بدون إسناد، ابن هشام (١/ ٢١٢).

(٤١) قاله ابن عبدالبر في الاستيعاب (١/ ١٤)، مرسلا عن الزهري. وقيل بل أرسله إلى الشام في تجارة فعاد من غزة مريضا فتوفي بالمدينة. انظر: ابن سعد (١/ ٩٩) من رواية شيخه الواقدي.

(٤٢) انظر: ابن سعد (١/ ٩٩) وعمر بن شبة: تاريخ المدينة (١/ ١١٦ ـ ١١٧)، وعمدة الأخبار، ص ١٦٧. وقال صاحب وفاء الوفا (٣/ ٨٦٧) أن دار النابغة كانت شامي (أي شمالي) المسجد النبوي، عند بني جديلة. وانظر: ابن سعد: الطبقات (١/ ١١٦) بإسناد ضعيف لأن فيه عبدالعزيز ابن عمران وهو متروك في الحديث.

(٤٣) قرية بينها وبين الجحفة نحو مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلا ـ معجم البلدان (١/ ٧٩). وقالوا: واد من أودية الحجاز التهامية يلتقي فيه واديا الفرع والقاحة، فيتكون منهما وينحدر إلى البحر مارا ببلدة مستورة، ثم يبحر ـ عاتق البلادي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة.

(٤٤) لأن هاشما بن عبد مناف تزوج بالمدينة سلمى بنت عمرو النجارية. فولدت له عبدالمطلب (شيبة). انظر ابن إسحاق: (ابن هشام ١/ ٢٢٣)، ودلائل البيهقي (١/ ١٨٨).

(٤٥) ابن سعد (١/ ١١٦) من طريق الواقدي، ابن إسحاق بإسناد مرسل: (ابن هشام ١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣)، عبدالرزاق: المصنف (٥/ ٣١٨) بإسناد مرسل ومرسل ابن إسحاق ومرسل عبدالرزاق صحيحان، ويشهد لها مارواه ابن سعد. وخبر وفاة أمه وهو غلام صغير ووفاتها بالأبواء ورد بطرق تتقوى وترتفع إلى درجة الحسن لغيره. انظر تفاصيل ذلك عند الشيخ طرهوني: صحيح السيرة. حاشية رقم ١٦٥ ورقم: ١٦٦.

بعنايته إلى أن توفي وللنبي ﷺ ثمان سنوات من العمر[٤٦]، فأوصى به إلى عمه أبي طالب[٤٧]، أخي أبيه عبدالله لأمه وأبيه، أمهما فاطمة بنت عمرو ابن عائذ[٤٨].

وقد رويت أخبار في مدى عناية جده عبدالمطلب به. من ذلك ما رواه أبويعلى[٤٩] ان عبدالمطلب أرسل محمدا ذات مرة في إثر إبل له ضلت، فاحتبس عليه حتى حزن حزنا شديدا. وعندما عاد محمد بالإبل أقسم ألا يبعثه في حاجة له أبدا. ولا يفارقه بعد هذا أبدا.

وكان يقربه ويدنيه منه ولا يدع أحدا يدخل عليه وهو نائم. وكان له مجلس لا يجلس عليه غيره. وكان له فراش في ظل الكعبة، يجلس حوله بنوه ويجلس النبي ﷺ عليه مع جده[٥٠].

وتروي كتب السير ان أبا طالب كان شديد الاعتناء أيضا بابن أخيه محمد ﷺ. فكان لا ينام إلا ومحمد إلى جنبه، ولا يخرج إلا معه، ويخصه بالطعام، ولا يأكل إلا عندما يحضر محمد[٥١]. وظل يحوطه بعنايته إلى أن توفي قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين.

حكمة يتم الرسول ﷺ:

١) لقد شاء الله (عز وجل) أن ينشأ الرسول ﷺ يتيما، بعيدا عن تربية

---

(٤٦) انظر ابن إسحاق، بإسناد مرسل (ابن هشام ١/٢٢٣)، الأزرقي تاريخ مكة (١/٣١٤، ٣١٥) بإسناد حسن، الذهبي: السيرة، ص٢٥، بإسناد معلق وللقصة شواهد، منها مارواه البيهقي في الدلائل بإسناد صحيح (٢/٢٢)، وعبدالرزاق بإسناد مرسل صحيح (٥/٣١٨) وابن سعد (١/١١٧ - ١١٨) من رواية الواقدي.

(٤٧) ابن هشام، بدون إسناد (١/٢٣٥)، ابن سعد (١/١١٨) من طريق الواقدي، الذهبي: السيرة، ص٥٠. ومما يدل على أن لهذا أصلاً ماجاء في قصة الراهب بحيرا مع الرسول ﷺ في رحلته إلى الشام وهو صغير وسيأتي ذكرها، وهي صحيحة كما ستعلم.

(٤٨) ابن إسحاق، بدون إسناد (ابن هشام ١/٢٣٥) فهو ضعيف.

(٤٩) الهيثمي: مجمع الزوائد (٨/٢٤٤) وحسن الهيثمي إسناده، الحاكم المستدرك (٢/٦٠٣-٤) وصححه ووافقه الذهبي، البيهقي: الدلائل (٢/٢٠ - ٢١) من طريقين، أحدهما طريق الحاكم...

(٥٠) الأزرقي: تاريخ مكة (١/٣١٤ - ٣١٥)، وإسناده حسن ولروايته هذه القصة شواهد ذكرناها في الحاشية رقم (٤٦) هنا. وابن إسحاق، بدون إسناد (ابن هشام ١/٢٢٣).

(٥١) الطبقات (١/١١٩ - ١٢٠) من طريق الواقدي. والواقدي متروك، ولذا فالإسناد ضعيف جداً، ومما يشهد بأن لرواية الواقدي أصلاً في المرويات الصحيحة قصة النبي ﷺ مع الراهب بحيرا في خبر سفره إلى الشام وهو صغير. كما سيأتي ذكر ذلك في مكانه من هذا الكتاب.

أبيه وأمه وجده، إذ إن والده قد توفي وهو في بطن أمه، وقضى معظم فترة طفولته الأولى ببادية بني سعد، بعيدا عن أسرته كلها، ثم ما لبث أن توفيت أمه، ولم يمكث معها سوى مدة يسيرة، وبعدها بمدة يسيرة توفي جده عبدالمطلب. كل ذلك لحكم، لعل من أبرزها أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة في القلوب أو إيهام الناس بأن محمدا إنما رضع لبان دعوته ورسالته منذ صباه بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده ليصل إلى جاه الدنيا باصطناع النبوة. فقد كان لجده مكانة مرموقة في قومه، فلقد كانت إليه الرفادة والسقاية، أي إطعام الحجاج وسقايتهم(٥٢).

٢) ولعل في يتمه أسوة للأيتام في كل زمان ومكان، ليعرفوا أن اليتم ليس نقمة، وانه لا يجب أن يقعد بصاحبه عن بلوغ أسمى المراتب.

المبحث الرابع: من إرهاصات النبوة عند ميلاده:

وصاحبت ولادته بعض الإرهاصات الدالة على نبوته. وما ثبت منها بطرق صحيحة، قوله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، رأت أمي حين حملت بي كأن نورا خرج منها أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام»(٥٣).

ومالم يثبت بطرق صحيحة، ولكنه اشتهر، مثل قولهم: إنه حين ولد سقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التي كان يعبدها

---

(٥٢) انظر. الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة، ص ص ٥٠ - ٥١.

(٥٣) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٢٧ و٥/ ٢٦٢) عن العرباض بن سارية، وعن أبي أمامة وعن أبي النضر وعن فرج. وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢١٢): «إسناد أحمد حسن» وفيه رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام. ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٦ - ١٧) بمثل سند أحمد، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. ورواه ابن إسحاق بإسناد حسن كما في سيرة ابن هشام (١/ ٢١٩ - ٢٢٠) إذ إن جهالة الصحابي فيه لا تضر، ولذا قال عنه ابن كثير في البداية (٢/ ٢٩٩): «وهذا إسناد جيد قوي».

المجوس، وغاصت بحيرة «ساوة» وانهدمت المعابد التي كانت حولها[٥٤].

المبحث الخامس: رضاعة الرسول ﷺ:

اشتهر عند أهل المغازي والسير ان ممن أرضعنه حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، حين أخذته معها إلى بادية قومها، فأقام معها نحو أربع سنين، ثم زدته إلى أمه.

لقد تفرد ابن إسحاق[٥٥] برواية خبر إرضاع حليمة الرسول ﷺ وإقامته معها ببادية بني سعد. وقد رواه بإسناد منقطع، إذ لم يصرح فيه عبدالله ابن جعفر بالسماع عن حليمة، وفي إسناده جهم بن أبي جهم، الذي عده الذهبي[٥٦] من المجاهيل. ورواه أبويعلى[٥٧] في مسنده، وابن حبان[٥٨] في صحيحه، وليس فيهما تصريح بالتحديث بين عبدالله وحليمة، كما قال الشيخ الألباني[٥٩]، وخَطَّأ ابن حجر[٦٠]، لأنه قال بأن عبدالله قد صرح بالتحديث. ورواه الطبراني[٦١] كذلك، ووثق الهيثمي[٦٢] رجال أبي يعلى والطبراني. وحكم محققا سيرة ابن هشام[٦٣]، والشيخ الألباني[٦٤] بضعف هذا الخبر.

---

(٥٤) جاء ذلك في الخبر الطويل عن سطيح وابن أخته عبدالمسيح. انظره في دلائل النبوة للبيهقي (١/ ١٢٦ - ١٢٩)، قال المحقق، الدكتور عبدالمعطي قلعة جي عنه: «وهذا حديث ليس بصحيح...». وانظر الخبر في البداية والنهاية (٢/ ٢٩١ - ٢٩٢) وقال عنه ابن كثير: «أما هذا الحديث فلا أصل له من كتب الإسلام المعهودة، ولم أره بإسناد أصلا». وقال محققا دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ١٣٩ - ١٤١) بعد أن خرجا الخبر: ... قال ابن عساكر: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مخزوم عن أبيه، تفرد به أبوأيوب البجلي... وقال ابن حجر في الإصابة» مرسل ... إلخ.

(٥٥) ابن هشام (١/ ٢١٤) وانظر حاشية المحققين حيث خرجا هذا الخبر. وخرجه كذلك الدكتور سليمان العودة في رسالته للدكتوراه: السيرة في الصحيحين وابن إسحاق، ص ص ١١٨ - ١١٩.

(٥٦) ميزان الاعتدال (١/ ٤٢٦).

(٥٧) (١/ ١٢٨). وانظر الهيثمي: مجمع الزوائد (٨/ ٢٢١)، ومرويات غزوة حنين (٢/ ٤٣٥).

(٥٨) موارد الظمآن، ص ص ٥١٢ - ٥١٣).

(٥٩) دفاع عن الحديث النبوي والسيرة والرد على جهالات البوطي في فقه السيرة ص ٣٩.

(٦٠) الاصابة (٤/ ٢٧٤).

(٦١) المعجم الكبير (٢٤/ ٢١٢ - ٢١٥/ح ٥٤٥)، قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٠٥): «ورجاله رجال الصحيح غير عمارة بن زاذان وهو ثقة».

(٦٢) المجمع (٨/ ٢٢١).

(٦٣) ابن هشام (١/ ٢١٤) حاشية (ج).

(٦٤) دفاع عن الحديث النبوي والسيرة، ص ٣٨ وما بعدها.

وعلى الرغم مما قيل في إسناد هذا الخبر إلا أن مما لا شك فيه ثبوت استرضاع الرسول ﷺ في بادية بني سعد، وذلك لأن رواية الصحيح[٦٥] تتفق مع رواية ابن إسحاق في أن حادثة شق الصدر قد وقعت للرسول ﷺ وهو صغير مسترضع في بادية بني سعد، وكذلك رواية الحاكم[٦٦]، وأحمد[٦٧] وابن إسحاق[٦٨] في حديث «أنا دعوة أبي إبراهيم. . . . واسترضعت في بني سعد ابن بكر. . . .»، وفي الحديث الذي رواه ابن إسحاق[٦٩] بإسناد حسن، قال وفد هوازن للرسول ﷺ وهو بالجعرانة حين منصرفه من حنين: «إنما في الحظائر - أي الأسْر - عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك. . .»، في هذا الحديث إشارة إلى رضاعة النبي ﷺ في أهل مناطق الطائف، أي في هوازن، التي منها بنو سعد، قوم حليمة بنت أبي ذؤيب[٧٠].

وروى ابن سعد[٧١] بسنده إلى ابن القبطية أن النبي ﷺ كان مسترضعا في بني سعد بن بكر. وفي رواية أخرى لابن سعد[٧٢] أن أم النبي ﷺ دفعته إلى السعدية التي ارضعته. . . .

وذكر ابن كثير[٧٣] أن أبا نعيم روى بسنده إلى عتبة بن عبدالله أن رجلا

---

(٦٥) مسلم (١/١٤٧/ح ٢٦١).

(٦٦) المستدرك (٢/ ٦٠٠) وصحح إسناده وأقره الذهبي.

(٦٧) المسند (٤/ ١٢٧ - ٢٨) من غير طريق ابن إسحاق، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٢): «وإسناده حسن وله شواهد تقويه». ومن تلك الشواهد رواية الطيالسي في مسنده، كما في منحة المعبود (٢/ ٨٦) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٠٥ - ٦)، وكلاهما من غير طريق ابن اسحاق وفي إسنادهما إبن فضالة، وهو ضعيف.

(٦٨) ابن هشام (١/ ٢١٩ - ٢٢٠) بإسناد مرسل وجهالة الصحابي لانضر ولذا قال عنه ابن كثير في البداية (٢/ ٢٩٩): «وهذا إسناد جيد قوي».

(٦٩) سيرة إبن هشام (٤/ ١٨٣ - ١٨٥).

(٧٠) انظر نسبها في السيرة النبوية لابن حبان، ص ص ٥٣ - ٥٤، بدون إسناد وفي سيرة ابن هشام (١/ ٢١٣)، بدون إسناد.

(٧١) الطبقات (١/ ١١٣) بإسناد ضعيف لعلة الإرسال، ورجاله ثقات.

(٧٢) الطبقات (١/ ١١٣) بإسناد ضعيف للإرسال ولأن فيه عمرو بن عاصم الكلابي وهو صدوق في حفظه شيء.

(٧٣) البداية (٢/ ٢٩٩). وعند الرجوع إلى دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ٢٢٠) لم نجد نص الحديث الذي ذكره ابن كثير، بل وجدناه يقول: «و رواه عبدالرحمن بن عمرو عن عتبة بن عبد انفقا على أنه كان مسترضعا في بني سعد، وقد تقدم ذكره» وقال المحققان في الحاشية: «لم يتقدم ذكره وكأنه من الأحاديث التي حذفها صانع هذا المنتخب». وقالا عن حديث عتبة بن عبد: خرجه أحمد والطبراني ولم يسق المتن وإسناد أحمد حسن. راجع: مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٢)، وأخرجه الدارمي في سننه رقم ١٣ وقال في الخصائص (١/ ١٥٩): أخرجه أحمد والدارمي والحاكم وصححه (٢/ ٦١٦) والبيهقي والطبراني وأبو نعيم».

سأل النبي ﷺ، فقال: كيف كان أول شأنك يارسول الله؟ قال: «كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر... الحديث».

ويضاف إلى هذه الآثار التي تدل على مجيء أبوي الرسول ﷺ من الرضاعة إليه وتعرفه على الشيماء ـ أخته من الرضاعة ـ التي جيء بها ضمن أسرى غزوة حنين(٧٤).

وخلال حياته في رعاية حليمة السعدية وقعت للنبي ﷺ إرهاصات دلت على بركته وعناية الله به، وحفظه له. وأشهر ماروي في ذلك حديث حليمة السعدية الطويل المشهور، الذي فيه أنه بحلول محمد ﷺ عليها، در ثديها اللبن، فارتوى منه محمد وابنها الذي كانت تحمله بعد أن كان يبكي من الجوع لجفاف ثدي أمه، ولا ينام هو وأهله، وأمتلأ ضرع راحلتها باللبن بعد أن كان يابسا، فشبعت منها مع زوجها وأصبحت الراحلة نشطة قوية، تسير في مقدمة الركب، بعد أن كانت عاجزة تسير في مؤخرة الركبان. وحيثما حلت أغنام حليمة، تجد مرعى خصبا، فتشبع ولا تجد أغنام غيرها شيئا، وكان ينمو نموا سريعا، لا يشبه نمو الغلمان(٧٥).

حكمة الرضاعة في البادية:

كانت عادة الحضر من العرب أن يسترضعوا أبناءهم في البدو، ابتعادا

---

(٧٤) سيأتي ذكره في مكانه من الكتاب ـ أحداث غزوة حنين ـ وانظر ابن كثير: البداية (٢/ ٣٠١ وما بعدها). ونجدر الإشارة هنا إلى أن أهل السير رووا أن ممن أرضعته إضافة إلى حليمة، امرأة أخرى من بني سعد، أرضعته هو وعمه حمزة، حين كان هو أيضا مسترضعا في بني سعد. انظر في هذا: ابن سعد (١/ ١٠٩) من طريق الواقدي. وجملة من قيل إنهن أرضعنه كما ذكر محقق دلائل البيهقي (١/ ١٣١) عشر نسوة، وذكر أسماءهن ومصادره في ذلك. وأشهر من أرضعته مع أمه بمكة ثويبة مولاة عمه أبي لهب، وأرضعت معه أباسلمة ـ انظر: البخاري/ الفتح (١٩/ ١٧١ ـ ٧٣/ح ٥١٠٠و ٥١٠١)، ومسلم (٢/ ١٠٧٢/ح ١٤٤٩) وغيرهما. وروى ابن سعد من طرق عن شيخه الواقدي أن ثويبة أرضعت حمزة قبل محمد ﷺ ـ الطبقات (١/ ١٠٨ ـ ١٠٩) وقال ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٤): قال مصعب الزبيري كانت ثويبة أرضعت رسول الله ﷺ بعدما أرضعت حمزة ثم أرضعت أبا سلمة. كانت ثويبة مولاة لأبي لهب، أعتقها، فأرضعت النبي ﷺ، فلما مات أبولهب أريه بعض أهله في أسوأ حال، فسألوه، فقال: «لم ألق بعدكم رخاء غير أني سقيت في هذه ـ وأشار إلى النقرة التي تحت إبهامه ـ بعتاقي ثويبة». ـ انظر: البخاري/ الفتح (١٩/ ١٧٣/ح ٥١٠١)، وابن القيم: زاد المعاد (١/ ٨٢) حاشية (٢).

(٧٥) سبق الكلام على إسناده (ابن هشام ١/ ٢١٤ ـ ٢٢٠) وقلنا إنه ضعيف. انظر: الألباني دفاع، ص ٣٩. وتحقيق د. همام وأبي صعيليك (ابن هشام ١/ ٢١٤).

بهم عن أمراض المدن، ورغبة في تقوية أجسادهم، وتعويدا وتربية لهم على الاعتماد على النفس منذ الصغر، بعيدا عن تدليل الأمهات والجدات وبقية الاقارب، وتقويما لألسنتهم من اللحن وغيره من مفسدات اللغة.

المبحث السادس: حادثة شق الصدر:

وقعت للرسول ﷺ وهو في بادية بني سعد حادثة شق الصدر، كما جاء ذلك صريحا في رواية أبي نعيم عند ابن كثير[٧٦]، ونصها: «... كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بهم[٧٧] لنا، ولم نأخذ معنا زادا، فقلت ياأخي اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ فقال نعم! فأقبلا يبتدراني، فأخذاني فبطحاني للقفا، فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثلج فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء برد، فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة فذرها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خطه، فخاطه، وختم على قلبي بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة واجعل ألفا من أمته في كفة، فإذا أنا انظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخر علي بعضهم، فقال لو أن أمته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا فتركاني وفرقت فرقا شديدا ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيت، فأشفقت أن يكون قد لبس بي، فقالت أعيذك بالله، فرحلت بعيرا لها وحملتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقالت أديت أمانتي وذمتي وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها، وقالت: إني رأيت حين حملت به انه خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام».

وروى قصة هذا الشق مسلم[٧٨]، باختصار، ولم يصرح بمكان وقوعها،

---

(٧٦) البداية والنهاية ٢/ ٢٩٩)، وقال عنه الذهبي في سيرته، ص٤٨: «وهو صحيح».

(٧٧) البهم: صغار الغنم.

(٧٨) صحيحه (١/ ١٤٧/ح ٢٦١). وانظر: البداية لابن كثير (٢/ ٣٠٠) ودلائل النبوة للبيهقي (١/ ١٣٦) حاشية رقم (٣٢١).

ونصه عن أنس (رضي الله عنه)، «إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل (عليه السلام) وهو يلعب مع الغلمان. فأخذه فصرعه فشق عن قلبه. فاستخرج القلب. فاستخرج منه علقه. فقال: هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم. ثم لأمه. ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره ـ مرضعته) فقالوا: إن محمدا قد قتل. فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره».

لقد سكتت بعض المصادر عن تحديد سنه ﷺ حين وقعت له هذه الحادثة لأول مرة[٧٩]. أما البعض الذين حددوا سنه، فلم يتفقوا على سن محددة. فيفهم من رواية ابن إسحاق[٨٠] ان ذلك كان وعمره ﷺ فوق الثانية بشهور، إذ تقول حليمة: «فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا[٨١]، فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا... فرجعنا به، فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم لنا خلف بيوتنا...» وفي رواية ابن سعد[٨٢] أن القصة وقعت وللرسول ﷺ أربع سنين، وقال بهذا أبونعيم[٨٣] من طريق ضعيفة أيضا. ويذكر آخرون انه كان في الخامسة[٨٤] أو بعدها[٨٥].

ونحن نميل مع الزرقاني[٨٦] ونرجح رواية ابن سعد في انه كان في الرابعة، لأنها السن التي يمكن أن يمارس فيها رغي البهم، ويفهم شيئا مما يدور حوله.

ولقد تكرر حادث شق صدر الرسول ﷺ مرات أخرى غير هذه التي

---

(٧٩) منهم مسلم في روايته عن أنس (١/١٤٧/ح ٢٦١).
(٨٠) ابن هشام (١/٢١٤)، وهي ضعيفة.
(٨١) جفرا: أي غليظا شديدا.
(٨٢) الطبقات (١/١١٢) من طريق شيخه الواقدي. فالرواية ضعيفة جداً.
(٨٣) دلائل النبوة (١/١٥٩، ١٦١).
(٨٤) انظر: دلائل أبي نعيم (١/١٦٢)، ونسب ذلك لابن عباس ولم يسق لذلك سندا وذكر أن غير ابن عباس كان يقول إن إرجاع حليمة النبي ﷺ إلى أمه بعد الحادثة كان وعمره أربع سنوات.
(٨٥) انظر. المواهب اللدنية بشرح الزرقاني (١/١٤٩ - ١٥٠) والبداية (٢/٣٠٠ - ٣٠١) حيث ذكر رواية للأموي مرسلة موقوفة على ابن المسيب وضعيفة لأن فيها عثمان الوقاصي، وهو ضعيف كما قال ابن كثير، ذكر الأموي أن عمره كان ست سنين.
(٨٦) شرحه على المواهب اللدنية (١/١٥٠).

في بادية بني سعد. فقد روى أحمد[٨٧] وابن عساكر[٨٨] وغيرهما أن شق الصدر قد وقع له وهو ابن عشر سنين وأشهر. وروى البخاري[٨٩] ومسلم[٩٠] وأحمد[٩١] والحاكم[٩٢] والترمذي[٩٣] ان شقا لصدره قد وقع له وقد تجاوز الخمسين من العمر، حين أسري به الى بيت المقدس. وذكر الذهبي[٩٤] الروايات الدالة على أن شق صدره كان مرتين: في صغره ووقت الاسراء به. وهناك من ذكر وقوعها مرة رابعة[٩٥].

لقد ذهب بعض أصحاب المدرسة العقلية من المستشرقين والمتأثرين بهم من المسلمين إلى تأويل حادث شق الصدر. فمنهم من قال إنها أسطورة ومنهم من قال إنها أمر معنوي و.... و.... إلخ[٩٦].

ومن أوجز ما قيل في حادثة شق الصدر قول ابن حجر[٩٧]: «إن جميع ماورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك.».

وينبغي على المسلم أن يعلم بأن ميزان قبول الخبر إنما هو صحة الرواية، فإذا صحت فلا يجدي البحث بعد هذا عن صرف الكلام إلى غير حقيقته أو تأويله تأويلا عقليا ممجوجا كما يفعل أصحاب المدرسة العقلية.

حكمة شق الصدر:

١ - يبدو أن هذه الحادثة كانت إعلانا لأمر الرسول ﷺ والتهيئة للعصمة

(٨٧) الفتح الرباني (٢٠/ ١٩٥)، وقال الساعاتي: «رجاله ثقات».
(٨٨) تاريخ مدينة دمشق، ص ٣٧٥، وهو من طريق أحمد نفسها.
(٨٩) الفتح (١٣/ ٢٤/ح ٣٢٠٧).
(٩٠) (١/ ١٤٧/ح ٢٦١، ٢٦٢).
(٩١) المسند (٣/ ١٢١، ١٤٩، ٢٨٨).
(٩٢) المستدرك (٢/ ٦١٦).
(٩٣) انظر: صحيح الترمذي للألباني (٣/ ٦٣١ - ٦٣٢/ح ٣٥٨٤).
(٩٤) السيرة النبوية، ص ٤٩.
(٩٥) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٦) - الحاشية، والفتح الرباني (٢٠/ ١٩٥ - ١٩٦).
(٩٦) انظر محمد أبو شبهة: السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، (١/ ١٩٩ - ٢٠٣) وقد ناقش المنكرين لشق الصدر والمشككين فيه.
(٩٧) الفتح (١٥/ ٥٢/ح ٣٨٨٧).

والوحي منذ صغره بوسائل مادية، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته. إنها إذاً عملية تطهير معنوي، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي، ليكون فيه ذلك الاعلان الإلهي بين أبصار الناس وأسماعهم[٩٨].

٢ ـ فيها بيان إعداد الله تعالى عبده ورسوله محمدا ﷺ لتلقي الوحي عنه.

٣ ـ تشير الحادثة إلى تعهد الله (عز وجل) نبيه عن مزالق الطبع الإنساني، ووساوس الشيطان، وهي حصانة أضفاها الله (عز وجل) على نبيه محمداً ﷺ.

المبحث السابع: رحلته إلى الشام:

روى الترمذي[٩٩] بسنده إلى أبي موسى الأشعري، انه قال: «خرج أبوطالب إلى الشام ومعه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش. فلما أشرفوا على الراهب ـ يعني بحيرى ـ هبطوا، فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم، قال: فنزل وهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبي ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، بعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: وما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدا، ولا يسجدون إلا لنبي، واني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه. ثم رجع فصنع لهم طعاما، فلما أتاهم به ـ وكان هو في رعية الإبل ـ قال: أرسلوا إليه، فأقبل وغمامة تظله، فلما دنا من القوم قال: انظروا إليه عليه غمامة، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء ـ ظل ـ شجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، قال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. قال: فبينما هو قائم عليهم وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم،

---

(٩٨) انظر البوطي: فقه السيرة، ص ٥٢.

(٩٩) انظر: صحيح سنن الترمذي للشيخ الألباني (٣/ ١٩١)، وقال عنه: «صحيح» ثم ذكر المراجع التي ألفها وفيها تخريج هذا الحديث، ثم قال: «لكن ذكر بلال فيه منكر كما قيل» وسنن الترمذي (٥/ ٢٥٠/ح ٣٦٢٤) وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه، التفت فإذا هو بسبعة من الروم قد أقبلوا، قال: فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا لأن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس، وإنّا أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: فهل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا: لا، إنما أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: أفرأيتم أمرا أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس رده؟ فقالوا: لا. قال: فبايعوه وأقاموا معه عنده. قال: فقال الراهب: أنشدكم الله! أيكم وليه؟ قالوا: أبوطالب. فلم يزل يناشده حتى رده وبعث معه أبوبكر بلالا، وزوده الراهب من الكعك والزيت.».

اختلف العلماء في هذا الحديث. فقد حسنه الترمذي وصححه الحاكم[100]، والألباني[101]، وعرجون[102] وشعيب وعبدالقادر الأرنؤوط[103] وابن حجر. وقال ابن حجر[104]: «رجاله ثقات وليس فيه سوى هذه النقطة - أي ذكر أبي بكر وبلال - فيحتمل أن تكون مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهماً من أحد رواته.». وقال ابن القيم[105] إن هذه النقطة من الغلط الواضح.

وأنكره الذهبي[106] وقال: «وهو حديث منكر جدا، وأين كان أبوبكر؟ كان ابن عشر سنين، فإنه أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين ونصف، وأين

---

(١٠٠) المستدرك (٢/ ٦١٦) وقال إنه على شرط الشيخين.

(١٠١) حاشية فقه السيرة للغزالي، ص ٦٨، دفاع، ص ص ٦٢ - ٧٢، قال: «وإسناده صحيح كما قال الجزري». قال: «وذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ» ثم قال: وقد رواه البزار، فقال: «أرسل معه عمه رجلا».

(١٠٢) محمد رسول الله (١/ ١٦٩ - ٧١).

(١٠٣) حاشية الزاد (١/ ٧٦) وقال في تخريجه: «... وسنده صحيح، وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: رجاله ثقات، وذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ، وقد رواه البزار في مسنده، فقال: «وأرسل معه عمه رجلا». وقال عبدالقادر الأرنؤوط - محقق جامع الأصول في حاشيته (١١/ ٢٦١)، بعد تخريج الحديث: «... وذكر بلال فيه غير محفوظ وعده الأئمة وهما، فإن سن النبي ﷺ إذ ذاك اثنتا عشرة سنة. وأبوبكر أصغر منه بسنتين، وبلال لعله لم يكن ولد في ذلك الوقت».

(١٠٤) نقلا عن شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (١/ ١٩٦).

(١٠٥) زاد المعاد (١/ ٧٦).

(١٠٦) تاريخ الاسلام - السيرة، ص ٥٧.

كان بلال في هذا الوقت؟ فإن أبابكر لم يشتره إلا بعد المبعث، ولم يكن ولد بعد، وأيضا، فإذا كان عليه غمامة تظله كيف يتصور أن يميل في ء الشجرة؟ لأن ظل الغمامة يعدم في في ء الشجرة التي نزل تحتها، ولم نر النبي ﷺ ذَكَّرَ أباطالب قط بقول الراهب، ولا تذاكرته قريش، ولا حكته أولئك الأشياخ مع توفر همهم ودواعيهم على حكاية مثل ذلك، فلو وقع لاشتهر بينهم أيما اشتهار، ولبقي عنده حس من النبوة ولما أنكر مجيء الوحي إليه أولا بغار حراء وأتى خديجة خائفا على عقله... وأيضا فلو أثر هذا الخوف في أبي طالب ورده، كيف كانت تطيب نفسه أن يمكنه من السفر إلى الشام تاجرا لخديجة؟» وفي الحديث ألفاظ منكرة، تشبه ألفاظ الطرقية، مع أن ابن عائذ قد روى معناه في مغازيه دون قوله: «وبعث معه أبوبكر بلالا».

وقال ابن كثير[١٠٧]: «فيه من الغرائب: أنه من مرسلات الصحابة، فإن أباموسى الأشعري إنما قدم في سنة خيبر سنة سبع من الهجرة... وعلى كل تقدير فهو مرسل... إن الغمامة لم تذكر في حديث أصح من هذا...» ثم اعترض على ذكر أبي بكر وبلال بما اعترض عليه الذهبي.

وقال ابن سيد الناس[١٠٨] إن في متنه نكارة. وقال الذهبي[١٠٩] في تلخيصه على المستدرك: «وأظنه موضوعا، فبعضه باطل.».

وأنكر الشيخ عبدالرحمن الوكيل[١١٠] في تعليقه على الروض الأنف، ذكر أبي بكر وبلال في هذا الحديث.

ونحن نميل مع الذين قبلوا هذا الحديث ولم يردوه، أمثال: الترمذي والحاكم وابن سيد الناس والجزري وابن كثير والعسقلاني والسيوطي وابن حجر والألباني، وغيرهم من القدماء والمُحْدَثين، إذ إنه يمكن الجمع بين أقوال النقاد. فمادامت المشكلة هي خطأ ورود ذكر أبي بكر وبلال في القصة،

---

(١٠٧) البداية والنهاية (٢/ ٣٠٧ - ٣٠٨).
(١٠٨) انظر. عيون الأثر في فنون المغازي والسير (١/ ٤٣).
(١٠٩) المستدرك للحاكم (٢/ ٦١٥).
(١١٠) الروض الأنف للسهيلي بشرح الوكيل (٢/ ٢٢٦ - ٢٧)

فتحمل على أنها مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهما من أحد رواته كما قال ابن حجر.

وذكر ابن إسحاق[١١١] القصة بنحو سياق الترمذي، وليس فيه ذكر أبي بكر وبلال، ولكنها بدون إسناد، فيستأنس بروايته لإمامته في المغازي، ويكاد يكون لكل رواياته غير المسندة أصل[١١٢].

أما إعلال ابن كثير[١١٣] للقصة لأنها من رواية الأشعري الذي قدم على الرسول ﷺ بعد فتح خيبر، فمع محاولة ابن كثير الإجابة عن ذلك فهناك رواية أخرى رواها رزين[١١٤] عن علي بن أبي طالب عن أبيه، وقال ابن الأثير[١١٥] عنها: «وليس بينها وبين رواية الترمذي عن أبي موسى كبير اختلاف، ولعل بها يزول الإرسال المذكور[١١٦]. ثم إن مرسل الصحابي يحتج به عند عامة العلماء.

وروى الأموي[١١٧] أن الرسول ﷺ سافر مع عمه الزبير في تجارته إلى اليمن، عندما كان له من العمر بضع عشرة سنة. وذكروا انهم رأوا منه آيات في تلك الرحلة، من ذلك: ان فحلا من الإبل كان يقطع الطريق في واد يمرون عليه، فلما رأى الفحل رسول الله ﷺ برك حتى حك بكلكله الأرض، فركبه رسول الله. وأنه اعترضهم سيل عرم فأيبسه الله تعالى حتى جاوزوا الوادي.

الحكمة من أقوال أهل الكتاب في صفة محمد ﷺ

إن في قصة الراهب بحيرى مع الرسول ﷺ دليل على معرفة أهل الكتاب

---

(١١١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٢٦ - ٢٤٠).
(١١٢) انظر: الدراسات التي تناولت أقوال النقاد عن ابن إسحاق في هذا الكتاب: مبحث مصادر السيرة...
(١١٣) البداية والنهاية (٢/ ٣٠٩).
(١١٤) انظر مقدمة جامع الأصول (١/ ٤٨).
(١١٥) جامع الأصول (١١/ ٢٥٩ - ٢٦١).
(١١٦) د. سليمان العودة: السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق، ص ١٣٤.
(١١٧) المغازي، كما نقله عنه ابن كثير في البداية (٢/ ٣٠٠ - ٣٠١) وإسناده ضعيف لأن فيه عثمان الوقاصي، وهو ضعيف، ولأنه مرسل، موقوف على ابن المسيب.

صفة رسول الله ﷺ وزمانه كما هي عندهم في كتبهم، وهي تفسر لنا قوله تعالى في اليهود ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾[118].

روى البخاري[119] من حديث عطاء بن يسار، أن عبدالله بن عمرو ابن العاص كان يقول إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾[120]، هي في التوراة: (يأيها النبي إنا ارسلناك شاهدا ومبشرا وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك: المتوكل. ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ولن أقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا).

ولقد كان سبب إسلام سلمان الفارسي وغيره (رضي الله عنهم)، تتبع خبر النبي ﷺ وصفاته من أحبار اليهود ورهبان النصارى.

ومن المعلوم أن أهل الكتاب حاولوا طمس هذه الحقيقة فيما بعد، كما حكى ذلك القرآن ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا﴾[121][122]. ولم يوفقوا في طمس كل الحقيقة كما هو واضح من عبارات وردت في بعض أناجيل النصارى خاصة ببيان اسم النبي ﷺ المنتظر وصفته وزمانه ومكانه[123]، وقد فصل في ذلك

---

(١١٨) البقرة: ٨٩. وانظر الآثار الواردة في تفسير هذه الآية عند الطبري (٢/ ٣٣٢ - ٣٦/ شاكر) وهي آثار يتقوى ضعفها ببعضه ليرتفع إلى مرتبة الحسن لغيره.

(١١٩) الفتح (١٨/ ٢١٣ - ١٤/ ح ٤٨٣٨). وانظر الحديث من طريق عبدالله بن سلام وكعب الأحبار وعائشة (رضي الله عنهم) في البخاري كما نقله عنه البيهقي في الدلائل (١/ ٣٧٦ - ٧٨). وانظر أحاديث أخرى في هذا الباب عند البيهقي في الدلائل (١/ ٣٧٨ - ٨٣).

(١٢٠) الأحزاب: ٤٥.

(١٢١) البقرة: ٧٩.

(١٢٢) انظر الآثار الواردة في تفسير هذه الآية عند الطبري: التفسير (٢/ ٣٣٢ - ٣٦/ شاكر).

(١٢٣) انظر. إنجيل برنابا، فصل ٤٢/ ٣ فما بعدها، وفصل ٤٣/ ٢٥ فما بعدها، وفصل ٤١/ ٢٧ فما بعدها. وانظر: إنجيل متى: ٤/ ١٧، ٢٠/ ٦١، ٢١/ ٤٢ - ٤٤. وانظر: العهد القديم ـ التوراة: سفر دانيال ٢/ ٣١ ـ ٤٥ فإنه يحدد الزمن الذي يظهر فيه النبي محمد ﷺ.

الدكتور محمد رواس قلعجي[124]. وسيأتي مزيد كلام عن هذه المسألة في الفصل الخاص بإرهاصات النبوة عندما قارب زمان الرسول ﷺ.

المبحث الثامن: أ ـ رعيه الغنم في صباه، والحكم والعبر من ذلك:

روى البخاري[125] بسنده إلى أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن نبي إلا وقد رعى الغنم، قالوا: وأنت يارسول الله؟ قال: نعم، كنت أرعاها على قراريط[126] لأهل مكة.».

وروى البخاري[127] ومسلم[128] من حديث جابر أن الرسول ﷺ رعى الغنم.

ومن أبرز الحكم والعبر في هذا الرعي:

١) قال ابن حجر[129]:« قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم ولأن مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ألفوا من ذلك الصبر على الأمة...» ثم قال:

«وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه

---

(١٢٤) في كتابه: من روح القرآن، ص ٣٥ وما بعدها من الطبعة الأولى، وكتابه محمد في الكتب المقدسة، وكتابه: العقيدة الإسلامية في مواجهة المذاهب الهدامة. وهذه الحاشية والتي قبلها أخذناها من كتابه: قراءة جديدة للسيرة النبوية، مرجع سبق ذكره، ص٣٩، وذلك تسهيلا لمن يرغب في الاستزادة.

(١٢٥) الفتح (١٠/٥/ح ٢٢٦٢).

(١٢٦) ذكر ابن حجر أن للعلماء قولين في معنى قراريط. أولها: القيراط جزء من الدينار أو الدرهم. وثانيهما: أن قراريط اسم موضع بمكة ـ الفتح (١٠/٥).

(١٢٧) الفتح (٢٠/٢٧٨/ح ٥٤٥٣).

(١٢٨) صحيحه (٣/١٦٢١/ح ٢٠٥٠).

(١٢٩) الفتح (١٠/٥ ـ ٦/ شرح الحديث رقم ٥٤٥٣).

من الأنبياء».

٢) يتجلى لنا في رعيه الغنم الذوق الرفيع والإحساس الدقيق اللذان جمل الله بهما نبيه محمدا ﷺ. إذ إن الرسول ﷺ ما ان آنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب لرفع بعض ما يمكن رفعه من مؤنة الإنفاق على عمه الذي وفر له وسائل العيش الكريم على الرغم من أنه كان ذو عيال كثيرين.

٣) إن الله (عز وجل) لا يعجزه أن يهيّئ لمحمد ﷺ كل وسائل الرفاهية ويغنيه عن الكدح سعيا وراء القوت، ولكن اقتضت حكمة الله أن تعلمنا ان خير مال الإنسان ما اكتسبه بجهده، وان قيمة الإنسان هي فيما يقدمه لمجتمعه من خدمات قدر طاقته.

٤) لن تكون لأصحاب الدعوات قيمة معتبرة عند الناس إذا كان كسبهم من عطايا الناس وصدقاتهم، ولذا فإن صاحب الدعوة أحرى الناس بالاعتماد على نفسه وجهده الشخصي في معيشته، والابتعاد عن الاستجداء، حتى لا يكون لأحد عليه منة أو فضل في دنياه فيعيقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق في وجهه(١٣٠).

المبحث التاسع: عناية الله له وحفظه من بعض أمور الجاهلية والحكم والعبر من ذلك:

لقد شارك الرسول ﷺ في إعادة بناء الكعبة عندما تهدمت. فكان ينقل معهم الحجارة للبناء وعليه إزاره. فاقترح عليه عمه العباس أن يجعل إزاره على منكبيه ليقيه الحجارة. وعندما فعل ذلك، سقط مغشيا عليه، فما رئي بعد ذلك عريانا(١٣١).

وكان يوما ينقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، وذلك عندما كان صغيرا يلعب مع أترابه غلمان قريش، فأخذ إزاره فجعله على رقبته ليحمل

---

(١٣٠) انظر البوطي. فقه السيرة. ص ص ٥٤ - ٥٥.
(١٣١) البخاري/ الفتح (٣/٢٤/ح ٣٦٤)، مسلم (١/٢٦٨/ح ٣٤٠).

عليه الحجارة، فتعرى، وحينها لكمه من لم يره لكمة موجعة، وقال له: «شد عليك إزارك»، فشده عليه، وذلك دون غيره من الغلمان الذين كانوا معه[١٣٢].

وروي أن الله عصمه مرتين عندما حاول أن يسمر كما يسمر الشباب. ولكن اختلف العلماء في تصحيح هذا الخبر. فبينما صححه الحاكم والذهبي[١٣٣] وغيرهما، ضعفه ابن كثير[١٣٤] والألباني[١٣٥] لعلل ذكروها، وحججهما قوية.

وخالف الرسول ﷺ قومه من أهل الحرم الذين عرفوا بـ«الحِمْس»[١٣٦]، إذ كان يفيض مع الناس من عرفات حين كانت الحمس تفيض من مزدلفة (جمع). وقد تعجب جُبَيْرُبن مُطْعِم من الرسول ﷺ لهذا الفعل[١٣٧]، وكان ذلك توفيقا من الله تعالى له، كما قال جبيربن مطعم بعد إسلامه[١٣٨].

وجاء الإسلام، فوضع الله تعالى أمر الحمس وما كانت قد ابتدعته

---

(١٣٢) ابن إسحاق - بدون إسناد، ابن هشام (١/ ٢٤١).

(١٣٣) المستدرك (٤/ ٢٥٤).

(١٣٤) البداية والنهاية (٢/ ٣١٢).

(١٣٥) حاشية فقه السيرة للغزالي، ص ص ٧٢ - ٧٣، ودفاع...، ص ١٣ وما بعدها وانظر الخبر في دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ١٨٦) وقال المحققان في تخريجه: «أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده وابن إسحاق والبزار والبيهقي وأبو نعيم وابن عساكر، كلهم عن علي بن أبي طالب. وقال ابن حجر: إسناده حسن متصل ورجاله ثقات. وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٦): رواه البزار ورجاله ثقات». ومن العلل التي ذكرها الألباني:
١ - إنه ليس على شرط مسلم كما توهم الحاكم والذهبي لأن مسلماً إنما يروي لابن إسحاق مقرونا بغيره، والحاكم لم يروه عنه مقرونا بغيره.
٢ - محمد بن عبدالله بن قيس ليس مشهور العدالة فلم يوثقه غير ابن حبان وهو ممن يوثق المجهولين.
٣ - ومحمد بن قيس ليس من رجال مسلم... وانظر بقية كلام الألباني في حاشية فقه السيرة للغزالي، ص ٧٣.

(١٣٦) والحِمْس هم أهل الحرم ومن ولدوا من العرب من ساكني الحل والحرم ومن دخل معهم من العرب مثل كنانة وجديلة، رأوا أن لهم منزلة فوق منزلة بقية العرب ولذلك ميزوا أنفسهم عنهم بأن تركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها. انظر: البخاري/ الفتح (٧/ ٣٢٠/ح/ ١٦٦٥) ومسلم (٢/ ٨٩٣ - ٩٤/ح ١٢١٩ وابن هشام (١/ ٢٥٦) وابن كثير (٢/ ٣١٣).

(١٣٧) البخاري/ الفتح (٧/ ٣٢٠/ح ١٦٦٤)، ابن إسحاق، بإسناد حسن (ابن هشام ١/ ٢٦١)، الحميدي: المسند (١/ ٢٥٥)، مسلم (٢/ ٨٩٤/ح ١٢٢٠)، الإصابة (٢/ ٦٥) ترجمة جبير ابن مطعم.

(١٣٨) من حديث ابن إسحاق بإسناد حسن - ابن هشام (١/ ٢٦١ - ٢٦٢)، البداية والنهاية (٢/ ٣١٣).

قريش، قال تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾[١٣٩].

وروى البيهقي[١٤٠] من حديث زيد بن حارثة أن الرسول ﷺ ما استلم صنما قط، وكان ينهى عن ذلك في الجاهلية. ورفض أن يمس صنم إساف أو نائلة عند طوافه كما كانت عادة أهل الجاهلية.

وروى ابن إسحاق[١٤١] أن بحيرا الراهب عندما حلف باللات والعزى، متابعة لقريش في طريقة حلفهم، قال له النبي ﷺ: «لا تسألني باللات والعزى شيئا، فوالله ما أبغضت بغضها شيئا قط.».

وحفظه الله (عز وجل) من كيد الشياطين[١٤٢]، في الجاهلية والإسلام[١٤٣].

ورفض الرسول ﷺ أن يعتكف عند صنم بوانة ـ حيث كان لقريش عيد عنده مرة كل عام ـ فغضب منه عمه أبوطالب وعماته غضبا شديدا، فعندما هم بمطاوعتهم عصمه الله من مس الأصنام، حيث تمثل له رجل أبيض طويل منعه من مسها، فلم يشارك في عيد لهم في حياته[١٤٤].

---

(١٣٩) البقرة: ١٩٩. وفي سبب نزولها انظر: مسلم (٢/٨٩٤/ح ١٢١٩) وابن اسحاق، بدون إسناد ـ ابن هشام (١/ ٢٦١). وما يروي بدون إسناد فهو من باب الضعيف.

(١٤٠) دلائل النبوة (٢/ ٣٤)، البداية (٢/٣١٢)، سيرة الذهبي، ص ٨١، وحسنه الذهبي وقال محقق سيرته، الدكتور تدمري: «رواه أبويعلى والبزار والطبراني ـ مجمع الزوائد (٩/ ٤١٨)»، قلت: «إسناده حسن لغيره لأنه فيه محمد بن عمرو بن علقمة بن أبي وقاص وهو صدوق له أوهام، وللحديث شاهد صحيح من حديث أسماء كما في السنن الكبرى للنسائي، ص ٤٩».

(١٤١) ابن هشام (١/ ٢٣٨) بإسناد معلق، وانظر البداية والنهاية (٢/ ٣١٢ ـ ١٣) ودلائل البيهقي (٢/ ٣٥). وكلها أسانيد ضعيفة. أما عدم حلفه باللات والعزى وبغضه لهما فقد ثبت بأسانيد صحيحة. وفي ذلك انظر أحمد: المسند (٤/ ٢٢٢) بإسناد صحيح، ورواه الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٥) وقال عنه: رجاله رجال الصحيح. والرواية تقول: «وكان جاره ﷺ هو وخديجة، يحدث أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: أي خديجة، والله لا أعبد اللات والعزى أبداً. والله لا أعبدالعزى أبداً. فتقول خديجة خل اللات، خل العزى..»

(١٤٢) دلائل أبي نعيم (١/ ١٩١)، الإصابة (٢/ ٣٨٩)، أحمد: المسند (٣/ ٤١٩)، وغيرها، ورجاله ثقات، كما ذكر محققا دلائل النبوة لأبي نعيم.

(١٤٣) انظر: دلائل النبوة لابي نعيم (١/ ١٩٢ ـ ٢١٢) واسناده في الطريقين ضعيف لضعف الحسين ابن عبدالله. ولكن تشهد له الأخبار الصحيحة والضعيفة التي جاءت عن بغضه الأصنام، فيتقوى.

(١٤٤) ابن سعد: الطبقات (١/ ١٥٨) من طريق الواقدي. فالإسناد ضعيف.

وروى البيهقي[١٤٥] ان ملكين منعاه أن يشهد مع المشركين مشاهدهم، فانتهى عن ذلك.

ومن أبرز الحكم والعبر من أخبار عناية الله وحفظه من أمور الجاهلية:

١ ـ أن في هذه الأخبار دليلاً على أن الرسول ﷺ كان مصونا عما يستقبح من أمور الجاهلية قبل البعثة وبعدها، وذلك من حماية الله تعالى له عما يسيء إلى شخصه ودعوته.

٢ ـ إن من الأمور المستقبحة عند الله تعالى التعرّي بحضرة الناس. وقد حرم الإسلام ذلك إلا للضرورة، مثل العلاج ونحوه[١٤٦].

٣ ـ إن عصمة الله تعالى له من ممارسة أفعال الجاهلية لدليل على تهيئة الله تعالى له لأمر جليل.

المبحث العاشر: حرب الفجار:

سميت الحرب التي دارت بين كنانة وقريش من جهة، وقيس عيلان من جهة أخرى بحرب الفِجَار لأنهم استحلوا المحارم بينهم[١٤٧]. وكان سببها تافها، لم يَعْدُ قتل رجل من قريش، تداعى بعده الأحلاف للقتال[١٤٨].

ذكر ابن إسحاق[١٤٩] ان هذه الحرب عندما هاجت كان لرسول الله ﷺ

---

(١٤٥) انظر الحديث كاملا عنده في الدلائل (٢/ ٣٥) والبداية والنهاية (٢/ ٣١٢) من حديث عثمان ابن أبي شيبة. قال ابن كثير عن الحديث: «أنكره غير واحد من الأئمة على عثمان بن أبي شيبة...
وقد حكى البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٦) عن بعضهم أن معناه أنه شهد مع من يستلم الأصنام، وذلك قبل أن يوحى إليه، والله أعلم».
وذكر الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ٣٥) أن عثمان بن أبي شيبة ممن اعتمده الشيخان في صحيحيهما. ورد قول العقيلي والأزدي اللذان ضعفا الحديث. وقال محقق دلائل البيهقي ـ الدكتور عبدالمعطي قلعة جي، الذي يميل الى تصحيح الخبر ـ في تخريج الحديث: «رواه أبو يعلى وابن عدي وابن عساكر عن جابر بن عبدالله...».
لقد أورد الذهبي في السيرة (٧٩ وما بعدها) أحاديث كثيرة تدل على عصمة الله للرسول ﷺ في الجاهلية، ومنها ما ساقه بأسانيده ولم يحكم عليها هو أو المحقق ـ الدكتور تدمري ـ ومنها ما لا إسناد له أصلا... وحسن الشيخ طرهوني إسناده كما في صحيح السيرة النبوية، حاشية رقم (٢٠٩).

(١٤٦) انظر ابن حجر: الفتح (٣/ ٢٤).

(١٤٧) انظر ابن حجر: الفتح (٣/ ٢٤).

(١٤٨) ابن هشام (١/ ٢٤١ ـ ٢٤٣) بدون إسناد. فهو ضعيف.

(١٤٩) ابن هشام (١/ ٢٤٣) بدون إسناد. فهو ضعيف.

عشرون سنة. وقال ابن هشام[١٥٠] إنها هاجت ولرسول الله ﷺ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، وان رسول الله ﷺ شهد بعض أيامهم مع أعمامه، وقال: «كنت أنبل على أعمامي» ـ أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

ولما كانت حرب الفجار قد استمرت زمنا طويلا فيمكن الجمع بين قولي ابن إسحاق وابن هشام بأن عمر الرسول ﷺ كان في مبتدئها نحو خمس عشرة سنة، ولذا كان ينبل على أعمامه. وعند انتهائها كان عمره عشرين سنة.

ومما يلفت النظر انه لم يرد ذكر لاشتراك الرسول ﷺ مباشرة في هذه الحرب وقد كان بلغ سن القتال، كما في رواية ابن إسحاق المذكورة. وعلل السهيلي[١٥١] ذلك لأنها كانت حرب فجار بين كفار، ولم يأذن الله تعالى لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله تعالى هي العليا.

قلت: لو صح حديث نبله على أعمامه، فهو دليل على اشتراكه في الحرب اشتراكا رمزيا غير مباشر، ويمكن تفسيره بأن الرسول ﷺ اشترك بهذه الكيفية في الدفاع عن المقدسات والمحارم، وخاصة أن قيس عيلان هي المعتدية، وهذا من القيم العليا التي اهتم بها الرسل والمصلحون، أي نصرة المظلوم.

المبحث الحادي عشر: شهوده حلف الفضول والحكم والعبر من ذلك:

روى أحمد[١٥٢] ان الرسول ﷺ قال: «شهدت حلف المطيبين[١٥٣] مع

---

(١٥٠) (١/ ٢٤١). وانظر تفاصيلها هنا، ص ص ٢٤١ ـ ٢٤٢، والحديث المنسوب إلى الرسول ﷺ إسناده منقطع، فهو ضعيف.

(١٥١) الروض الأنف (١/ ٢٠٩).

(١٥٢) المسند (٣/ ١٢١/ شاكر). وصحح شاكر إسناده.

(١٥٣) المطيبون: هاشم وزهرة ومخزوم. قاله بعض رواة حديث أبي هريرة عند البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٨). وقال البيهقي: «كذا روي هذا التفسير من رجال في الحديث ولا أدري قائله...».
وقد سبق القول إن ابن إسحاق (ابن هشام ١/ ١٧٩ ـ ١٨١) أشار إلى حلف المطيبين، وهو اختلاف قريش بعد قصي: بني عبد مناف ومن حالفهم، وبني عبدالدار ومن حالفهم... فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا عند الكعبة... ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم. ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم فسموا بالمطيبين. وتعاقد بنو عبدالدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا لعدو، فسموا الأحلاف...

عمومتي وأنا غلام، وما أحب أنّ لي حمر النعم وأني أنكثه». وقال في رواية البيهقي[١٥٤]: «ما شهدت حلفا لقريش إلا حلف المطيبين، وما أحب ان لي حمر النعم وأني كنت نقضته».

قال البيهقي[١٥٥] معلقا على هذا الحديث: «زعم بعض أهل السير[١٥٦] انه أراد حلف الفضول، فإن النبي ﷺ لم يدرك حلف المطيبين». والراجح عندي قول أهل السير.

والبيهقي نفسه يقول في السنن الكبرى[١٥٧] إن الرسول ﷺ لم يدرك حلف المطيبين.

ويمكن الجمع بين رواية أحمد والبيهقي ورواية أهل السير ان حلف المطيبين قد تجدد في حياة الرسول ﷺ وعرف باسم آخر هو «حلف الفضول»[١٥٨]، والله أعلم.

وروى الحميدي[١٥٩] ان رسول الله ﷺ قال: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان[١٦٠] حلفا لو دعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يعز ظالم مظلوما». وروى ابن إسحاق[١٦١]

---

(١٥٤) دلائل النبوة (٢/ ٣٧ - ٣٨)، ابن كثير: البداية (٢/ ٣١٥) من رواية البيهقي، ومن عدة طرق وإسناده قوي.

(١٥٥) الدلائل (٢/ ٣٨).

(١٥٦) يشير هنا إلى ابن قتيبة - صاحب المعارف -، الذي قال إن حلف المطيبين هو حلف الفضول، وغلطه البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٦٧) لأن النبي ﷺ لم يدرك حلف المطيبين الذي كان قبل أن يولد النبي ﷺ بمدة. ووافقه ابن كثير (البداية ٢/ ٣١٥) وجزم بأن الحلف المراد والذي شهده الرسول ﷺ هو حلف الفضول. و قال الدكتور قلعة جي في تحقيقه لدلائل البيهقي إنه من خلال سياق قصة تكوين حلف المطيبين يتبين أنه في زمان هاشم أبي عبدالمطلب جد الرسول ﷺ. وقد فرق ابن هشام بين حلف المطيبين وحلف الفضول. وذكر ابن اسحاق عناصر كل حلف منهما وسببه مما يبدو معه أن هناك فرقا بينهما. انظر مناقشة هذه القضية عند ابن كثير في البداية (٢/ ٣١٥ - ٣١٧) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٧ - ٤٢) خاصة حاشية المحقق.

(١٥٧) (٦/ ٣٦٧).

(١٥٨) انظر ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، (٣/ ٤٥٦/ مادة الفاء مع الضاد)، وأحمد شاكر: حاشيته على مسند أحمد (٣/ ١٢٢)، والشامي: سبل الهدى والرشاد (٢/ ٢٠٩).

(١٥٩) نقله عنه ابن كثير في البداية (٢/ ٣١٥) وإسناده صحيح. قال الشامي في سيرته والدكتور قلعة جي - محقق دلائل البيهقي (١/ ٤٠) إن قوله: تحالفوا... إلى آخره، مدرج من بعض رواته وليس بمرفوع. فلا دلالة حينئذ فيه.

(١٦٠) تيمي من قرابة عائشة (رضي الله عنها)، يكنى بأبي زهير.

(١٦١) ابن هشام (١/ ١٨٢ - ١٨٣) وإسناده صحيح مرسل، ويشهد له حديث الحميدي، فيتقوى.

أن الرسول ﷺ قال: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت».

لقد عقد هذا الحلف بنو هاشم وبنو عبدالمطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم، على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم[١٦٢]. وكان ذلك في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة، منصرف قريش من حرب الفجار، ولرسول الله ﷺ يومئذ عشرون سنة. وكان أول من دعا اليه الزبير بن عبدالمطلب، عم رسول الله ﷺ.

وكان سببه، ان رجلا من زبيد، قدم مكة ببضاعة له، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وكان ذو شرف، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف: عبدالدار ومخزوما وجمحا وسهما، فأبوا أن يعينوه على العاص، وزجروه. فلما رأى الزبيدي الشر، رقى على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فقال بأعلى صوته:

«يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمه ولا حرام لثوب الفاجر الغدر»

فقام في ذلك الزبير بن عبدالمطلب، وقال: «أهذا مترك؟» فاجتمعت قريش وزهرة وتيم، في دار عبدالله بن جدعان، فتحالفوا وتعاهدوا في ذي القعدة الحرام ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه ما بل بحر صوفة[١٦٣] ومارسا ثبير وحراء مكانهما، وعلى التأسي في المعاش. فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول. وقالوا لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر. ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها اليه[١٦٤].

---

(١٦٢) ابن إسحاق، بدون إسناد (ابن هشام ١/ ١٨٢).
(١٦٣) ما بل بحر صوفة يعني إلى الأبد، أي ما قام في البحر ماء ولو قطرة. انظر: الشامي سبل الهدى والرشاد، (٢/ ٢١٠).
(١٦٤) ابن كثير: البداية (٢/ ٣١٥) - ٣١٦) ولم يسنده، ولم يعزه لأحد من أهل السير، ورواه ابن سعد (١/ ١٢٨ - ٢٩) مختصرا، من طريق الواقدي. ولزيادة المعلومات عن سبب هذه التسمية انظر: السهيلي: الروض (١/ ١٥٥).

ومن أبرز الحكم والعبر من خبر شهوده حلف الفضول:

١) إذا كان أهل الجاهلية يرفضون الظلم بدوافع فطرية فأولى بأهل الإسلام رفضه بدوافع عقدية، لأن الإسلام، جاء حاثا على عدم الظلم ومتمشيا مع الفطرة ومقوما لها من أي انحراف. ولا غرابة أن يؤكد الرسول ﷺ على أهمية ذلك الحلف لأن مضمونه هو مضمون مادعا إليه الإسلام في أمر إحقاق الحق وإبطال الظلم.

٢) إن الدور الذي قام به الزبير في هذا الحلف لدليل على مروءة رجال البيت الهاشمي، وبيان فضلهم على غيرهم في مثل هذه المواطن، وحسبهم فضلا وشرفا أن الرسول ﷺ كان منهم.

المبحث الثاني عشر: أ ـ زواجه من خديجة

كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي بن كلاب امرأة حازمة شريفة لبيبة، من أوسط قريش نسبا، وأعظمهم شرفا، وأكثرهم مالا، وكان رجال قومها يحرصون على الزواج منها. وكانت تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم. فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها، من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجرا إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فوافق، وخرج مع غلام لها يدعى ميسرة. ومن خلال معاشرة ميسرة للرسول ﷺ رأى من الآيات والمعجزات ماحكاه لسيدته خديجة، فرغبت في الزواج منه(١٦٥).

ومن تلك الآيات ان الرسول ﷺ عندما قدم بصرى من أرض الشام، نزل في ظل شجرة، فقال نسطورا الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم قال لميسرة: أفي عينيه حمرة؟ قال: نعم، لاتفارقه، قال: هو نبي، وهو آخر الأنبياء.

---

(١٦٥) ابن إسحاق، دون إسناد ـ ابن هشام (١/ ٢٤٤ ـ ٤٥).

وكان ميسرة يرى ملكين يظلانه إذا اشتدت الهاجرة. وتقول الرواية إن خديجة رأت ذلك عندما دخل محمد ﷺ مكة في ساعة الظهيرة. وفي القصة انه وقع بين الرسول ﷺ ورجل تلاح في البيع، فقال الرجل للنبي ﷺ: أحلف باللات والعزى، فقال النبي ﷺ: «ما حلفت بهما قط، واني لأُمرُّ فأعرض عنهما».

وقال لميسرة: هذا والله نبي تجده أحبارنا منعوتا في كتبهم. وفي القصة أيضا أن تجارة الرسول ﷺ ربحت ضعف ماكانوا يربحون، وأضعفت خديجة للنبي ﷺ ضعف ما سمت له من قبل، وهو أصلا ضعف ماكانت تعطي لغيره من قريش.

وذكرت خديجة لابن عمها ورقة بن نوفل قول الراهب نسطورا الذي سمعه منه ميسرة، وهو: «ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي»، وما كان يرى ميسرة من إظلال الملكين له، فقال ورقة: «لئن كان هذا حقا ياخديجة، إن محمدا لنبي هذه الأمة، وقد عرفت انه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، هذا زمانه»(١٦٦).

كان هذا الذي سمعته خديجة من ميسرة وورقة تأكيدا لما كانت تعرفه من أخلاقه وعلو شأنه، لذا رغبت في الزواج منه، فأرسلت صديقتها نفيسة بنت منية تعرض عليه ذلك، فوافق ﷺ على ذلك، فتم الزواج(١٦٧).

وقد أخرج البزار(١٦٨) والطبراني(١٦٩) عن جابر ان أختاً لخديجة استكرت رسول الله ﷺ وشريكاً له. فلما قضيا السفر بقي لهما عليها شيء، فجعل

---

(١٦٦) رواه الطبراني في الأوسط، وقال الهيثمي في المجمع (٨/٢٥٦): «إسناده حسن». ورواه ابن إسحاق دون إسناد - ابن هشام (١/٢٤٧). وحديث الطبراني شاهد على أن لحديث المحاملي وابن سعد وابن إسحاق أصلا - سيأتي ذكر ذلك قريبا.

(١٦٧) رواه المحاملي كما ذكر الذهبي في السيرة، ص ٦٤، من حديث نفيسة بنت منية. وأنكر الذهبي ماجاء في قصة خروجه ﷺ إلى الشام تاجرا من حديث نفيسة بنت منية، الذي فيه خبر إرسال خديجة نفيسة لتعرض على الرسول ﷺ رغبتها الزواج منه. وهو عنده خبر ضعيف لأن فيه عبدالله ابن شبيب، وهو واه، وموسى بن شيبة، وهو ضعيف، وعمر بن أبي بكر العدوي وهو ضعيف. ورواه ابن إسحاق بدون إسناد (ابن هشام ١/٢٤٤ - ٢٤٥)، وابن سعد (١/١٢٩ - ١٣٣) باسناد ضعيف.

(١٦٨) انظر: كشف الأستار (٣/٢٣٧).

(١٦٩) مجمع الزوائد للهيثمي (٩/٢٢٢) والخبر إسناده حسن على الأقل.

شريكه يأتيهم ويتقاضاهم، وعندما يطلب من محمد ﷺ أن يفعل مثله يعتذر بحجة انه يستحي من ذلك. فذكرت ذلك لخديجة فأعجبت به وطلبت منه أن يخطبها إلى أبيها، فقال: أبوك رجل كثير المال وهو لا يفعل. قالت: انطلق فالقه وكلمه، ثم أنا أكفيك، وائت عند سكره.

وتزوجت خديجة، قبل الرسول ﷺ عتيق بن عائذ المخزومي فولدت له امرأة، ومن بعده تزوجت أبا هالة بن النباش التميمي، وولدت منه ابنها هنداً وامرأة، ومات أبو هالة في الجاهلية(١٧٠).

وذكر ابن سعد(١٧١) ان أول من تزوجها هو أبو هالة واسمه هند ابن النباش بن زرارة، فولدت له رجلاً يقال له هند ثم خلف عليها بعده عتيق ابن عابد بن عبدالله المخزومي، فولدت له جارية يقال لها هند، فتزوجها صيفي بن أمية بن عابد بن عبدالله. قلت: ولمحمد بن صيفي ترجمة في الإصابة والاستيعاب. أما الرسول ﷺ فكان أول من تزوجها هي خديجة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت(١٧٢). وكان ذلك سنة خمس وعشرين من مولده ﷺ في قول الجمهور(١٧٣).

واختلف العلماء في الذي تولى أمر زواجها. فقد ذكر البيهقي(١٧٤) ان

---

(١٧٠) قاله ابن حجر في الفتح (١٤/٢٨٧)، انظر: ابن عساكر، ص ص ١٤٠، ١٤٢، ١٤٨، ١٤٩. وهو من رواية ابن إسحاق في السير والمغازي، ص ٢٤٥. وعند ابن سعد (٨/١٥) ابن عابد وفي الإكمال (٦/١) ابن عائذ.

(١٧١) الطبقات (٨/١٤ - ١٥).

(١٧٢) مسلم (٤/١٨٨٩/ح ٢٤٣٦)، ابن هشام (١/٢٤٦) معلقا. وقال ابن حجر في الفتح (١٤/٢٩١): «وهذا مما لا اختلاف فيه بين أهل العلم بالأخبار».

(١٧٣) ابن حجر: الفتح (١٤/٢٨٦ - ٢٩٥). وقد أفرد البخاري بابا بعنوان: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها (رضي الله عنها)، فانظر: البخاري/ الفتح (١٤/٢٨٦ - ٢٩٥/ح ٣٨١٨ - ٣٨٢٤). وانظر ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق - السيرة النبوية، القسم الأول، ص ١٥٦، ١٥٧، ابن سعد (٨/١٦، ١٧) من طريق الواقدي، وقيل كان عمره يومئذ ثلاثين عاما - انظر ابن عساكر: تاريخ دمشق - السيرة النبوية، القسم الأول - ص ١٥٨، وإسناده ضعيف، وهو شاذ لمخالفته قول الجمهور.

(١٧٤) دلائل النبوة (٢/٧١ - ٧٢). وإسناده ضعيف جدا. وقاله ابن إسحاق - انظر: ابن هشام (١/٢٤٦). وله شواهد تقويه، منها: أ - حديث ابن عباس الذي رواه البيهقي في الدلائل (٢/٧٣) باسناد ضعيف. ب - حديث أبي مجلز عند ابن سعد (١/١٣٢) بإسناد ضعيف. ج - حديث ابن عباس عند أحمد: الفتح الرباني (٢٠/١٩٧) بإسناد قوي. د - حديث الزهري الذي رواه البيهقي في الدلائل (٢/٦٩) بإسناد مرسل.

الذي زوجه إياها هو أبوها خويلد، وهو سكران، وفي نهاية الخبر يقول الراوي ـ المؤملي ـ عمر بن أبي بكر: «والمجتمع ان عمها عمرو بن أسد الذي زوجها». وقد ضعف الهيثمي[١٧٥] هذا الخبر لأن فيه عمر بن أبي بكر ـ المؤملي ـ وهو متروك. وذكر ابن إسحاق[١٧٦] أن الذي زوجها هو أبوها خويلد، وقال السهيلي[١٧٧] وابن كثير[١٧٨] والشامي[١٧٩] ان ابن إسحاق ذكر في السيرة أن أخاها عمرو بن خويلد هو الذي زوجها، ولكن لم نجد ذلك في المطبوع من سيرة ابن إسحاق. وذكر الواقدي[١٨٠] أن عمها عمرو بن أسد هو الذي ولي نكاحها، وخطأ من قال بغير هذا، لأن والدها ـ كما ذكر ـ مات قبل حرب الفجار، ووافقه على هذا السهيلي[١٨١]، وابن سيد الناس[١٨٢] وابن عبدالبر[١٨٣]، والشامي[١٨٤].

وإذا ثبت هلاك والدها قبل الفجار فيلزم أن يكون الذي تولى نكاحها هو عمها. والظاهر ان أحاديث ولاية أبيها لنكاحها أقوى، لأنها جاءت من عدة طرق تعتضد لترتقي إلى درجة الحسن لغيره، وعلى أقل تقدير تدل على أن للقصة أصلا، والله أعلم[١٨٥].

وكان الذي ذهب مع الرسول ﷺ لخطبة خديجة، عمه حمزة بن عبدالمطلب.

---

(١٧٥) مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٠ ـ ٢٢١). وروى البيهقي من غير طريق المؤملي أن أباها زوجها وهو سكران. وقال المحقق: أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٣١٢) مطولا بإسناد ضعيف، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٠) عنه وعن الطبراني، وقال: «رجال أحمد رجال الصحيح».

(١٧٦) ابن هشام (١/ ٢٤٦).

(١٧٧) الروض الأنف (١/ ٢١٤).

(١٧٨) البداية والنهاية (٢/ ٣٢٠).

(١٧٩) سبل الهدى والرشاد (٢/ ٢٢٥).

(١٨٠) ابن سعد (١/ ١٣٢ ـ ١٣٣)، الطبري (٢/ ٢٨٢).

(١٨١) الروض الأنف (١/ ٢١٣).

(١٨٢) عيون الأثر (١/ ٥٠).

(١٨٣) الاستيعاب (٤/ ٢٨٠).

(١٨٤) سبل الهدى والرشاد (٢/ ٢٢٤). ويقول الشامي هنا: «... ما تقدم من أن عمها هو الذي زوجها رسول الله ﷺ ذكره أكثر علماء أهل السير. قال السهيلي: وهو الصحيح، لما رواه الطبري عن جبير بن مطعم وابن عباس وعائشة كلهم قال: إن عمرو بن أسد هو الذي أنكح خديجة رسول الله ﷺ وإن خويلداً كان قد هلك قبل الفجار ورجحه الواقدي وغلط من قال بخلافه».

(١٨٥) وقد حسن الشيخ محمد بن رزق بن طرهوني إسناد قصة ولاية أبيها لنكاحها وهو سكران «فلينظر تفاصيل تحقيقه لطرق هذه الرواية في كتابه: صحيح السيرة النبوية (١/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

لقد كان لخديجة (رضي الله عنها) مكانة عظيمة عند الرسول ﷺ. ورويت في الصحيحين[186] وغيرهما عدة أحاديث في مناقبها الكثيرة. ولا غرابة في ذلك، فهي ذات الخصال الحميدة التي ذكرنا طرفا منها، وفوق ذلك فهي التي عرفت بين قومها بـ«الطاهرة العفيفة»[187]. وهي التي رزق منها الرسول ﷺ جميع أبنائه[188] ما عدا إبراهيم، فهو من مارية القبطية[189]، والمتفق عليه من أولاده منها: القاسم - وبه كان يكنى - ومات صغيرا قبل المبعث أو بعده، وبناته الأربع: زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة - وقيل كانت أم كلثوم أصغر من فاطمة - ثم ولده عبدالله، الذي ولد بعد المبعث، وكان يقال له الطاهر والطيب[190]، ويقال هما أخوان له[191]. ومات الأبناء الذكور صغارا باتفاق[192]. أما البنات فأدركن البعثة ودخلن في الإسلام، وهاجرن معه ﷺ[193].

---

(١٨٦) انظر: البخاري/ الفتح (١٤/ ٢٨٦ - ٢٩٥/ح ٣٨١٨ - ٣٨٢٤)، مسلم (٤/ ١٨٨٦ - ١٨٨٩/ح ٢٤٣٠ - ٢٤٣٧). وزيادة على ذلك انظر: جامع الأصول (٩/ ١٢٠ - ١٢٥) وانظر تعليق ابن حجر على معنى ألا يتزوج عليها - الفتح (١٤/ ٢٩١) وتعليق النووي على أحاديث فضلها - مسلم بشرح النووي (١٥/ ٢٠٢)، والبداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٣١٨ - ٣٢٠). ومن أمثلة ذلك قول الرسول ﷺ: «خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة» - البخاري/ الفتح (١٤/ ٢٨٨/ح ٣٨١٨)، ومسلم (٤/ ١٨٨٦/ح ٢٤٣٠) عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: «أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يارسول الله، هذه خديجة، قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب» - البخاري/ الفتح (١٤/ ٢٩٣/ح ٣٨٢٣)، ومسلم (٤/ ١٨٨٧/ح ٢٤٣٢).

(١٨٧) انظر ابن عساكر: تاريخ دمشق، ص ١٠٩، ١٥٩.

(١٨٨) انظر: الفتح (١٤/ ٢٩١/ح ٣٨٢١)، سيرة الذهبي، ص ص ٦٥ - ٦٦، ابن هشام (١/ ٢٤٦). وذكر ابن إسحاق - بدون إسناد - أن أولاده الذكور هم: القاسم والطيب والطاهر. تسمية أزواج النبي ﷺ وأولاده لأبي عبيد ص ص ٤٨ - ٥٣، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ص ص ١٠٢ - ١٣٦، وقد استقصى - تقريبا - جميع الأقوال في أبناء الرسول ﷺ وتواريخ ميلادهم ووفاتهم وعددهم وأسمائهم، وما جاء في أحوالهم أحياء وأمواتا.

(١٨٩) انظر ابن حجر: الفتح (١٤/ ٢٩١)، ابن اسحاق - بدون إسناد (ابن هشام (١/ ٢٤٧)، ابن سعد (١/ ١٣٤ - ٣٥) بأسانيد مختلفة في بعضها الواقدي - وعموما فالخبر مشهور، لاخلاف فيه يذكر.

(١٩٠) انظر ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق - السيرة النبوية، القسم الأول، ص ١٠٨ و ١١٧.

(١٩١) المصدر نفسه، ص: ١٠٨، ١١٧، ١١٨.

(١٩٢) ابن حجر: الفتح (١٤/ ٢٩١)، البداية والنهاية (٢/ ٣١٨) - ١٩) البيهقي: الدلائل (٢/ ٧٠) من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جدا لأن فيه إبراهيم بن عثمان - متروك؛ ابن إسحاق - بدون إسناد (ابن هشام (١/ ٢٤٧ - ٢٤٧).

(١٩٣) البداية والنهاية (٢/ ٣١٩)، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٦٩).

وماتت خديجة عن خمس وستين سنة[١٩٤] كما هو المشهور، وقيل غير ذلك[١٩٥] وكان عمرها عندما تزوجها الرسول ﷺ اربعين سنة، كما هو المشهور[١٩٦]، وقيل غير ذلك[١٩٧].

ب ـ حكم وفوائد من هذا المقطع

١) إن في إظلال الملكين له وشهادة الراهب له بالنبوة دليلا على النبوة.
٢) إن في رغبة خديجة الزواج منه دليلا على ما كان يتميز به الرسول ﷺ من أخلاق عالية.
٣) إن الأحاديث الصحيحة الواردة في فضل خديجة دليل على شرفها وعلو مكانتها عند الله ورسوله والناس.
٤) لا غضاضة في أن تبدي المرأة الصالحة رغبة الزواج من الرجل الصالح كما فعلت خديجة عندما خطبت محمدا إلى نفسها، رغبة فيه لصلاحه.
٥) إن أول ما يدركه الإنسان من هذا الزواج هو عدم اهتمام الرسول ﷺ بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها، فلو كان مهتما بذلك كبقية أقرانه من الشبان لطمع بمن هي أقل منه سنا أو بمن ليست أكبر منه على اقل تقدير، أو بمن ليست ثيبا. ويتجلى لنا أنه ﷺ انما رغب فيها لشرفها ونبلها حتى انها كانت تلقب بالعفيفة الطاهرة. ولقد ظل هذا الزواج قائما حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاما. وقد ناهز هو الخمسين من العمر، وفي تلك الفترة ـ من فترة الشباب إلى الخمسين ـ تكون رغبة الرجال في النساء والميل إلى التعدد لدوافع الشهوة. ولكن الرسول ﷺ لم يفكر في ذلك، ولو شاء لوجد الكثير من النساء الراغبات أو الإماء،

---

(١٩٤) ابن سعد (٨/٦، ١٨) من طريق الواقدي وهو متروك.
(١٩٥) قال مصعب الزبيري: «وبلغت خديجة خمسا وستين سنة، ويقال خمسين، وهو أصح». نقلا عن دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٧٠ ـ ٧١) وابن كثير في البداية (٢/ ٣١٨) ولم يعلق عليه.
(١٩٦) انظر ابن سعد: الطبقات (٨/ ١٧) من طريق الواقدي والواقدي متروك.
(١٩٧) روى هشام الكلبي أن عمرها كان ثمانيا وعشرين سنة ـ انظر ابن سعد: الطبقات (٨/ ١٦ ـ ١٧). والكلبي متروك، وهذا القول شاذ. وفي رواية للواقدي أنها كانت يومئذ بنت خمس وأربعين سنة ـ انظر ابن عساكر: تاريخ دمشق ـ السيرة النبوية، القسم الأول ـ ص١٥٧ والرواية ضعيفة لأن الواقدي متروك في الحديث مع سعة علمه، ولا ننكر إمامته في المغازي والسير.

دون أن يخرج عن مألوف.

٦) إن في التقاء العفيفة الطاهرة بالصادق الأمين وإنجاب الذرية الصالحة من هذا الزواج لمكرمة أكرم الله نبيه ﷺ بها ليظل في مكانة اجتماعية مرموقة لا مطعن فيها.

المبحث الثالث عشر: أ ـ مشاركته في بناء الكعبة ووضعه الحجر الأسود في مكانه:

روى البيهقي[١٩٨] ان الله أوحى إلى إبراهيم (عليه السلام) أن ابن لي بيتا في الأرض، فضاق به ذرعا، فأرسل الله (عز وجل) إليه السكينة، وهي ريح خجوج[١٩٩] لها رأس، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت، ثم تطوقت إلى موضع البيت تطوق الحية، فبنى إبراهيم، فكان يبني ساقا كل يوم، حتى إذا بلغ مكان الحجر، قال لابنه: ابغني حجرا، فالتمس حجرا حتى أتاه به، فوجد الحجر الأسود قد ركب، فقال له ابنه: من أين لك هذا؟ قال جاء به من لم يتكل على بنائك، جاء به جبريل (عليه السلام) من السماء فأتمه.

وروى البيهقي[٢٠٠] من طريق آخر بمعناه، وزاد فيه، انه عندما انهدم بنته العمالقة، وعندما انهدم للمرة الثانية بنته جرهم وعندما انهدم للمرة الثالثة بنته قريش ورسول الله ﷺ يومئذ رجل شاب. وعندما أرادوا هدمه إذ هم بحية على سور البيت فروعتهم فلم يقدروا على هدمه. فاجتمعت قريش عند البيت وتضرعوا إلى الله ليزيل عنهم هذا البلاء، فأرسل الله طائرا فغرز مخالبه في قفا الحية، ثم انطلق بها يجرها حتى انتهى بها نحو أجياد، فتمكنت

---

(١٩٨) دلائل النبوة (٢/ ٥٥) وأخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٦٩ ـ ٧١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٢ ـ ٩٣) وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. ورواه الأزرقي في تاريخ مكة (١/ ٢٤ ـ ٢٥).

(١٩٩) خجوج: أي شديدة.

(٢٠٠) دلائل النبوة (٢/ ٥٦، ٥٧)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٥٨) وصححه وأقره الذهبي.

قريش من هدم الكعبة لإعادة البناء[٢٠١]. فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود إلى مكانه اختصموا فيه. فقالوا نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة، فكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم. فقضى بينهم أن يجعلوه في مِرْط، ثم ترفعه جميع القبائل[٢٠٢].

وروى الإمام أحمد[٢٠٣] وأهل السير[٢٠٤] ان قريشا عندما اختلفت في وضع الحجر الأسود في مكانه، قالوا: اجعلوا بينكم حكما، فقالوا أول رجل يطلع من الفج، فجاء رسول الله ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين، فقالوا له، فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم، فرفعوا نواحيه، فوضعه النبي ﷺ في مكانه المطلوب.

ولولا حكمة الله وهداية رسوله ﷺ إلى هذا الحل، لسفكت الدماء[٢٠٥]. فقد روي ان الخلاف في وضع الحجر الأسود قد وصل إلى أن قربت بنو عبدالدار جفنة مملوءة دما، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا، دون أن يردها إلى الوفاق أي رأي أو تدبير، حتى كان خمود نار الفتنة على يد رسول الله ﷺ[٢٠٦].

---

(٢٠١) طرف من حديث رواه عبدالرزاق في مصنفه (٥/١٠٢/ح ٩١٠٦) وقال الذهبي في السيرة ص ٧٧: «هذا حديث صحيح»، ورواه الذهبي بنحوه في السيرة، ص ٧٧، من حديث محمد ابن كثير المصيصي، بإسناد صحيح.

(٢٠٢) هو تكملة حديث البيهقي في الدلائل (٢/٥٦، ٥٧) وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/٤٥٨) وصححه وأقره الذهبي.

(٢٠٣) المسند (٣/٤٢٥) من حديث السائب بن عبدالله، ومن غير طريق ابن إسحاق وحسن الألباني إسناده ـ حاشية فقه السيرة للغزالي، ص ٨٤. وقد صحح السند نفسه الحاكم (١/٤٥٨) وسكت عنه الذهبي ـ انظر: الفتح الرباني (٢٠/ ٢٠٠ ـ ٢٠١) حيث رواية في إسنادها هلال بن خباب، وقد اختلط في آخره. ولكن له شاهد من حديث علي. ورواه الذهبي في سيرته، ص ٦٨، والبيهقي في دلائله (٢/٥٧) من حديث الزهري بإسناد مرسل، وفيه أن ذلك كان عندما بلغ رسول الله ﷺ الحلم!! "وبذلك يكون خبر حكم الرسول ﷺ بين قريش عندما اختلفوا في وضع الحجر الأسود صحيحا بمجموع هذه الطرق.

(٢٠٤) ابن إسحاق، بدون إسناد ـ ابن هشام (١/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥). وانظر حاشية المحققين في تخريج هذا الخبر. وانظر حاشية محققي الدلائل للأصبهاني (١/ ١٧٥، ١٧٦) وسيرة الذهبي، ص ص ٦٦ ـ ٦٨، ابن سعد (١/ ١٤٥) من طريق الواقدي. ويشهد لحديث ابن إسحاق حديث أحمد والحاكم والذهبي وغيرهم.

(٢٠٥) انظر أعداد الفريقين المتنافسين للحرب عند ابن إسحاق ـ ابن هشام (١/ ٢٥٤).

(٢٠٦) ابن إسحاق، بدون إسناد ـ ابن هشام (١/ ٢٥٤).

وعندما أكملوا البناء ساق الله إليهم سفينة من أرض الروم، فانكسرت قريبا من جدة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا روميا نجارا عندها، فأخذوا الخشب بإذنه، وقدموا بالخشب والنجار الرومي ليبني لهم به عرش الكعبة(٢٠٧).

وقد جزم عبدالرزاق(٢٠٨) وابن إسحاق(٢٠٩) ان عمر النبي ﷺ إذ ذاك كان خمسة وثلاثين عاما، وهو المشهور(٢١٠). وقيل كان ابن خمس وعشرين سنة(٢١١)، وقيل كان غلاما(٢١٢).

ب ـ حكم وعبر من هذا المقطع:

١) إن قبول قريش تحكيم الرسول ﷺ في أمر وضع الحجر الأسود في مكانه من البيت الحرام، ووصفهم له بالأمين، دليل على تربية الله سبحانه لنبيه على مكارم الأخلاق التي كان من بينها الصدق والأمانة.

٢) إن الاقتراح الذي توصل إليه الرسول ﷺ لحل هذه الأزمة كان بتوفيق من الله تعالى ليلفت أنظار الناس إلى ما سيختاره له الله من القيام بأمر أكبر من هذا لتوحيد الناس... وهو الإسلام.

٣) جاء إسهام الرسول ﷺ في القضايا الكبرى التي عاشتها مكة آنذاك، متنوعا شاملا مغطيا شتى مساحات العمل البشري الجماعي، وكأنه أريد له أن يجرب كل شيء، أن يسهم عاملا في كل اتجاه، وأن يبني عبر نشاطاته المتنوعة جميعا شخصية قادرة على التصدي لكل مشكلة،

---

(٢٠٧) طرف من حديث رواه عبدالرزاق في المصنف (٥/١٠٢/ح ٩١٠٦) وقد سبق تصحيحه وذكره في هذا المبحث نفسه. حاشية رقم (٢٠١).

(٢٠٨) المصنف (٥/١٠٢) بإسناد صحيح، ولفظه: «وكان بين بنيان الكعبة وبين ما أنزل الله خمس سنين».

(٢٠٩) سيرة ابن هشام (١/٢٤٩) بدون إسناد. فهو ضعيف.

(٢١٠) انظر: البداية والنهاية (٢/٣٢٤) والسيرة النبوية للذهبي، ص٧٧ من حديث عبدالرزاق الذي صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وهو في المصنف (٥/١٠٢ ـ ١٠٣) برقم ٩١٠٦.

(٢١١) البيهقي: دلائل النبوة (٢/٦٢) وممن قاله: موسى بن عقبة ومجاهد وعروة بن الزبير ومحمد بن جبير، بطرق موقوفة عليهم. وانظر البداية (٢/٣٢٤).

(٢١٢) البيهقي: دلائل النبوة (٢/٥٧)، وهو موقوف على الزهري. وانظر مناقشة هذه الأقوال عند الدكتور قلعة جي في حاشية الدلائل (٢/٦٢)....

والإسهام الإيجابي الفعال في كل ما من شأنه أن يعيد حقا أو يقيم عدلا... وكان إسهامه في بناء الكعبة، وحل مشكلة وضع الحجر الأسود التي كادت تؤدي إلى فتنة، اثنين من بين عدة أنشطة متنوعة قام بها الرسول ﷺ فأكسبته خبرة في مجال التعامل مع الأحداث(٢١٣).

المبحث الرابع عشر: أ ـ من إرهاصات النبوة عند اهل الكتاب وكهان العرب عندما قارب زمن بعثة الرسول ﷺ:

عقد ابن إسحاق(٢١٤) فصلا عن أخبار الكهان من العرب والأحبار من اليهود والرهبان من النصارى بقرب مبعث النبي ﷺ.

ومما روي في أمر كهان العرب بطرق صحيحة حديث ابن عباس في رمي الجن بالنجوم قطعا لمصدر كهانة العرب في الجاهلية(٢١٥). وخبر سواد بن قارب الكاهن مع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، حيث كان سواد يقول: «إن الشياطين قد سكتت ذليلة مغلوبة قبيل مبعث النبي ﷺ(٢١٦)»، وكان سبب إسلامه هو ما رآه من إرهاصات عن طريق ممارسته الكهانة والاستعانة بالجن في ذلك، كما جاء ذلك في خبره(٢١٧).

روى ابن إسحاق(٢١٨) في إخبار يهود برسول الله ﷺ ان يهوديا كان من جيران بني عبدالأشهل، حدثهم عن البعث والجزاء فاستنكروا ذلك وطالبوه

---

(٢١٣) انظر الدكتور عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، ص ص ٤٨ ـ ٤٩.
(٢١٤) سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٢).
(٢١٥) مسلم (٤/ ١٧٥١/ح ٢٢٢٩).
(٢١٦) انظره كاملا في سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٨) بسند منقطع من رواية ابن إسحاق، وروى قصته مع عمر: البخاري/ الفتح (١٥/ ٢١ ـ ٢٥/ح ٣٨٦٦)، ولم يصرح البخاري أن الكاهن هو سواد، ولكن ابن حجر هو الذي صرح بذلك من طرق يقوي بعضها بعضا ـ الفتح (١٥/ ٢٢)، وكذلك العيني في عمدة القاري (١٧/ ٦ ـ ٧)، وانظر دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٤٨ ـ ٢٥٤) بإسناد متصل إلى البراء بن عازب، وحاشية محققي سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٨).
(٢١٧) ابن حجر: الفتح (١٥/ ٢٥)، دلائل البيهقي (٢/ ٢٤٩ ـ ٢٥١).
(٢١٨) ابن هشام (١/ ٢٧٠) وسنده متصل ورجاله ثقات، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، فهو حسن. ورواه من طريقه غير واحد، مثل: أحمد (٣/ ٤٦٧)، الهيثمي: المجمع (٨/ ٢٣٠)، وأبونعيم: الدلائل (١/ ٧٤ ـ ٧٥)، والبيهقي: الدلائل (٢/ ٧٨ ـ ٧٩)، والحاكم: المستدرك (٣/ ٤١٧ ـ ٤١٨). وانظر سيرة الذهبي، ص ٧٤ والخبر صحيح عند كل هؤلاء.

بآية ذلك، فقال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده جهة مكة واليمن.

وروى ابن إسحاق[٢١٩] ان من أسباب إسلام ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد من يهود بني هدل، إخوة بني قريظة، ما أخبرهم به يهودي يقال له ابن الهيبان، قدم من الشام إلى المدينة قبيل البعثة بسنين. قال لهم إن سبب قدومه المدينة توقع خروج نبي فيتبعه، ودعا اليهود إلى اتباعه وألا يسبقهم إليه أحد، وذكر لهم بعض صفاته. فعندما تأكدوا منها يوم حصار قريظة أسلموا.

وفي قصة سلمان الفارسي وخروجه من بلاده بحثا عن الدين الحق وتقلبه في الرق إلى أن جاء إلى المدينة[٢٢٠]، وقصة ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو ابن نفيل وخروجهما من مكة بحثا عن الدين الحق حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، قال الراهب لزيد إن الذي تلتمس يوشك أن يظهر في أرضها[٢٢١]. في هذه القصص وغيرها دليل على ما كان سائدا عند اليهود والنصارى في ذلك الوقت، من اعتقاد بقرب ظهور النبي محمد ﷺ. وللصفات التي عرفت من الأحبار والرهبان عن الرسول ﷺ أسلم سلمان الفارسي.

---

(٢١٩) القصة عند ابن اسحاق بسند منقطع (ابن هشام ١/ ٢٧٢)، وكذلك في دلائل أبي نعيم (١/ ٨١) ودلائل البيهقي (٢/ ٨٠ ـ ٨١) كلاهما عن طريق ابن إسحاق، وعند ابن سعد (١/ ١٦٠) من طريق الواقدي. ويتقوى هذا الأثر بالمتابعة وقابل للاحتجاج به لأن البخاري ومسلم قد أشارا في صحيحيهما إلى أن بعض بني قريظة قد لحقوا برسول الله ﷺ فآمنهم وأسلموا. انظر: البخاري/ الفتح (١٥/ ٢٠٣/ح ٤٠٢٨)، ومسلم (٣/ ١٣٨٨/ح ١٧٦٦)، وأباداود في سننه (٢/ ١٤٠ ـ ٤١) وأباعوانة في مسنده (٤/ ١٦٣). انظر تخريج الخبر عند السندي في رسالته: مرويات تاريخ يهود المدنية، ص٢٧٣، ٢٨٠ ـ ٨١ .

(٢٢٠) انظر قصته بطولها عند ابن إسحاق بإسناد حسن (ابن هشام ١/ ٢٧٣ ـ ١٨٢) أما البخاري فقد ذكر توجيه الرسول ﷺ لسلمان بأن يعتق نفسه بالمكاتبة ـ البخاري/ الفتح (٩/ ٢٨٠/ك البيوع/ ب، شراء المملوك من الحربي) وهو معلق. ورواه غير واحد من طريق ابن اسحاق. انظر حاشية ابن هشام (١/ ٢٨٢)، وابن حجر: الفتح (٩/ ٢٨٠)، وقال ابن حجر هنا: «... وأخرجه ابن حبان والحاكم في صحيحيهما من وجه آخر عن زيد بن صوحان عن سلمان نحوه. وأخرجه أبو أحمد وأبو يعلى والحاكم من حديث بريدة بمعناه».

(٢٢١) الخبر بتمامه أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٣٩) وصححه، وأبوداود الطيالسي ـ ترتيب البنا (٢/ ١٦١) بإسناد حسن لغيره، إذ تقويه رواية ابن سعد (١/ ١٦٢) وانظره في دلائل البيهقي (٢/ ١٢٤ ـ ١٢٦). وفي خروج زيد إلى الشام انظر البخاري/ الفتح (١٤/ ٣٠٠/ح ٣٨٢٧).

وجاء في صحيح الأخبار ان الله تعالى لما أراد هدي زيد بن سعنة ـ الحبر اليهودي ـ قال: «إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت اليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما»، فخالط الرسول ﷺ حتى تأكد من هاتين الخصلتين[٢٢٢].

وجاء في الأخبار أن سبب إسلام عامر بن ربيعة العدوي هو ما كان يقوله زيد بن عمرو بن نفيل من أنه ينتظر نبيا من ولد إسماعيل من بني عبدالمطلب اسمه أحمد، ولا يرى أن يدركه، وكان ينعته للناس، لما عرفه عنه من أهل الكتاب[٢٢٣].

وكان قس بن ساعدة الإيادي يقول: «أقسم قس قسما برا لا إثم فيه، ما لله على الأرض دين هو أحب إليه من دين أظلكم إبّانه وأدرككم أوانه، طوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن أدركه ففارقه...»[٢٢٤].

وقال المفسرون وأهل السير إن الآية ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون[٢٢٥] على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾[٢٢٦] نزلت في اليهود

---

(٢٢٢) انظر الخبر بتمامه في سيرة الذهبي، ص ص ٩١ ـ ٩٣، وقال المحققان في تخريجه: «أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ زوائد ابن حبان، ص٥١٦، والطبراني والحاكم (٣/٦٠٤) وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو من غرر الحديث. وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٤٠) رجال الطبراني ثقات. وقال ابن حجر في الإصابة (١/٥٤٨): ورجال الإسناد موثقون. وقد صرح الوليد بن مسلم فيه بالتحديث. ومداره على محمد بن أبي السري، وهو محمد بن المتوكل، وثقه ابن معين ولينه أبوحاتم».

(٢٢٣) انظر القصة في الفتح (١٤/٢٩٧/ح ٣٨٢٦) وابن سعد (١/١٦١)، وقال محققا دلائل أبي نعيم (١/١٠٠) عن إسناد ابن حجر: «ويظهر أن إسناده عنده مقبول لأنه اشترط في مقدمة الفتح أن لا يذكر من الحديث إلا ما توفر فيه شرط الصحة أو الحسن (هدى الساري ١/١٦)، والسيوطي. الخصائص (١/٦١).»

(٢٢٤) انظر قصته في دلائل أبي نعيم (١، ١٠٤ ـ ١٠٥) ومما قاله المحققان في تخريج الخبر: «... وقال السيوطي في الخصائص ثم وقفت عليه من حديث سعد بن أبي وقاص أخرجه الإمام محمد ابن داود الظاهري في كتاب الزهرة له فقال: حدثنا... فذكره، وهو أمثل طرق الحديث...» ويفهم من تخريجهما للخبر أنه حسن... وانظره في دلائل البيهقي (١/١٠١ ـ ١٠٤) وفي إسناده مقال. وانظر كلامنا عن الحنفاء في تمهيدنا لهذا الكتاب ـ مبحث قس بن ساعدة.

(٢٢٥) يستنصرون الله به على مشركي العرب.

(٢٢٦) البقرة: ٨٩.

الذين كانوا في صراع مع الأوس والخزرج. وإذا نال الأوس والخزرج منهم قالوا لهم إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما ظهر اتبعه الأوس والخزرج وكفرت به اليهود(٢٢٧).

وقصة هرقل مع أبي سفيان تدل على ذلك، خاصة قول هرقل لأبي سفيان: «فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين.»(٢٢٨).

وجاءت الأحاديث مصرحة بأن محمدا ﷺ قد كتب نبيا منذ القدم. فقد روى الإمام أحمد(٢٢٩) والترمذي(٢٣٠) قول الرسول ﷺ: إنه كان نبيا «وآدم بين الروح والجسد». وعند أحمد(٢٣١) من حديث العرباض بن سارية: «وإن آدم لمنجدل في طينته». وعند أبي نعيم(٢٣٢)، قال، قال الرسول ﷺ: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث».

ب - حكم وعبر من هذا المبحث:

١) وخلاصة القول إن علماء اليهود والنصارى كانوا يعرفون الرسول ﷺ قبل مبعثه مما يجدونه من أوصافه وزمان خروجه في التوراة والإنجيل. وقد أشار القرآن إلى ذلك في عدة آيات(٢٣٣). ولذلك أسلم بعض اليهود وفي مقدمتهم عبدالله بن سلام وبعض النصارى وفي مقدمتهم النجاشي

---

(٢٢٧) ابن إسحاق، بإسناد فيه جهالة (ابن هشام ١/ ٧٠) ولكنه يتقوى مع المتابعة. ومن متابعاته رواية سلمة بن سلامة في قصة يهودي بني عبدالأشهل بإسناد حسن لذاته - انظر: مرويات يهود المدينة، ص ٤٩. وتفسير الطبري بتحقيق أحمد شاكر (٢/ ٣٣٣).

(٢٢٨) البخاري/ الفتح (١٢/ ٧١/ح ٢٩٤١)، مسلم (٣/ ١٣٩٥/ح ١٧٧٣).

(٢٢٩) المسند (٤/ ٥٩، ٦٦، ٥/ ٣٧٩) وانظر طرقه المختلفة.

(٢٣٠) السنن (٩/ ٢٣٧/ح ٣٦١٣/ ط. الدعاس) وقال عنه الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث أبي هريرة لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي الباب عن ميسرة الفجر». وصححه الألباني - صحيح الترمذي (٣/ ١٨٩/ح ٢٨٧٠).

(٢٣١) المسند (٤/ ١٢٨)، سبق تخريجه عند الكلام عن إرهاصات النبوة التي صاحبت ميلاده.

(٢٣٢) دلائل النبوة (١/ ٤٢) وقد رمز السيوطي في الجامع الصغير إلى صحته ولم يوافقه المناوي.

(٢٣٣) مثل الآية: ١٤٦ من سورة البقرة ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ والآية: ٢٠ من سورة الأنعام: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . . .﴾ والآية: ٦ من سورة الصف: ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾، والآية: ١٥٧ من الأعراف: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل. . .﴾ والآية: ٨٩ من البقرة: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾.

ملك الحبشة. وإن ممن امتنع عن الدخول في الإسلام لأسباب مادية أو سياسية كما هو الحال في قصة حيي بن أخطب وهرقل ومقوقس مصر.

٢) ويضاف إلى هذا ما سبق أن قلناه عند الكلام عن رحلته ﷺ إلى الشام والحكم المستفادة من ذلك.

المبحث الخامس عشر: التحنث في غار حراء

كان رسول الله ﷺ ينفرد إلى نفسه متقربا إلى الله (عز وجل) في غار معروف بغار حراء. وقد حبب الله إليه ذلك، لم يأمره بذلك أحد. فكان يبقى في هذا الغار الأيام والليالي إلى أن أتاه الوحي فيه[٢٣٤]، وكانت سنه آنذاك أربعين سنة[٢٣٥].

وكان يمكث في حراء شهرا من كل سنة، وكان ذلك مما تتحنث به قريش في الجاهلية، كما ذكر ابن إسحاق[٢٣٦]، ويطعم من جاءه من المساكين. وإذا قضى جواره من شهره هذا، كان أول ما يبدأ به الطواف بالكعبة[٢٣٧].

وقد اختلف العلماء في تعبده (عليه السلام) قبل البعثة، هل كان على شرع أم لا؟ وما ذلك الشرع؟ فقيل شرع نوح، وقيل شرع إبراهيم، وهو الأشبه الأقوى، وقيل موسى، وقيل عيسى، وقيل كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به. ولبسط هذه الأقوال ومناسبتها مواضع أخرى[٢٣٨].

المبحث السادس عشر: أ ـ من إرهاصات النبوة قبيل البعثة:

قالت عائشة (رضي الله عنها): «إن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث ـ يتعبد ـ فيه

---

(٢٣٤) انظر هذا المعنى في حديث عائشة عند البخاري في كتاب بدء الوحي وكتاب الأنبياء، والتعبير وغيرها ـ مثلا: البخاري/ الفتح (٢٦/ ٢٠٤/ح ٦٩٨٢).

(٢٣٥) من حديث أخرجه البخاري/ الفتح (١٥/ ٨٣/ح ٣٩٠٢).

(٢٣٦) انظر الخبر عند ابن هشام (١/ ٢٩٨) من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن وفيه دليل على أن التحنث كان معروفا في مكة.

(٢٣٧) جاء ذلك في حديث ابن إسحاق المذكور آنفا بإسناد حسن.

(٢٣٨) ابن كثير: البداية والنهاية (٣/ ٧).

الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله. ويتزود لذلك. ثم يرجع الى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء...»[٢٣٩].

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأعرف حجرا بمكة، كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث. إني لأعرفه الآن»[٢٤٠].

وروي أن ملكين أتياه وهو ببعض بطحاء مكة، فقال أحدهما للآخر: زنه برجل، فوزنه، فرجح به محمد ﷺ إلى أن وزنه بألف من أمته فرجحهم، ثم قال له: لو وزنته بأمته لرجحها. ثم قال أحدهما للآخر: شق بطنه، فشقه، ثم أخرج منه فعم ـ حظ ـ الشيطان، وعلق الدم، فطرحها، فقال أحدهما للآخر: اغسل بطنه غسل الإناء، ففعل، ثم دعا بالسكينة فأدخلت قلبه، ثم قال أحدهما للآخر: خط بطنه، ففعل، وجعلا الخاتم بين كتفيه، ثم وليا عنه، وكأنما يعاين الأمر معاينة[٢٤١].

وروي انه خرج من عند خديجة، ثم عاد فأخبرها انه رأى بطنه قد شق، ثم طهر وغسل، ثم أعيد كما كان، فقالت: «هذا والله خير فأبشر»[٢٤٢].

وقال النبي ﷺ لخديجة: «إني أرى ضوءا وأسمع صوتا وإني أخشى أن يكون بي جنن». قالت: «لم يكن الله ليفعل ذلك بك ياابن عبدالله»، ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت ذلك له فقال: «إن يك صادقا فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعزره، وأنصره، وأومن به»[٢٤٣].

---

(٢٣٩) البخاري/ الفتح (٢٦/ ١٩٧ ـ ٢٠٠/ح ٦٩٨٢)، مسلم (١/ ١٣٩ ـ ١٤٠/ح ١٦٠)، وغيرهما. واللفظ لمسلم.

(٢٤٠) مسلم (٤/ ١٧٨٢/ح ٢٢٧٧)، الترمذي: صحيح الترمذي للألباني (٣/ ١٩٢/ح ٢٨٦٥).

(٢٤١) من رواية ابن عساكر، نقلها عنه ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٢٩٩) ـ من حديث أبي ذر (رضي الله عنه). رواه البزار كما في مجمع الزوائد للهيثمي (٨/ ٢٥٥) وإسناده ضعيف، ويتقوى بحديث الزهري الآتي.

(٢٤٢) رواه البيهقي في الدلائل (٢/ ١٤٢، ١٤٥ ـ ١٤٦) من طريقين، الأول من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب، مرسلا. والثاني من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة مرسلا، والطريقان ضعيفان، ولكنهما شاهدان يتقوى بهما حديث ابن عساكر والبزار. انظر: محمد الصوياني: القصيمية: دراسة نقدية لنصوص السيرة النبوية، ص ص ١٨٧ ـ ١٨٩).

(٢٤٣) رواه أحمد: الفتح الرباني (٢٠٧٢٠) بإسناد حسن، من حديث عمار بن أبي عمار موصولا ومرسلا.

ب ـ العبـــر والعظـــات:

١) إن الآيات والمعجزات التي وقعت للرسول ﷺ من قبيل الإرهاصات الدالة على تميزه عن غيره من الحنيفيين الذين عاصروه، وأن الله (عز وجل) سيختاره هو بالذات لأمر عظيم.

٢) تقرير أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، إذ إن فترة الوحي كانت ثلاثا وعشرين سنة منها ستة أشهر كانت مناما.

٣) استحباب العزلة لفترات تعين المسلم على التفكير في أحوال المجتمع إذا سادت فيه الجاهلية والفساد. أما الاعتزال الدائم للمجتمع والذي ابتدعته جماعة من الجماعات الدينية في زماننا هذا فهو مخالف لسنته ﷺ العملية والقولية. فلم يعرف عن الرسول ﷺ انه اعتزل المجتمع، وقال في نبذ مثل هذه الاتجاهات:

«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرا من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»(٢٤٤).

«المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. وخير الناس أنفعهم للناس»(٢٤٥).

المبحث السابع عشر: أ ـ نزول الوحي:

فجأ أمين الوحي الرسول ﷺ لأول مرة في يوم الاثنين، الحادي والعشرين

---

(٢٤٤) أحمد: المسند (٧/ ٩٤/ ط. شاكر) وقال شاكر: «إسناده صحيح».
الألباني: صحيح سنن ابن ماجة (٢/ ٣٧٣/ ك. الفتن/ ب. الصبر على البلاء/ ح ٤٠٣٢)، وقال الألباني: «صحيح». وأشار إلى تخريجه في مشكاة المصابيح رقم ٥٠٨٧ وسلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٩٣٩.
الألباني: صحيح سنن الترمذي (٢/ ٣٠٧/ أبواب صفة القيامة/ ج ٢٦٣٨) وقال الألباني: «صحيح». ورواه البخاري في الأدب المفرد برقم ٥٨.
(٢٤٥) السيوطي: الجامع الصغير (٢/ ١٨٤) وقال: رواه الدارقطني، وهو صحيح.

من شهر رمضان[٢٤٦]، من العام الأربعين لميلاده ﷺ، بينما كان يتحنث بغار حراء. وقال له: اقرأ، قال في الحديث: «فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارىء، فأخذني الثانية فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ حتى بلغ إلى قوله ﴿ما لم يعلم﴾ قالت عائشة (رضي الله عنها) ـ راوية الحديث ـ: فرجع بها ترجف بوادره[٢٤٧] حتى دخل على خديجة، فقال: زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: ياخديجة، مالي! وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا فوالله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكَلَّ وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيراً قد عمي. فقالت: اسمع من ابن أخيك فقال: ياابن أخي ماترى؟ فأخبره. فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ياليتني فيها جذعاً أكون حياً حين يخرجك قومك، قال: أومخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت أحد بما جئت به إلا عودي وأوذي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم لم يلبث ورقة أن توفي»[٢٤٨].

أما الخبر الذي أورده ابن إسحاق[٢٤٩] عن كيفية بدء الوحي، والذي قال

---

(٢٤٦) جاء التصريح به في الآية الكريمة ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ البقرة: ١٨٥. وفي حديث عند مسلم (٢/ ٨١٩/ح ١١٦٢) وفيه التصريح بيوم الاثنين. وانظر: ابن هشام (١/ ٣٠٤) حيث قال ابن إسحاق إنه في رمضان واستشهد بآيات قرآنية غير هذه، ومسند أحمد (٥/ ٢٩٧، ٢٩٩) والسنن الكبرى للبيهقي (٤/ ٢٩٣). واختلف العلماء في تحديد تاريخ ذلك اليوم، ورجح المباركفوري في الرحيق، حاشية ص ٧٥ ـ ٧٦، أنه اليوم الحادي والعشرون وهو مالم يقل به غيره، حسب علمي المحدود.

(٢٤٧) البوادر: جمع بادرة وهي اللحمة التي ما بين المنكب والعنق، وقد جرت العادة أنها تضطرب عند الفزع. انظر: الشامي: سبل الهدى والرشاد (٢/ ٣٣٣).

(٢٤٨) البخاري/ الفتح (٢٦/ ٢٠٤/ح ٦٩٨٢)، مسلم (١/ ١٣٩ ـ ١٤٠/ح ١٦٠)، أحمد: الفتح الرباني (١٨/ ٤٧). والكَلُّ: الذي لا يستقل بأمره.

(٢٤٩) سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٩ ـ ٣٠٢) بإسناد حسن.

فيه «فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ...» فهو يخالف في الظاهر حديث عائشة (رضي الله عنها) عند البخاري ومسلم الذي فيه التصريح بأن مجيء الوحي كان في حالة اليقظة وأن الرؤيا الصادقة كانت قبل نزول الوحي، ولذا قال السهيلي[٢٥٠]: «وقد يمكن الجمع بين الحديثين بأن النبي ﷺ جاءه جبريل في المنام قبل أن يأتيه في اليقظة، توطئة وتيسيرا عليه ورفقا به، لأن أمرالنبوة عظيم، وعبئها ثقيل، والبشر ضعيف».

وقال ابن كثير[٢٥١] بما قاله السهيلي، ثم زاد: «... وقد جاء مصرحا بهذا في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري، انه رأى ذلك في المنام، ثم جاءه الملك في اليقظة»، وقال في مكان آخر[٢٥٢]: «ويحتمل ان هذا المنام كان بعدما رآه في اليقظة صبيحة ليلتئذ، ويحتمل انه كان بعده بمدة، والله أعلم».

ب ـ العبر والعظات والدلائل:

١) دل تصرف خديجة إزاء ما وقع للرسول ﷺ في الغار على رجاحة عقلها، وحسن تصرفها، وفضلها، وسلامة فطرتها.

٢) دل تحليل ورقة لظاهرة ما حدث للرسول ﷺ بالغار على صحة علمه وفضله.

٣) يتبين من رؤية الرسول ﷺ جبريل بعينيه، يقظة، أن ظاهرة الوحي ليست أمرا ذاتيا داخليا مرده إلى حديث النفس المجرد أو ما شابه ذلك من التمحلات، وإنما هي استقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات. وضم الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات، قائلا في كل مرة: «اقرأ...» يعتبر تأكيدا لهذا التلقي الخارجي ومبالغة في نفي ماقد يتصور من أن الأمر لا يعدو كونه خيالا داخليا فقط.

٤) أ ـ يدل خوفه مما حدث له مع جبريل على أنه ﷺ لم يكن متوقعا الرسالة

---

(٢٥٠) الروض الأنف (١/ ٢٦٩).
(٢٥١) البداية والنهاية (٣/ ٥٠٤)، ورواية ابن عقبة أوردها ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٤ ـ ١٥).
(٢٥٢) البداية والنهاية (٣/ ١٤).

التي سيدعى إلى حملها وبثها في العالم. وبذلك يتضح لكل عاقل مفكر ان ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد يتصوره أو يخطر في باله، وإنما طرأت طروءا على حياته وفوجيء بها دون أي توقع سابق. ولا شك ان هذا ليس شأن من يتدرج في التأمل والتفكير إلى ان تتكون في نفسه ـ بطريقة الكشف التدريجي المستمر ـ عقيدة يؤمن بالدعوة إليها!، كما يدعي بعض المستشرقين(*).

ب ـ الله (عز وجل) قادر على أن يربط على قلب رسول الله ﷺ ويطمئن نفسه بأن هذا الذي كلمه ليس إلا جبريل ـ ملك من ملائكة الله جاء ليخبره أنه رسول الله إلى الناس ـ ولكن الحكمة الإلهية الباهرة تريد إظهار الانفصال التام بين شخصية محمد ﷺ قبل البعثة وشخصيته بعدها، وبيان أن شيئا من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامي لم يكن في ذهن الرسول ﷺ مسبقا ولم يتصور الدعوة إليه سلفا.

جـ ـ إن فيما ألهم الله به خديجة من الذهاب به (عليه السلام) إلى ورقة، تأكيدا من جانب آخر بأن هذا الذي فوجيء به (عليه السلام) إنما هو الوحي الإلهي الذي كان قد أنزل على الأنبياء من قبله، وإزالة لغاشية اللبس التي كانت تحوم حول نفسه بالخوف والتصورات المختلفة عن تفسير ما رآه وسمعه(٢٥٣).

د ـ لو كان الوحي أمرا ذاتيا لما جاءت آيات في القرآن تعتب عليه أو تلومه لبعض التصرفات.

هـ ـ لو كان الوحي أمراً ذاتيا لما خاطب الله تعالى نبيه بقوله ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾(٢٥٤).

و ـ لو كان الوحي أمرا ذاتيا لما كان الرسول ﷺ يسكت عن إجابات

---

(٢٥٣) انظر البوطي: فقه السيرة، ص ص ٦٨ ـ ٧٠.

(٢٥٤) يونس: ٩٤. * أمثال كارادوفو الفرنسي. انظر: حاضر العالم الإسلامي (١/ ٣٩).

السائلين لفترة زمنية قد تطول وقد تقصر، ولما عانى من نتائج بعض الأحداث، مثل حادث الإفك الذي استمرت محنته لشهر. . إلخ.

٥) اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الرسول ﷺ أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وفي ذلك إبعاد لشبهة الشك في مصدر القرآن، وفي ذلك يقول المولى (عز وجل): ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾[٢٥٥].

المبحث الثامن عشر: فترة انقطاع الوحي ثم تتابعه:

انقطع جبريل (عليه السلام) عن النبي ﷺ بعد هذا فترة من الزمان، اختلف العلماء في مدتها. قال البوطي[٢٥٦]: «والراجح ما رواه البيهقي من انها كانت ستة أشهر». وقيل إن الأقرب إلى الصواب هو ماروي عن ابن عباس ان فترة انقطاع الوحي كانت أربعين يوما[٢٥٧]، وقيل إنها كانت أياما[٢٥٨].

لقد جزع رسول الله ﷺ من هذا الانقطاع، حتى قيل إنه كان يحاول أن يتردى من شواهق الجبال[٢٥٩]. وقد ضعف الشيخ الألباني[٢٦٠] هذه الجزئية من الحديث لكونها من بلاغات الزهري، وأنها تتنافى مع عصمة الأنبياء.

بعد فترة الفتور أو الانقطاع المذكورة، نزل عليه الوحي مرة أخرى. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله (عز وجل): ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾ إلى قوله: ﴿والرجز فاهجر﴾ (المدثر/ ١

---

(٢٥٥) العنكبوت: ٤٨.

(٢٥٦) فقه السيرة، ص ٦٧، ولم يذكر مكانه من مؤلفي البيهقي: الدلائل والسنن الكبرى، أو غيرهما. والذي وقفنا عليه في السنن الكبرى (٩/ ٦) أن الوحي انقطع، ولم يذكر أنها ستة أشهر.

(٢٥٧) انظر شرح المواهب اللدنية للزرقاني (١/ ٢٣٦) وذكر فيه الأقوال الواردة بهذا الصدد، ولم يستند أصحاب هذه الأقوال إلى دليل صالح للاحتجاج به، وانظر الشامي: من معين السيرة، ص ٢٩.

(٢٥٨) ابن حجر: فتح الباري (٢٦/ ٢٠٥/ح ٦٩٨٢).

(٢٥٩) البخاري/ الفتح (٢٦/ ٢٠٤ - ٢٠٥/ح ٦٩٨٢).

(٢٦٠) دفاع عن الحديث النبوي والسيرة، ص ٤٠.

- ٥)، فحمي الوحي وتواتر»[٢٦١].

ب - الحكمة من هذا الانقطاع:

١) ليحصل للرسول ﷺ التشوق إلى العود بعد أن تثبت لديه الحقيقة أنه أضحى نبيا[٢٦٢].

٢) إن في انقطاع الوحي ثم استمراره تأكيدا للحقيقة التي ذكرناها، وهي ان الوحي ظاهرة منفصلة عن ذات الرسول ﷺ.

المبحث التاسع عشر: مراتب الوحي:

قال ابن القيم[٢٦٣] إن الله تعالى قد كمل لنبيه من مراتب الوحي مراتب عديدة: أحدها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحي الله إليه، كما في حديث عائشة (رضي الله عنها): «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح...»[٢٦٤].

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال النبي ﷺ «إن روح القدس نفث في روعي انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب،... الحديث»[٢٦٥].

---

(٢٦١) البخاري/ الفتح (١٨/ ٣٢٥/ك. التفسير/ ب. وثيابك فطهر/ح ٤٩٢٥)، مسلم (١/ ١٤٣/ح ١٦١/ك. الإيمان/ ب. بدء الوحي)، أحمد: المسند (٣/ ٣٠٦)، و(٣/ ٣٩٢) أو انظر: الفتح الرباني (١٨/ ٤٨ - ٤٩).

(٢٦٢) انظر ابن حجر: الفتح (٢٦/ ٢٠٥ - ٢٠٦/ح ٦٩٨٢).

(٢٦٣) زاد المعاد (١/ ٧٨ - ٨٠)، وانظر: شرح السنة للبغوي (١٣/ ٣٢١) ومحمد رسول الله ﷺ لعرجون (١/ ٢٧٨).

(٢٦٤) البخاري/ الفتح (٢٦/ ٢٠٤/ح ٦٩٨٢)، مسلم (١/ ١٣٩/ح ١٦٠)، أحمد: الفتح الرباني (١٨/ ٤٧).

(٢٦٥) حديث يتقوى مع المتابعة والشواهد. وقد خرجه الألباني في حاشية فقه السيرة للغزالي، ص٩٦، وقال عنه: «حديث صحيح جاء من طرق: الأول عن ابن مسعود، أخرجه الحاكم (٢/ ٤) والثاني: عن ابن أبي أمامة أخرجه الطبراني في (الكبير) وأبونعيم في (حلية الأولياء) (١٠/ ٢٦، ٣٧). والثالث: عن حذيفة. أخرجه البزار كما في الترغيب (٣/ ٧) - والهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧١). فهذه طرق يقوي بعضها بعضا. وهذا والله أعلم - جزم ابن القيم في (زاد المعاد) بنسبة الحديث إلى الرسول. وخرجه محققا الزاد: شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط (١/ ٧٩). ويتفقان مع الألباني على تصحيح الحديث بالشواهد. وذكرا الشواهد التي ذكرها الألباني وأضافا شواهد أخرى، وهي حديث جابر عند ابن ماجه (٢١٤٤) وابن حبان (١٠٨٤) و(١٠٨٥).

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلا، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا[٢٦٦].

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض...»[٢٦٧].

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ماشاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما في سورة النجم[٢٦٨].

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن في قوله تعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾[٢٦٩] وثبوتها لنبينا ﷺ وهو في حديث الإسراء والمعراج، الذي فيه قول الرسول ﷺ: «... ثم عرج به حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»[٢٧٠].

المبحث العشرون: مراتب الدعوة ومراحلها:

أ ـ مراتب الدعوة..

ذكر لها ابن القيم[٢٧١] خمس مراتب: ـ

الأولى: النبوة، الثانية: إنذار عشيرته الأقربين، الثالثة: إنذار قومه، الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله، وهم العرب قاطبة، والخامسة: إنذار

---

(٢٦٦) كما في الحديث الذي قال فيه الرسول الكريم لعمر: «ياعمر أتدري من السائل؟ قلت ـ أي عمر ـ الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم». انظر: مسلم (١/ ٣٦ ـ ٣٧/ح ٨). قال محققا الزاد (١/ ٧٩). وروى النسائي بإسناد صحيح عن ابن عمر. «كان جبريل يأتي النبي في صورة دحية الكلبي.».

(٢٦٧) ممن أخرجه: البخاري/ الفتح (١٣/ ٣١/ح ٣٢١٥)، ومسلم (٤/ ١٨١٦/ح ٢٣٣٣)، وغيرهما.

(٢٦٨) الأنبياء: ٧ و١٣. وانظر مسلم (١/ ١٥٩/ح ١٧٧).

(٢٦٩) النساء: ١٦٤.

(٢٧٠) مسلم (١/ ١٤٩/ح ١٦٣).

(٢٧١) زاد المعاد (١/ ٨٦).

جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

ب ـ مراحل الدعوة خلال حياة الرسول ﷺ:[٢٧٢]

المرحلة الاولى: الدعوة سرا، واستمرت ثلاث سنين.
المرحلة الثانية: الدعوة جهرا والكف عن القتال. واستمرت إلى الهجرة.
المرحلة الثالثة: الدعوة جهرا مع قتال المبتدئين بالقتال، واستمرت إلى صلح الحديبية.
المرحلة الرابعة: الدعوة جهرا، مع قتال كل من يقف في سبيل سير الدعوة.

وقفة عند فقه هذه المراحل:

ربما يتبادر سؤال إلى الذهن، وهو: هل يجب على دعاة قيام الدولة الإسلامية ـ خاصة في العصر الحديث ـ التقيد بهذه المراحل بمداها الزمني كما وقعت للرسول ﷺ؟ والجواب عن هذا السؤال، هو أنه ليس عليهم التقيد بهذه المراحل[٢٧٣] ولا بالمدى الزمني الذي مرت به في حياة الرسول ﷺ. وذلك لأن المدى الزمني لتلك المراحل تقدير رباني وليس جهدا بشريا فقط[٢٧٤]. فالتقيد بهذه المراحل لا يتمشى مع مرونة الإسلام في معالجة الأمور ومواجهة الأحداث. والسيرة النبوية التي تمثل حركة الإسلام تفتح أمام الدعاة نماذج للخيارات المتعددة التي يقدمها المنهج الإسلامي بحركته الفذة الفريدة... وما السرية، أو طلب النصرة، أو الهجرة إلا وسائل اتخذها رسول الله ﷺ لنشر دعوته، ضمن ظروف ومواصفات معينة... فمثلا نجد في زماننا هذا ان الدول الغربية الديمقراطية لا تحجر أي نشاط لرجال الأديان المختلفة، فلا ضرورة

(٢٧٢) انظر البوطي: فقه السيرة، ص ٥٧. المباركفوري: الرحيق المختوم، ص ٨٤.
(٢٧٣) انظر زهير سالم: عثرات وسقطات في كتاب المنهج الحركي للسيرة النبوية ص ٢٩ وما بعدها والكتاب دراسة واعية للفقه الحركي الإسلامي من خلال السيرة، وتقويم موفق لدراسة الشيخ الغضبان في كتابه الرائد. المنهج الحركي للسيرة النبوية.
(٢٧٤) انظر منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص ٩. والكتاب يفتح بابا هاما للمناقشة بين رجال الدعوة الإسلامية لوضع أسس سليمة للمنهج الحركي للسيرة.

هنا للتقيد بمرحلة السرية في الدعوة، بينما نجد الدول الشيوعية لا تسمح للمسلم بممارسة أي نشاط سياسي، فيضطر أن يستخفي بدينه حتى يتمكن، وهنا تصبح السرية ضرورة اقتضتها ظروف معينة. وإذا اقتضت حكمة الدعوة أن يكون هناك عمل سريّ وآخر علنيّ فلا بأس، وذلك في مثل البلاد التي تسمح بنشاط المسلمين في حدود ضيقة جدا.

وخلاصة القول إن السرية تقدر بقدرها، حسب ظروف البيئة التي يعيشها المسلم(٢٧٥).

المبحث الحادي والعشرون:

أ ـ المرحلة الاولى: الدعوة السرية:

استجاب الرسول ﷺ للأوامر الإلهية التي صدرت له بالتبليغ، وقد جاءت هذه الأوامر واضحة في الآيات التي نزلت بعد آيات سورة العلق: ﴿ياأيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر. والرجز فاهجر: ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر﴾(٢٧٦).

لقد لخصت هذه الآيات الكريمات مضمون الدعوة التي أنيط به تبليغها إلى الناس. ولا تكاد الآيات القرآنية التي نزلت في مكة تخرج عن إطارها العام.

ففي قوله تعالى له: ﴿ياأيها المدثر﴾ إشارة إلى أن زمان التدثر والخلود إلى الراحة في المضجع بين الزوجة والأبناء قد ولى، وجاء زمان المجاهدة بكل أبعادها، المادية والمعنوية.

وفي قوله تعالى: ﴿قم فأنذر﴾ إشارة إلى تكليفه بأمر دعوة كل الناس إلى الإسلام. وفي قوله تعالى: ﴿وربك فكبر﴾ إشارة إلى أن ليس في الوجود أكبر من الله تعالى خالق الوجود. ولذا عليه أن يعلم الناس بهذه الحقيقة ليتواضع

---

(٢٧٥) انظر زهير سالم: المرجع السابق. ص ص ٢٨ ـ ٣٥، وهو هنا يناقش الشيخ الغضبان في قوله بإلزامية المرحلة السرية، ويبدو أن الغضبان قد انصب كلامه على بعض الأنظمة الاستبدادية وفاته ما هو واقع في كثير من البلاد الغربية، ولذا لم يوفق عندما عمم القاعدة. وانظر الدكتور البوطي، فقه السيرة، ص ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٢٧٦) سورة المدثر: الآيات ١ ـ ٧.

الناس كلهم لله الكبير المتعال. وهذا هو التوحيد المطلق.

وفي قوله تعالى: ﴿وثيابك فطهر﴾ إشارة إلى أن الداعية إلى الله لابد أن يبدأ بتطهير نفسه ظاهرا وباطنا حتى يكون المثل الأعلى لمن يدعوهم إلى الطهارة بكل معانيها.

وفي قوله تعالى ﴿والرجز فاهجر﴾ إشارة إلى أن التوحيد الخالص يقتضي عدم تعظيم أو تقديس أي شيء ليتبارك الخالق في ربوبيته.

وفي قوله تعالى ﴿ولا تمنن تستكثر﴾، إشارة إلى أن ماخص به من منع إعطاء الشيء ابتغاء شيء أكثر منه هو أنه مأمور بأجمل الأخلاق وأشرف الآداب ليكون مثلا أعلى للبشرية وهو يدعوها إلى مكارم الأخلاق.

وللقيام بهذه الأمور كان لابد من ختمها بحقيقة هامة للوصول إلى الأهداف المرجوة من هذه الأوامر، هذه الحقيقة هي أن تَحَمُّلَ أمانة الدعوة في عناصرها المذكورة لابد له من الصبر على كل أصناف أذى المعارضين، والصبر على تربية الأتباع والصبر على الابتلاء. فقال تعالى ﴿ولربك فاصبر﴾.

نهض الرسول ﷺ من فراشه وأخذ يدعو إلى ما أمر به سرا لمدة ثلاث سنين كما ذكر ابن إسحاق[٢٧٧]، ولفظه: وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين - فيما بلغني - من مبعثه. ومما يدل على السرية في الدعوة ماجاء في خبر إسلام عمرو بن عبسة (رضي الله عنه) حيث قال: «أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث وهو بمكة وهو حينئذ مُسْتَخْفٍ...»[٢٧٨]. بدأ بالدعوة الى التوحيد ونبذ كل مظاهر الشرك.

وكان تحركه في هذه الفترة وسط الذين تربطهم به صلات، مثل زوجته وأبنائه ومولاه وربيبه وأصدقائه وكل من يطمئن إلى انه يكتم السر[٢٧٩]. ولهذا يلحظ ان من أوائل الذين دخلوا في الإسلام:

---

(٢٧٧) ابن هشام (١/ ٣٢٥) - بدون إسناد.
(٢٧٨) مسلم (١/ ٥٦٩/ح ٨٣٢).
(٢٧٩) انظر ابن هشام (١/ ٣٠٩) - خبر إسلام علي.

١) زوجه خديجة (رضي الله عنها) التي كانت أول من آمن بالله وبرسوله ـ كما هو مشهور ـ وهونت عليه أمر الناس، وكانت بذلك أول مَنْ أُمِرَ الرسول ﷺ بتبشيره بالجنة، قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب، لاصخب فيه ولا نصب»(٢٨٠) وقد جاءت الأحاديث الصحيحة كثيرة في فضائلها وأخبارها(٢٨١).

٢) ابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان في حجره، وهو يومئذ ابن عشر سنين على أصح الأقوال(٢٨٢).

٣) مولاه زيد بن حارثة، الذي قال له الرسول ﷺ عندما جاء أبوه يطلبه: «إن شئت فأقم عندي، وإن شئت فانطلق مع أبيك، فقال: بل أقيم عندك.»(٢٨٣)، فأقام عنده وعرف بـ«زيد بن محمد» حتى نزلت آية:

---

(٢٨٠) البخاري/ الفتح (١٤/ ٢٨٦ وما بعدها/ ح ٣٨٢٢)، مسلم (٤/ ١٨٨٦/ ح ٢٤٣٣ ـ ٢٤٣٥، ابن إسحاق، بإسناد حسن ـ ابن هشام (١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦) واللفظ له، ابن كثير: البداية (٣/ ٢٦ ـ ٢٧).

(٢٨١) انظرها في أماكنها عند البخاري ومسلم وغيرهما في أبواب الفضائل والمناقب وانظر أخبارها في مصادر السيرة الأخرى، مثل: الذهبي في سيرته، ص ص ١٢٧ ـ ١٢٩، حيث أشار إلى المصادر التي ذكرت سبق إسلامها.

(٢٨٢) روى ابن إسحاق في السيرة، ص ١٣٧ من رواية يونس بن بكير بإسناد حسن ما يفيد أن عليا أول من آمن من الفتيان. انظر الخبر الذي فيه حوار عفيف مع العباس عندما جاءه بائعا ومبتاعا، فشاهد الرسول ﷺ يخرج الى الكعبة ويصلي ومعه امرأته خديجة وابن عمه علي بن أبي طالب، فقال عنهم عفيف: «فليتني آمنت يومئذ وكنت أكون ثانيا»، يعني الشخص الثاني من الذكور. ورواية يونس بن بكير هذه في دلائل البيهقي (٢/ ١٦٢ ـ ٦٣)، قال الدكتور قلعة جي في تخريجه لها: «حديث صحيح، أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير»، وابن كثير في التاريخ والحاكم في المستدرك وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي ورواه الطبري في «التاريخ» وابن عبدالبر في الاستيعاب. وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٠٣): رواه أحمد، وأبو يعلى بنحوه، والطبراني بأسانيد، ورجال أحمد ثقات». وروى خبر إسلامه ابن اسحاق بأسانيد منقطعة ـ ابن هشام (١/ ٣١٢ ـ ٣١٤)، وابن سيد الناس: عيون الأثر (١/ ٩٢ ـ ٩٣) بأسانيد ضعيفة. وعن الاختلاف في سنه يوم أسلم، انظر: السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧).

(٢٨٣) رواه ابن هشام معلقا (١/ ٣١٥ ـ ٣١٦)، والترمذي ـ مع اختلاف يسير في اللفظ ـ انظر: صحيح الترمذي للألباني (٣/ ٢٣١/ ح ٤٠٨٥) وفيه أن جبلة أخا زيد هو الذي قدم على رسول ﷺ في طلب أخيه زيد. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وحسنه الألباني، ورواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢١٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «صحيح» ورواه الطبراني في الكبير (٢/ ٣٢١ ـ ٢٢) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٧٤): «وإسناده حسن» وانظر تخريجه في حاشية محققي سيرة ابن هشام (١/ ٣١٦). وخبره مشهور، فانظره في كتب السير، مثل: عيون الأثر (١/ ٩٤) وابن إسحاق: ابن هشام (١/ ٣١٤) وسيرة الذهبي. ص ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾[٢٨٤].

٤) أبوبكر الصديق (رضي الله عنه). وهو أول من صدق من الرجال، وفيه قال الرسول ﷺ لعمر: «إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبوبكر صدق...»[٢٨٥]. وقال: «مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر إلا أبابكر، ماعتم منه حين ذكرته وما تردد فيه»[٢٨٦]. وقال هو عن نفسه عندما اختير خليفة للمسلمين: «ألست أحق الناس بها؟ ألست أول من أسلم؟...»[٢٨٧].

وفي إطار هذه السرية تحرك أبوبكر وسط أقاربه ومواليه وأصدقائه ومن يثق به من قومه. فاستجاب له نفر كريم، منهم: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف[٢٨٨]، وعثمان بن مظعون وأبوعبيدة بن الجراح وأبوسلمة بن عبدالأسد، والأرقم بن أبي الأرقم[٢٨٩].

ومن خلال علاقات هؤلاء وغيرهم أخذ الإسلام ينتشر في مكة وخارجها[٢٩٠]، ودخل فيه أناس من بطون قريش ومواليها كافة. ومن

---

(٢٨٤) الأحزاب: ٥، والخبر في صحيح سنن الترمذي للألباني (٣/ ٢٣١) من حديث ابن عمر وقد صححه الترمذي والألباني.

(٢٨٥) من حديث رواه البخاري/ الفتح (١٤/ ١٥٧/ح ٣٦٦١) وقال ابن كثير في البداية (٣/ ٣٠): «وهذا كالنص على أنه أول من أسلم (رضي الله عنه)».

(٢٨٦) رواه ابن إسحاق: السير والمغازي، ص ١٣٩، بإسناد منقطع والمنقطع ضعيف كما علمت.

(٢٨٧) من حديث رواه الترمذي - انظر: صحيح الترمذي (٣/ ٢٠١) وصححه الترمذي والألباني. والأحاديث الصحيحة في كون أبي بكر أول من أسلم من الرجال كثيرة، انظرها في البداية (٣/ ٣٠ - ٣٢) - وقد ناقش ابن كثير هنا الأحاديث المخالفة لهذه الحقيقة -، وعيون الأثر (١/ ٩٤ - ٩٥)، ابن هشام (١/ ٣١٦ - ٣١٩) سيرة ابن إسحاق، ص ص ١٣٩ - ١٤٠، سيرة الذهبي ص ١٣٨، فضائل الصحابة لابن حنبل (١/ ٢٢٣ - ٣١) تحت عنوان: ماروي أن أول من أسلم أبوبكر.
وقال ابن مسعود: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبوبكر و...» وإسناده صحيح وسيأتي ذكره في مبحث تعذيب الموالي (٢٣).

(٢٨٨) الى هنا ذكرهم ابن إسحاق في السيرة، ص ١٤٠، وفي سيرة ابن هشام (١/ ٣١٧ - ١٨) دون إسناد.

(٢٨٩) ومن ابن مظعون إلى الأرقم صرح ابن كثير في البداية (٣/ ٣٣) بأنهم أسلموا من طريق أبي بكر، زيادة على الآخرين.

(٢٩٠) في خبر إسلام عمرو بن عبسة عند مسلم - كما سبق الإشارة إليه - دليل على وصول خبر الإسلام إلى خارج مكة، حيث قال له الرسول ﷺ: «... ولكن الحق بقومك فإذا أخبرت أني قد خرجت فاتبعني».

اشتهروا بين السابقين إلى الإسلام من الموالي: بلال بن رباح وصهيب ابن سنان وعمار بن ياسر ووالده وأمه سمية بنت خباط[٢٩١].

وفي فترة وجيزة وصل عدد الذين سبقوا إلى الإسلام من بطون قريش إلى أكثر من أربعين نفرا، كما عدهم ابن هشام[٢٩٢]، وأكثر من خمسين كما عدهم اليعمري[٢٩٣].

٥) وثبت أن ورقة بن نوفل كان من المسلمين الأوائل، وذلك بدليل قول الرسول ﷺ: «قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بياض»[٢٩٤]. وقال ﷺ في رواية أخرى: «قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض أبصرته في بطنان الجنة، وعليه السندس»[٢٩٥]. وقال ﷺ: «لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين»[٢٩٦]، وقال: «يبعث يوم القيامة أمة وحده»[٢٩٧].

ويتضح من سجل أسماء السابقين الأولين إلى الإسلام انهم كانوا من خيرة أقوامهم ولم يكونوا كما يذكر بعض الكتاب المسلمين وغيرهم انهم كانوا في معظمهم خليطا من الفقراء والضعفاء والأرقاء الذين أرادوا استعادة حريتهم أو كرامتهم.

والقول السديد في هذا هو ان الذين تحملوا القسط الأكبر من التعذيب

---

(٢٩١) ورد ذكرهم في خبر موقوف على مجاهد وإسناده صحيح - انظره في فضائل الصحابة لابن حنبل (١/ ٢٣١). وأخرجه ابن سعد عن مجاهد مثله (٣/ ٢٣٣)، وابن حنبل في فضائل الصحابة (١/ ١٨٢) عن ابن مسعود بإسناد متصل حسن، كما خرجه المحقق، وهو في المسند (١/ ٤٠٤)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٧٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٨٤) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وابن هشام (١/ ٣٢٤) معلقا، ابن سعد (٣/ ٢٢٦) مرسلا عن الحسن، والطبراني في الكبير (٨/ ٣٤) عن أنس و(٨/ ١٣١) عن أبي أمامه وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٠٥): «ورجاله رجال الصحيح غير عمارة بن زاذان وهو ثقة، وفيه خلاف، وإسناده حسن.

(٢٩٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣١٨ - ٣٢٤).

(٢٩٣) عيون الأثر (١/ ٩٣ - ٩٨)، وانظر: جوامع السيرة لابن حزم، ص ص ٤٤ - ٥١.

(٢٩٤) رواه أحمد: الفتح الرباني (٢٠/ ١٧٤)، وحسن الساعاتي إسناده.

(٢٩٥) رواه ابن كثير في البداية (٣/ ١٠) عن أبي يعلى، وحسنه.

(٢٩٦) رواه البزار من طريق عائشة (رضي الله عنها) كما ذكر ابن كثير في البداية (٣/ ١٠)، وقال ابن كثير عن إسناده: «وهذا إسناد جيد». وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٩) من حديث عائشة (رضي الله عنها) وصححه ووافقه الذهبي. والحديث بجميع هذه الطرق حسن. وانظر تخريجه عند الألباني في حاشية فقه السيرة للغزالي، ص ١٠٠.

(٢٩٧) أخرجه الطبراني كما في المجمع (٩/ ٤١٦)، وقال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح».

هم الأرقاء والموالي، وكانت فتنتهم على ملأ من الناس، ولذا انتشر أمرهم، بينما امتنع الآخرون بأقوامهم، ومن عذب منهم عذب ضمن قبيلته. ولذا لم ينتشر أمرهم، ولم يذكروا كثيرا[٢٩٨].

وفي هذه المعاني رويت عدة أحاديث، منها ما رواه أحمد[٢٩٩] عن ابن مسعود، قال: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد[٣٠٠]، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه. وأما أبوبكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس...».

وذكر ابن إسحاق[٣٠١] ان قريشا عدت على من أسلم ووثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم. وذكر[٣٠٢] ان رجالا من بني مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد حين أسلم أخوه الوليد يستأذنونه في اتخاذ ما يرونه من وسائل لصده عن الدين هو ومن أسلم معه من فتية بني مخزوم، الذين كان منهم سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة. فسمح لهم بما يريدون وحذرهم من قتله.

وروى ابن إسحاق[٣٠٣] في قصة هجرة عمر وقصة عياش معه ان قريشا منعت هشام بن العاصي بن وائل السهمي من الهجرة مع عمر وعياش وفتنته فافتتن، واحتالوا على عياش فردوه من المدينة إلى مكة مقيدا.

وكان عمر بن الخطاب قبل أن يسلم يوثق سعيد بن زيد، ابن عمه، ويكرهه ليرجع عن الإسلام[٣٠٤]. ولم يستطع الرسول ﷺ أن يفعل لهم

---

(٢٩٨) انظر الشامي: من معين السيرة، ص ص ٣٥ - ٣٦.

(٢٩٩) سبق الإشارة إليه، وقلنا إن وصي الله قد حسن إسناده - فضائل الصحابة (١/ ١٨٢).

(٣٠٠) ابن سعد (٣/ ٢٣٣) عن مجاهد مرسلا، وذكر «خباب» بدلا من «المقداد» الذي في حديث أحمد.

(٣٠١) السيرة، ص ١٤٨، وابن هشام من رواية ابن إسحاق بدون إسناد (١/ ٣٩٢) وغير المسند ضعيف جداً كما تعلم.

(٣٠٢) ابن هشام (١/ ٣٩٦) من رواية ابن إسحاق بإسناد منقطع.

(٣٠٣) سيرة ابن هشام (١/ ١٢٩) عن ابن إسحاق بإسناد حسن. ورواه البزار، ورجاله ثقات كما قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٦٢)، البيهقي في الدلائل (٢/ ٤٦١ - ٤٦٢) والسنن الكبرى (٩/ ١٣ - ١٤) من طريق ابن إسحاق.

(٣٠٤) البخاري/ الفتح (١٥/ ١٩/ ح ٣٨٦٢).

شيئا. وحتى عندما استقر بالمدينة لم يملك لهؤلاء غير الدعاء، حيث كان يقول: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين بمكة، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف»(٣٠٥).

وقد أوضح ابن حجر(٣٠٦) معنى كلمتي «الضعفاء» و«الشرفاء» اللتين وردتا في حديث هرقل مع أبي سفيان. فمعنى الأولى عنده ان أتباع الرسل في الغالب أهل الاستكانة لا أهل الاستكبار الذين أصروا على الشقاق بغيا وحسدا، كأبي جهل وأتباعه. وفي معنى الثانية أن الشرف يقصد به ما يرادف التكبر. وهذا هو التفسير الذي ينبغي أن نفهم في ضوئه ما يرد من عبارات تتعلق بالشرفاء أو المستضعفين.

هذا ويلحظ أن من مجموع السبعة والستين الذين سبقوا إلى الإسلام ثلاثة عشر فقط ممن هم من الفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء والأخلاط من مختلف الأعاجم. فهم إذن نحو الخمس من المجموع. وما كان كذلك لا يقال عنه «أكثرهم» ولا «معظمهم» ولا «عامتهم»(٣٠٧).

ب ـ **العبر والعظات في هذا المقطع:**

١) إن في إلهام الله تعالى لرسول الله ﷺ بأن يبدأ الدعوة سرا، تعليما للدعاة في كل زمان ومكان، وإرشادا لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها. على أن لا يتغلب ذلك كله على الاعتماد والاتكال على الله وحده، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهبا يعطيها معنى التأثير والفعالية في تصوره وتفكيره. فهذا يخدش أصل الإيمان بالله

---

(٣٠٥) أحمد: المسند (١٢/ ٢٥٠/ح ٧٢٥٩)، وقال شاكر: «إسناده صحيح»، وعند ابن سعد (٤/ ١/ ٩٦) بهذا الإسناد، ورواه مسلم (١/ ٤٦٧/ح ٦٧٥) والبخاري عن أوجه كثيرة منها (٢/ ٢٤٢) و (٨/ ١٧٠).

(٣٠٦) فتح الباري (١/ ٣٥ ـ ٣٦/ح ٦)، ط دار القلم، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي.

(٣٠٧) انظر الشامي: من معين السيرة، ص ص ٣٧ ـ ٣٩ فكلامه في هذه الناحية من أروع ماكتب.

تعالى، فضلا عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام.

ومن هنا تدرك، ان أسلوب دعوته ﷺ في هذه الفترة كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماما، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبيا[٣٠٨].

٢) أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن انهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم إذا ما أجمعوا على حربهم، فينبغي أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس، لأن المصلحة المقابلة، وهي مصلحة حفظ الدين، موهومة أو منفية الوقوع، وهذا ما يقرره العز بن عبدالسلام[٣٠٩]. ويقول الدكتور البوطي[٣١٠] في تعليقه على هذا القول إنه من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد، فإنها في الواقع مصلحة دين، إذ المصلحة الدينية تقتضي ـ في مثل هذه الحال ـ أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى. وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضرارا بالدين ذاته، وفسحا للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدودا أمامهم من السبل.

وهو بهذا يعني أن عدم القتال تقديم لمصلحة الدين المتيقنة على مصلحة الدين المرجوحة.

المبحث الثاني والعشرون:

أ ـ الجهر بالدعوة:

روى أحمد[٣١١] عن علي (رضي الله عنه) قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وأنذر

---

(٣٠٨) انظر الدكتور البوطي: فقه السيرة، ص ٧٦.

(٣٠٩) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ١١١ ـ ١١٢) ط. مصر، سنة ١٩٦٨م وضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص ٢٦١، فقه السيرة للبوطي، ص ٧٧.

(٣١٠) فقه السيرة، ص ٧٧.

(٣١١) المسند (٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦/ تحقيق أحمد شاكر) وقال أحمد شاكر: «إسناده حسن»، وهو الطريق الأول، والطريق الثاني: المسند (٢/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣) وصحح شاكر إسناده.

عشيرتك الأقربين﴾ قال: جمع النبي ﷺ أهل بيته، فاجتمع ثلاثون، فأكلوا وشربوا، فقال لهم: من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة ويكون خليفتي في أهلي؟ فقال رجل: يارسول الله، أنت كنت بحرا، من يقوم بهذا؟... فعرض ذلك على أهل بيته، فقال علي: أنا.

وفي رواية ابن إسحاق[٣١٢] ان الرسول ﷺ قال لهم في ذلك اللقاء: «يابني عبدالمطلب إني والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة».

ثم خطا الرسول ﷺ خطوة أخرى لتنفيذ أمر الله تعالى. فقد روى البخاري[٣١٣] ومسلم[٣١٤] عن ابن عباس، قال: «لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[٣١٥]، ﴿ورهطك منهم المخلصين﴾[٣١٦]، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف ياصباحاه، فقالوا: من هذا: فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم ان خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: ماجربنا عليك كذبا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم. قال أبولهب: تبا لك ماجمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام. فنزلت ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾[٣١٧]».

---

(٣١٢) السير والمغازي، ص ص ١٤٥ - ١٤٦ ووصله الطبري في التفسير (١٩/ ٧٥)، وإسناده في المكانين ضعيف، ولكنه يتقوى بالشواهد. ومن شواهده: حديث أحمد المذكور بطريقيه، وحديث من رواية ابن أبي حاتم بسنده إلى علي، كما نقله عنه ابن كثير في التفسير (٦/ ١٨٠ - ١٨١).

(٣١٣) الفتح (١٨/ ٣٩٧/ح ٤٩٧١ - ٤٩٧٢) واللفظ له.

(٣١٤) (١/ ١٩٤/ح ٢٠٨).

(٣١٥) الشعراء: ٢١٤.

(٣١٦) قال النووي: «الظاهر إن هذا كان قرآنا أنزل ثم نسخت تلاوته، ولم تقع هذه الزيادة في روايات البخاري - انظر شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٨٢ - ٨٣) وذكر ذلك محمد فؤاد عبدالباقي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ١٩٤/ ...) ولم يعلق عليها، والدكتور قلعة جي في شرحه على دلائل البيهقي (٢/ ١٨١) ولم يعلق عليها. وقد نبه ابن حجر (الفتح ١٨/ ١١٣) على وجودها في رواية البخاري عن ابن عباس كما هو مبين في الحديث الذي أثبته هنا، ولا توجد هذه الزيادة في حديث البخاري الذي في كتاب التفسير - سورة الشعراء - باب وأنذر عشيرتك الأقربين - الفتح (١٨/ ١١٣/ح ٤٧٧٠)... وانظر شرح ابن حجر لمعنى هذه الزيادة. هذا وقد جاء هذا الحديث بعدة طرق وألفاظ تدور في نفس المعنى. فانظرها في المصادر المشار إليها، وفي غيرها، مثل: سيرة الذهبي، ص١٤٣ - ١٤٤، دلائل البيهقي (٢/ ١٨١ - ١٨٢)، والبداية والنهاية (٣/ ٤٢ - ٤٤).

(٣١٧) المسد: ١.

وروى الشيخان[٣١٨] عن أبي هريرة، قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشا. فاجتمعوا فعم وخص، فقال: «يابني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار. يابني مرة بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار. يابني عبدشمس! أنقذوا أنفسكم من النار. يابني عبدمناف! أنقذوا أنفسكم من النار. يابني هاشم!... يابني عبدالمطلب!... يافاطمة!... فإني لا أملك لكم من الله شيئا. غير أن لكم رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلَالِهَا.».

كانت هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ. فقد فاصل الرسول ﷺ قومه على دعوته، وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه وبينهم، وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله[٣١٩].

ب ـ دروس وعبر من هذا المقطع:

١) إن الموقف السلبي لعشيرة الرسول ﷺ بصفة خاصة والعرب القرشيين بصفة عامة من الدعوة في هذه الفترة، فيه الرد القاطع على من يحاولون تصوير هذا الدين بأنه ثمرة من ثمار القومية، ويدعون ان محمدا ﷺ إنما كان يمثل بدعوته التي دعا إليها، آمال العرب ومطامحهم في ذلك الحين.

٢) إن في تباطؤ الناس عن الدخول في الإسلام، لدليلاً على مدى قوة وتغلغل العادات والتقاليد في المجتمعات التي تعيش ردحا من الزمان في الجاهلية وفساد الفطرة. وهو وضع يواجهه الدعاة في كثير من المجتمعات قديما وحديثا، حتى المجتمعات الإسلامية، عندما يخبو فيها صوت الدعوة المهتدية بسنة الرسول ﷺ تجد أثرا كبيرا للعادات والتقاليد في تسيير حركة المجتمع في المجالات المختلفة، وتجد استنكارا ممن وقعوا في

(٣١٨) الفتح (١٨/١١٥/ح/ ٤٧٧١)، مسلم (١/١٩٢/ح ٢٠٤) واللفظ لمسلم ـ وانظر سيرة ابن إسحاق، ص ١٤٧.

(٣١٩) انظر فقه السيرة للغزالي، ص ١٠١.

أسر هذه العادات والتقاليد، لصوت العقل المهتدي بسنة الرسول ﷺ والسلف الصالح، في فهم الإسلام.

٣) إن في خصوصية الأمر بإنذار العشيرة، إشارة إلى درجات المسؤولية التي تتعلق بكل مسلم عموما والدعاة منهم خصوصا. فقد كان الرسول ﷺ يتحمل المسؤولية تجاه نفسه، بوصف كونه مكلفا. ويتحملها تجاه أسرته وأهله، بوصف كونه رب أسرة وذا آصرة قربى، ثم كان يتحمل المسؤولية تجاه الناس كلهم بوصف كونه نبيا ورسولا من الله عز وجل.

ويشترك مع النبي ﷺ في الأولى، كل مكلف، وفي الثانية كل صاحب أسرة، أو كل فرد له عشيرة، وفي الثالثة العلماء والحكام[٣٢٠].

المبحث الثالث والعشرون:

أ ـ أساليب المشركين في محاربة الدعوة الإسلامية:

لم تزل أصداء تلك الصيحة ـ وأنذر عشيرتك الأقربين ـ مدوية في جنبات أم القرى، حتى نزل قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾[٣٢١] فقام الرسول ﷺ مشمرا عن ساعد الجد، صادعا بالحق، داعيا إلى هجر الأوثان، مسفها عقول المؤمنين بها، مبينا حقائق الإسلام، داحضا الأباطيل العقدية التي تعشعش في عقول أهل الجاهلية.

عندما رأت قريش أن أثر هذه الدعوة لم يكن محدودا كما كان الحال مع من دعا إلى نبذ الأصنام قبل محمد ﷺ، أمثال زيد بن نفيل وورقة وابن صيفي، قامت في وجه محمد ﷺ ومن تبعه، وأخذت تمارس شتى أساليب ووسائل الترغيب والترهيب، لصدهم عن هذا الطريق الذي هدد مصالحهم، التي يجنونها من وجود الحرم في أرضهم، وحط من تكبرهم على غيرهم، ووقف أمام شهواتهم في السيطرة واقتراف السيئات والموبقات. وقد كان أكثر هؤلاء من أصحاب النفوذ والمصالح.

---

(٣٢٠) انظر الدكتور البوطي: فقه السيرة، ص ص ٨١ ـ ٨٢.
(٣٢١) الحجر: ٩٤.

ومن أبرز تلك الأساليب:

الأسلوب الاول: كان أول أسلوب لجؤوا اليه هو محاولة التأثير على عمه أبي طالب حتى يكفه عن الدعوة أو تجريده من جواره ـ أي حمايته ـ فقد ذهبت مجموعة من أشرافهم إلى عمه أبي طالب وقالوا له إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم أبوطالب قولا رفيقا وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه(٣٢٢).

الأسلوب الثاني: التهديد بمنازلة الرسول ﷺ وعمه أبي طالب.

ولما مضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو اليه، غضبت منه قريش وعادوه وحقدوا عليه وأكثروا من ذكره وحض بعضهم بعضا ومشوا إلى عمه مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وأقسموا بأنهم لن يصبروا على أفعاله حتى يكفه عنهم أو ينازلوه وإياه في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين. عند هذا عظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه(٣٢٣). ولذا أبلغ الرسول ﷺ بالذي قالوه، وطلب منه أن يبقي عليه وعلى نفسه ولا يحمله من الأمر مالا يطيق(٣٢٤).

وفي رواية لابن إسحاق(٣٢٥) أن الرسول ﷺ ظن أن عمه قد ضعف عن نصرته ولذا قال له: «ياعم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ماتركته»

---

(٣٢٢) ابن هشام (١/ ٣٢٨) من رواية ابن إسحاق، بدون إسناد.

(٣٢٣) المصدر والمكان نفسيهما، وسيرة ابن إسحاق، ص ١٤٥. وإسناد ابن إسحاق في المصدرين معلق لذلك فهو ضعيف.

(٣٢٤) ابن إسحاق، بإسناد منقطع ـ ابن هشام (١/ ٣٢٩) وسيرة ابن إسحاق، ص ١٥٤ بالإسناد نفسه، وهو منقطع كما قلنا فهو ضعيف.

(٣٢٥) ابن هشام (١/ ٣٢٩ ـ ٣٠) وسيرة ابن إسحاق، ص ١٥٤. وإسناد ابن إسحاق هنا معضل فهو ضعيف.

ثم بكى رسول الله ﷺ وقام من عند عمه، فلما ولى ناداه عمه، فقال: «أقبل يابن أخي». فلما أقبل قال له: «اذهب يابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا». وفي رواية أخرى لابن إسحاق[٣٢٦] من حديث عقيل بن أبي طالب أن أباطالب أرسل عقيلا إلى النبي ﷺ، فلما حضر قال له عمه: «إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم، فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم، قال: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة، فقال أبوطالب: والله ما كذبنا ابن أخي فارجعوا». وهذه الرواية هي الصحيحة.

ومن أبرز الحكم والعبر في هذين الأسلوبين، أن هذا الموقف القوي للرسول ﷺ من قومه ينسجم مع ما أمر به من البلاغ، أما موقف أبي طالب فعجيب حقا، ولم يجد ابن كثير[٣٢٧] تفسيرا له سوى قوله: «إن الله تعالى قد امتحن قلبه بحب محمد ﷺ حبا طبيعيا لا شرعيا. وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية، إذ لو كان أسلم أبوطالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه. ولتجرؤوا عليه، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه، وربك يخلق ما يشاء ويختار.

وقد قسم خلقه أنواعا وأجناسا، فهذان العمان كافران: أبوطالب وأبولهب. ولكن هذا يكون يوم القيامة في ضحضاح من نار[٣٢٨]، وذلك في الدرك

---

(٣٢٦) سيرة ابن إسحاق، ص ١٥٥ بإسناد حسن. وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٥): رواه أبويعلى بإختصار يسير من أوله، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح. وقال الألباني في حاشية فقه السيرة للغزالي، ص ص ١١٤ - ١١٥، بعد ذكره قول الهيثمي، قال: إن هذه القصة قد أخرجها مختصرة الطبراني في الأوسط والكبير من حديث عقيل بن أبي طالب... ورواه الذهبي في السيرة ص ص ١٤٨ - ١٤٩، بنفس سند ابن إسحاق، ثم قال: رواه البخاري في التاريخ عن أبي كريب عن يونس. وعند البيهقي في الدلائل (٢/ ١٨٦) من حديث عقيل، وقال البيهقي: رواه البخاري في التاريخ عن محمد بن العلاء، عن يونس (٤/ ١/ ٥١).

(٣٢٧) البداية والنهاية (٣/ ٤٥ - ٤٦).

(٣٢٨) إشارة إلى الحديث المتفق عليه عن العباس أنه قال: «يارسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «نعم هو في ضحضاح من النار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار». - انظر: البخاري/ الفتح (١٥/ ٤٠/ ح ٣٨٨٣)، مسلم (١/ ١٩٤ - ١٩٥/ ح ٢٠٩). والتخفيف عنه بسببه. والضحضاح: مارق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين.

الأسفل من النار، وأنزل فيه سورة في كتابه تتلى على المنابر وتقرأ في المواعظ والخطب تتضمن أنه سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب». (٣٢٩).

وظل أبوطالب طوال حياته ينهى الناس عن إيذاء الرسول ﷺ ويحميه وينأى عن الدخول في الإسلام. وقد روي أن الآية ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾(٣٣٠) قد نزلت فيه(٣٣١).

الأسلوب الثالث: الاتهامات الباطلة لصد الناس عنه.

ومن تلك الاتهامات:

أ) اتهموه بالجنون. وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿وقالوا ياأيها الذي نُزِّلَ عليه الذكرُ إنك لمجنون﴾(٣٣٢). وقد أجابهم الله في آية القلم ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ (القلم/ ٢). وحكى عنهم في قوله ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾(٣٣٣).

ب) اتهموه بالسحر. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾(٣٣٤)، ﴿وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا﴾(٣٣٥).

وقد تحير الوليد بن المغيرة فيما يصف به القرآن. فعندما أوشك دخول موسم الحج جمع فريقه من عتاة المعاندين، فقال لهم: «يامعشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد

---

(٣٢٩) سبق الإشارة إلى أن سورة «المسد» قد نزلت في أبي لهب، وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما.

(٣٣٠) الأنعام: ٢٦.

(٣٣١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٧) إن في سبب نزولها قولان: أحدهما: إن أبا طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ، ويتباعد عما جاء به، وقال: «رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهو قول عمرو بن دينار وعطاء بن دينار والقاسم بن مخيمرة».
والثاني: إن كفار مكة كانوا ينهون الناس عن اتباع النبي ﷺ ويتباعدون بأنفسهم عنه وقال: «رواه الوالبي عن ابن عباس وبه قال ابن الحنفية والضحاك والسدي».
قلت: وقد روى ابن إسحاق في السيرة، ص٢٣٨، بإسناده إلى ابن عباس ولكنه أبهم أحد رواته أنها نزلت في أبي طالب... وانظر تفسير الطبري بتحقيق شاكر (١١/ ٣١١ - ٣١٥) في تفسير هذه الآية.

(٣٣٢) الحجر: ٦. (٣٣٣) القلم: ٥١. (٣٣٤) ص: ٤. (٣٣٥) الفرقان: ٨.
وتتكرر مثل هذه التهم على ألسنة أولياء الشيطان تجاه موسى في أكثر من سورة. انظر في هذا: سورة القصص: آية ٣٦، والنمل: آية ١٣. وتتكرر على ألسنة الطواغيت عموماً للرسل. انظر الذاريات: ٥٢.

سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا...» وعلى الرغم من استبعادهم انه كاهن أو شاعر أو ساحر إلا انهم اتفقوا على أن يقولوا للناس إنه ساحر، لأنه يفرق بين الأقارب، فأنزل الله في الوليد ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا....﴾[٣٣٦] ثم أخذوا يتلقون الناس يحذرونهم من أمر محمد. وشاء الله أن تصدر العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها[٣٣٧].

وكان مثل هذه المواقف سببا في إسلام الناس في المواسم. وما روي في قصة إسلام طفيل بن عمرو الدوسي دليل على ذلك[٣٣٨].

جـ) واتهموه بالكذب، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾، ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾[٣٣٩].

د) واتهموه بالإتيان بالأساطير. قال تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾[٣٤٠].

هـ) وقالوا إن القرآن ليس من عند الله وإنما هو من عند البشر ﴿ولقد نعلم

---

(٣٣٦) المدثر: ١١. وانظر الآيات التي بعد هذه الآية في صفات الوليد.

(٣٣٧) ابن هشام (٢/ ٣٣٤ - ٣٣٧) من رواية ابن إسحاق، بدون إسناد. ورواه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٥٧) من طريق ابن إسحاق، موقوفا عن ابن عباس، وقد صرح عنده بالسماع، ورواه أبونعيم في الدلائل (١/ ٢٣٢) مرسلا في أول الخبر وموصولا في نهايته، وهو من طريق ابن اسحاق عن ابن جبير عن ابن عباس. قال محققا سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٦): «ورواه عبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم مختصرا. انظر: الدر المنثور (٦/ ٢٨٢) ورواه الواحدي في أسباب النزول من طريق ابن إسحاق، ص ٢٩٥، مختصرا. وفي سنده إسحاق بن إبراهيم الدبري وفيه كلام، انظره في الميزان (١/ ١٨١)».

(٣٣٨) انظرها في دلائل أبي نعيم (١/ ٢٣٨ - ٢٤٠)، قال المحققان: «أخرجه البيهقي عن ابن إسحاق معلقا، وهو في السيرة (١/ ٣٨٢) - بدون إسناد أيضا. قال في الخصائص (١/ ٣٣٧): أخرجه أبونعيم من طريق الواقدي... ووصله ابن إسحاق في بعض نسخ المغازي من طريق صالح ابن كيسان عن الطفيل بن عمرو وهو في سائر النسخ بغير إسناد...».

(٣٣٩) الفرقان: ٤. انظر تفسيرها في مثل: زاد المسير (٦/ ٧٢ - ٧٣). قال مجاهد في قوله وأعانه... آخرون: يعنون اليهود. وقال مقاتل: أشاروا إلى عداس مولى حويطب ويسار غلام عامر ابن الحضرمي وجبر مولى لعامر أيضا، وثلاثتهم من أهل الكتاب.

(٣٤٠) الفرقان: ٥. قال المفسرون إن الذي قال هذا هو النضر بن الحارث. انظر: زاد المسير (٦/ ٦٣).

أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾[٣٤١].

و) واتهموا المؤمنين بالضلالة... ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾[٣٤٢].

الأسلوب الرابع: السخرية والاستهزاء والضحك والغمز واللمز والتعالي على المؤمنين:

يقول الله تعالى عن سخريتهم من الذين آمنوا: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا، أليس الله بأعلمَ بالشاكرين﴾[٣٤٣] وروى البخاري[٣٤٤] أن امرأة قالت للرسول ﷺ ساخرة مستهزئة: «إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا!» فأنزل الله تعالى: ﴿والضحى والليل إذا سجى ماودعك ربك وما قلى﴾.

وروى البخاري [٣٤٥] أن أباجهل قال مستهزئا: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم». فنزلت: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام[٣٤٦].

وذكر ابن إسحاق[٣٤٧] حديث الإراشي الذي ابتاع منه أبوجهل الإبل ومطله بأثمانها ودلالة قريش إياه على رسول الله ﷺ لينصفه من أبي جهل

---

(٣٤١) النحل: ١٠٣. وفيمن أرادوا بهذا البشر تسعة أقوال... انظر: زاد المسير (٤/ ٤٩٢ ـ ٩٣).
(٣٤٢) المطففين: ٣٢.
(٣٤٣) الأنعام: ٥٣.
(٣٤٤) الفتح (١٨/ ٣٦٤/ح ٤٩٥٠). وقد وردت أقوال أخرى في سبب نزول هذه الآيات، منها المقبول ومنها المردود، انظر ابن حجر: الفتح (١٨/ ٣٣٦ ـ ٦٤).
(٣٤٥) الفتح (١٧/ ١٨٥/ح ٤٦٤٨).
(٣٤٦) الأنفال: ٣٢ ـ ٣٤
(٣٤٧) السير والمغازي، ص ص ١٩٥ ـ ١٩٦، بإسناد منقطع، وابن هشام (٢/ ٣٣ ـ ٣٤) بسند ابن إسحاق في السيرة فهو ضعيف والهامة: الرأس، والقَصَرَة: أصل العنق.

استهزاء لما يعلمون من العداوة بينهما. وعندما جاء الإراشي إلى رسول ﷺ شاكيا، مشى معه إلى أبي جهل وأخذ له بحقه. وعندما سألت قريش عن صنيعه هذا، قال: ويحكم والله ماهو إلا أن ضرب عليَّ بابي وسمعت صوته ملئت رعبا ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قَصْرَتِهِ ولا أنيابه لِفَحْلٍ قَطُّ، والله لو أبيت لأكلني.

وقال الله تعالى عن ضحكهم وغمزهم: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾(٣٤٨).

وثبت من طرق صحيحة أن أشراف قريش اجتمعوا يوما في الحجر يتذاكرون أمر الرسول ﷺ وما جاء به. وبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ ليطوف بالبيت. فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ثلاث مرات، فقال لهم: «يامعشر قريش، أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح...» وقد فزعوا من هذا الموقف(٣٤٩).

ومن منطلق الاستعلاء والسخرية، قال المشركون للنبي ﷺ: «لا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء ـ يعنون صهيبا وبلالاً وخبابا ـ فاطردهم عنك». فهم النبي ﷺ بذلك طمعا في إسلامهم وإسلام قومهم، فأنزل الله تعالى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾(٣٥٠).

ومر الرسول ﷺ يوما بجماعة من زعماء قريش فهمزوه واستهزؤوا به، فغاظه ذلك، فأنزل الله (عز وجل) ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق

---

(٣٤٨) سورة المطففين: ٢٩ ـ ٣١.

(٣٤٩) رواه أحمد في المسند: الفتح الرباني (٢٠/ ٢١٩ ـ ٢٢٠) وطبعة أحمد شاكر (١١/ ٢٢٧/ح ٧٠٣٦) وصحح شاكر إسناده، وابن أبي شيبة في المصنف: (١٤/ ٢٩٧) وابن إسحاق بإسناد حسن ـ ابن هشام (١/ ٣٥٨).

(٣٥٠) الأنعام: ٥٢. وانظر سبب نزولها في تفسير الطبري (١١/ ٣٧٤ ـ ٣٨٨) وقد جمع الطبري الآثار الواردة في ذلك وخرجها وحققها الشيخ شاكر. وما أثبتنا معناه هنا في المتن هو مضمون الأثر رقم (١٣٢٥٨) بإسناد صحيح. وقد روى مسلم والنسائي بعضه من حديث سعد بن أبي وقاص. (وانظر تفسير الآية عند ابن كثير والقرطبي وغيرهما).

بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزئون﴾[٣٥١].

ومن كبار المستهزئين والساخرين: الأسود بن عبدالمطلب بن أسد[٣٥٢]، الأسود بن عبد يغوث بن وهب الزهري، الوليد بن المغيرة المخزومي، العاص بن وائل السهمي[٣٥٣]، الحارث بن الطلاطلة الخزاعي[٣٥٤]. وروى أبونعيم[٣٥٥] ان الله تعالى أنزل فيهم: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾[٣٥٦]. فقد روي أن جبريل (عليه السلام) رمى في وجه الأسود بن عبدالمطلب ورقة خضراء فعمي. ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات من ذلك. ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى جرح بأسفل كعب رجله وكان أصابه قبل ذلك بسنين فانتقض به فقتله. ومر به العاص بن وائل، فأشار إلى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف فربض به حماره على نبات خفيف فدخلت في أخمص رجله منها شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فتحرك القيح فيه فقتله[٣٥٧].

ومن كبار المستهزئين الساخرين ـ أيضا ـ: أبوجهل[٣٥٨] وأمية بن خلف[٣٥٩]

---

(٣٥١) الأنعام: ١٠. وذكر ذلك ابن إسحاق بلاغا ـ ابن هشام (٢/٤٢). ولم يذكر المفسرون سببا معينا لهذه الآية. ومن ذكره منهم رواه من طريق ابن إسحاق، مثل ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٣/٥).

(٣٥٢) قاله ابن حجر في الفتح (١٨/٣٥٩) وأبونعيم في الدلائل (١/٢٦٨)، وانظر ابن هشام (١/٣٦٠) ورواية أبي نعيم من حديث ابن إسحاق بإسناد حسن ولكنه مرسل.

(٣٥٣) ابن هشام (١/٤٣٨).

(٣٥٤) هؤلاء الخمسة ذكرهم أبونعيم في الدلائل (١/٢٦٨) من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن ولكنه مرسل ومن طريق آخر (١/٢٧٠/ح ٢٠٣) بسنده إلى ابن عباس وفيه الكلبي ـ متروك.

(٣٥٥) دلائل النبوة (١/٢٦٨) من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن ولكنه مرسل، وهي من مرويات إبراهيم بن سعد، أحد تلاميذ ابن إسحاق.

(٣٥٦) الحجر: ٩٥. السير والمغازي، ص ص ١٩٥ ـ ١٩٦، بإسناد منقطع ـ ابن هشام (٢/٣٣ ـ ٣٤) بإسناد ابن إسحاق في السير والمغازي.

(٣٥٧) أخرجها أبونعيم في الدلائل (١/٢٦٨ ـ ٢٦٩) وقال المحققان: «أخرجه ابن إسحاق في السيرة (١/٤١٠) ورجاله ثقات وقد صرح ابن إسحاق بالسماع ولكنه مرسل. وقال السيوطي في الخصائص (١/٣٦٥): أخرجه البيهقي وأبونعيم عن ابن عباس فذكر نحو حديث الباب، ثم قال، وله طرق عن ابن عباس وغيره أوردتها في التفسير المسند. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٤٧) بعد أن أخرجه من حديث ابن عباس في سبب نزول قوله تعالى ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ بمعنى قريب من حديث الباب: أخرجه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن عبدالحكيم النيسابوري، ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات». وذكر ابن حجر في الفتح (١٨/٣) كيفية هلاك العاص.

(٣٥٨) ابن هشام (١/٤٤٧).

(٣٥٩) ابن هشام (١/٤٣٧).

والنضر بن الحارث[٣٦٠] والاخنس بن شريق[٣٦١] وأبي بن خلف[٣٦٢].

الأسلوب الخامس: التشويش:

كان المشركون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر عندما يقرأ القرآن، حتى لا يسمع فيفهم فيترك أثرا في عقل نقي وقلب طيب. وفي ذلك قال المولى (عز وجل): ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه لعلكم تَغْلِبُون﴾[٣٦٣].

الأسلوب السادس: طلبهم أن تكون للرسول ﷺ معجزات أو مزايا ليست عند البشر العاديين:

من ذلك قولهم ﴿... ماهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا. أو يلقَى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها﴾[٣٦٤] وقولهم: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا: ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ ورد عليه الله تعالى في الآية نفسها ﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أَتَّبِعُ إلا ما يوحى إليَّ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾[٣٦٥].

وقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض يَنْبُوْعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فَتُفَجِّرَ الأنهار خلالها تفجيرا. أو تُسْقِطَ السماء كما زعمت علينا كِسَفا أو تأتيَ بالله والملائكة قَبيلا. أو يكونَ لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولَن نؤمن لرقيِّك حتى تُنَزِّلَ علينا كتابا نقرؤه﴾. ولذا قال لهم الرسول ﷺ كما جاء في الآية نفسها ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾[٣٦٦].

---

(٣٦٠) ابن هشام (١/ ٤٣٩).
(٣٦١) ابن هشام (١/ ٤٤٣).
(٣٦٢) ابن هشام (١/ ٤٤٥).
(٣٦٣) فصلت: ٢٦، انظر زاد المسير (٧/ ٢٥٢).
(٣٦٤) الفرقان: ٧ - ٨ وقال تعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك، ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون﴾. الأنعام: ٨.
(٣٦٥) يونس: ١٥.
(٣٦٦) الإسراء: ٩٠ - ٩٤.

وسألوه أن يسير لهم جبال مكة ويقطع لهم الأرض ليزرعوها ويبعث لهم من مضى من الآباء الموتى أمثال قصي ليسألوه عن صدق محمد ورد الله عليهم في قوله: ﴿ولو أن قرآنا سُيِّرت به الجبال أو قُطِّعت به الأرض أو كُلِّمَ به الموتى بل لله الأمر جميعا﴾[٣٦٧]، أي لا أصنع من ذلك إلا ما شئت.

لقد كان طلبهم على وجه العناد، لا على وجه طلب الهدى والرشاد. فلهذا لم يجابوا إلى كثير مما طلبوا. قال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمِنُنَّ بها، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم إنها إذا جاءت لا يؤمنون... ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾[٣٦٨]. وقال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون...﴾[٣٦٩].

وروى أحمد[٣٧٠] من حديث ابن عباس، قال: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأن ينحي عنهم الجبال فيزدرعوا ـ اي يزرعوا مكانها ـ فقيل له إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم الأمم. قال: «لا، بل استأني بهم»، فأنزل الله تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن

---

(٣٦٧) الرعد: ٣١. وانظر سبب نزولها عند ابن كثير: التفسير (٣٨٢/٤)، والطبري (٤٤٦/١٦ ـ ٤٥٠/ شاكر) متصلا إلى ابن عباس ومرسلا إلى مجاهد والضحاك، وابن إسحاق ـ بدون إسناد ـ ابن هشام (٣٨١/١). وانظر الشامي: سبل الهدى (٤٥٦/٢ ـ ٥٧) من خبر رواه أبويعلى وأبو نعيم عن الزبير بن العوام، كما ذكر وانظره في (٤٥٢/٢) حول هذا الخبر من رواية ابن إسحاق وابن جرير والبيهقي ـ كما قال.

(٣٦٨) الأنعام: ١٠٩ ـ ١١١.

(٣٦٩) الإسراء: ٥٩ ـ انظر: ابن كثير: البداية والنهاية (٥٥/٣).

(٣٧٠) انظر: الفتح الرباني (٢٢٢/٢٠ ـ ٢٢٣) رواه من طريقين، نقلهما عنه ابن كثير في البداية (٥٧/٣) وقال: «وهذان إسنادان جيدان. وقد جاء مرسلا عن جماعة من التابعين، منهم: سعيد ابن جبير وقتادة وابن جريج وغير واحد». وقال: «وهكذا رواه النسائي من حديث جرير». وقال الساعاتي: الفتح الرباني (٢٢٣/٢٠): «أورده الهيثمي». وقال: «رجال الروايتين رجال الصحيح إلا أن في أحد طرقه عمران بن الحكم (يعني طريق حديث الباب) وهو وهم، وفي بعضها عمران أبوالحكم، وهو ابن الحارث وهو الصحيح، ورواه البزار بنحوه». ثم قال الساعاتي: «وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره وعزاه للإمام أحمد وابن مردويه والحاكم في مستدركه.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي». وذكر الشامي في سبله (٤٥٨/٢) أن ممن رواه أيضا الضياء في صحيحه عن ابن عباس.

كذب بها الأولون. وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾[٣٧١].

وروي أنهم طلبوا منه أن يجعل صخرة معينة ذهبا لينحتوا منها وتغنيهم عن رحلتي الشتاء والصيف[٣٧٢].

الأسلوب السابع: المساومات:

لقد حاولت قريش من خلال هذا الأسلوب أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق، وذلك بأن يترك المشركون بعض ماهم عليه، ويترك النبي ﷺ بعض ماهو عليه. قال تعالى ﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾[٣٧٣].

وعندما قالوا له أعبد آلهتنا يوما ونعبد إلهك يوما، أنزل الله تعالى سورة الكافرون: ﴿قل ياأيها الكافرون. لاأعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين﴾ وحسم هذه المساومة الهزلية.

لقد ساوموا عمه فيه، حين اقترحوا على عمه بأن يعطوه عمارة بن الوليد بن المغيرة بدلا عن محمد ﷺ فيأخذوه ويقتلوه[٣٧٤].

وعندما اشتكى أبوطالب وبلغ قريش ثقله قال بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها. فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن اخيه وليعطه منا فإنا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا. وعندما جاء وفدهم إلى أبي طالب، قال لمحمد ﷺ: «يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك. فقال رسول الله ﷺ: نعم كلمة واحدة يعطونيها يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم. وفي رواية: تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية. ففزعوا لكلمته ولقوله. فقال القوم: كلمة واحدة؟ قال: نعم. فقال

---

(٣٧١) الإسراء: ٥٩.

(٣٧٢) من رواية أبي يعلى وأبي نعيم عن الزبير بن العوام. كذا قال الشامي في السبل (٢/٤٥٧)، وبقية الخبر هو في معنى الخبر السابق.

(٣٧٣) القلم: ٩.

(٣٧٤) ابن هشام (١/ ٣٣٠) من رواية ابن إسحاق بدون إسناد.

أبوجهل: نعم وأبيك عشر كلمات: قال: تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه. فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: يامحمد تريد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدا؟ إن أمرك لعجب.

ثم قال بعضهم لبعض: ماهذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون فانطلقوا وامضوا على دينكم حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا، فأنزل الله فيهم أول سورة «ص»...[٣٧٥]

الأسلوب الثامن: سب القرآن ومنزله ومن جاء به:

روى البخاري[٣٧٦] ومسلم[٣٧٧] والترمذي[٣٧٨] وغيرهم في قوله تعالى ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ أن ابن عباس قال: «نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة. كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن: ﴿ولا تخافت بها﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم، ﴿وابتغ بين ذلك سبيلا﴾.»

وروى ابن إسحاق[٣٧٩]: أن رسول الله ﷺ كان إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يستمع من

---

(٣٧٥) رواه أحمد: المسند (٣/ ٣١٤ - ٣١٥/ تحقيق شاكر) وقال شاكر: «إسناده صحيح»، والترمذي: السنن (٨/ ٣٦١/ح ٣٢٣٠).
وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والحاكم: المستدرك (٢/ ٤٣٢) وصححه ووافقه الذهبي، والطبري: التفسير (٢٣/ ١٢٥)، والواحدي: أسباب النزول، ص ٢٠٩، والسيوطي: الدر المنثور (٥/ ٢٩٥) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وعبد بن حميد والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه. ورواه غير هؤلاء من أهل الحديث. وممن رواه من أهل السير: ابن إسحاق بإسناد منقطع كما في سيرة ابن هشام (٢/ ٦٨٠٦٧) والسير والمغازي، ص ٢٣٦، معلقا، ويشهد له ما جاء بأسانيد صحيحة عند أهل الحديث كما ذكرت.

(٣٧٦) الفتح (١٧/ ٢٩٩ - ٣٠٠/ح ٤٧٢٢). والحديث الذي يليه (٤٧٢٣) فيه تفسير عائشة (رضي الله عنها) بأن الآية نزلت في الدعاء، قال ابن حجر: «ورجح النووي وغيره قول ابن عباس كما رجحه الطبري، لكن يحتمل الجمع بأنها نزلت في الدعاء داخل الصلاة. وقد روى ابن مردويه من حديث أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى عند البيت رفع صوته بالدعاء فنزلت. وجاء عند أهل التفسير في ذلك أقوال أخر ...» - الفتح (١٧/ ٣٠٠).

(٣٧٧) مسلم (١/ ٣٢٩/ح ١٤٥).

(٣٧٨) صحيح سنن الترمذي (٣/ ٧٠/ح ٣٣٦٦ - ٣٣٦٧)، قال الألباني: «صحيح: متفق عليه».

(٣٧٩) السير والمغازي، ص ٢٠٦ بإسناد ضعيف لضعف داود بن الحصين في روايته عن عكرمة - انظر الكامل (٣/ ٩٥٩) والتهذيب (٣/ ١٨١)، التقريب، ص ١٩٩.

رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي يسترق السمع دونهم فَرَقا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا انه يستمع ذهب خشية أذاهم ولم يستمع، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته فظن الذي يستمع أنهم لم يسمعوا شيئا من قراءته وسمع من دونهم التفت إليه يستمع، فأنزل الله تعالى ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ فيتفرقوا عنك، ﴿ولا تخافت بها﴾ فلا يسمع من أراد أن يستمعها ممن يسترق ذلك دونهم لعله يرعوي إلى بعض ما يسمع فيقتنع به ﴿وابتغ بين ذلك سبيلا﴾[٣٨٠].

وعندما كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، أخذ المشركون يسبون الله عدوا بغير علم، فأنزل الله: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم[٣٨١]﴾[٣٨٢].

وهذ النهي عن سب آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة، إلا انه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إلهُ المؤمنين[٣٨٣].

ومن هذا القبيل ـ وهـو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها ـ ماجاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه». قالوا يارسـول الله، وهل، يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه»[٣٨٤]. وقوله ﷺ لعائشة (رضي الله عنهـا): «لولا حداثة عهد قومك بالكفر، لنقضت الكعبة، ولجعلتها على

---

(٣٨٠) الإسراء: ١١٠.

(٣٨١) الأنعام: ١٠٨.

(٣٨٢) أورد الطبري في التفسير (١٢/ ٣٣ ـ ٣٥/ تحقيق شاكر) عدة آثار في سبب نزول هذه الآية، منها أثر مرفوع إلى ابن عباس بإسناده ومنها أثران مرسلان من حديث قتادة من طريقين مختلفين، وأثر مرسل من حديث السدي، فالأثر المرفوع إلى ابن عباس منقطع لأنه من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، فالرواية هنا إذن ضعيفة. أما مراسيل قتادة فهي ضعيفة، لأنه لم يسمع من صحابي غير أنس. وأثر السدي ضعيف لأنه متكلم فيه مع أنه لا يروي إلا عن صغار الصحابة كابن عباس وأنس، فهو من صغار التابعين. والخلاصة إن هذه الآثار كلها ضعيفة ولاتنجبر.

(٣٨٣) ابن كثير: التفسير (٣/ ٣٠٦).

(٣٨٤) مسلم (١/ ٩٢/ح ٩٠)، أحمد: المسند (٢/ ١٤٦، ١٩٥، ٢١٤، ٢١٦) من حديث عبدالله ابن عمرو. وانظر ابن كثير: التفسير (٣/ ٣٠٨).

أساس إبراهيم...»[٣٨٥]. وكان هذا الحديث سنداً لابن الزبير في بناء الكعبة على قواعد إبراهيم.

الأسلوب التاسع: الاتصال باليهود للإتيان منهم بأسئلة تعجيزية للرسول ﷺ:

أوفدت قريش نفرا منهم إلى المدينة، على رأسهم: النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ليأتوا من اليهود بأسئلة تعجيزية فيطرحونها على الرسول ﷺ. فقالت لهم يهود: سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين والروح. ولكن الله أبطل كيدهم عندما أنزل الله قرآنا في شأن الإجابة عن أسئلتهم[٣٨٦].

الأسلوب العاشر: الترغيب:

أرادت قريش أن تجرب أسلوب الترغيب، فأرسلت عتبة بن ربيعة، الذي قال للرسول ﷺ: «يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا لعلك تقبل بعضها: إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا. وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا فلا نقطع أمرا دونك. وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ».

فلما فرغ من قوله تلا رسول الله ﷺ صدر صورة «فصلت» إلى قوله

---

(٣٨٥) رواه البخاري ومسلم وغيرهما. انظر: البخاري، كتاب العلم، ومسلم ـ واللفظ هنا له ـ (٢/ ٩٦٨ ـ ٩٧٣/ح ١٣٣٣).

(٣٨٦) روى هذه القصة ابن إسحاق ـ بدون إسناد ـ ابن هشام (١/ ٣٧١ ـ ٣٧٢)، والترمذي صحيح الترمذي (٣/ ٦٩/ح ٣٣٦١ ـ ٣٣٦٢) من حديث ابن عباس: وقال الألباني: «صحيح الإسناد» وفيها السؤال عن الروح فقط.
ورواه أحمد في مسنده. انظر: الفتح الرباني (١٨/ ١٩٦ ـ ١٩٧) بنفس سند ومتن الترمذي.
ورواه البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠) من حديث ابن إسحاق بتمامه، بإسناد منقطع، لأن ابن اسحاق أبهم اسم من حدثه، وبقية رجاله ثقات. ورواه غير هؤلاء. وروى الشيخان وأحمد والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن ابن مسعود حديثا يفيد أن اليهود سألوا الرسول ﷺ عن الروح وهو بالمدينة، وفي ذلك نزلت الآية ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ ـ الإسراء: ٥٨. وجمع بين حديث ابن عباس وابن مسعود بتعدد النزول.

تعالى ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾[٣٨٧]. وعندها وضع عتبة يده على جنبه وقام كأن الصواعق ستلاحقه، وعاد إلى قريش مخبرا إياهم بأن ما سمع ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة، واقترح على قريش أن تدع محمدا وشأنه[٣٨٨]. وفي رواية البيهقي وابن أبي شيبة وابن حميد من حديث جابر، زادوا: «وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت*.

وفي رواية إن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أباجهل، فأتاه، فقال: «ياعم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا.» قال: «لم؟» قال: «ليعطوك، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله..» ثم قال عن القرآن الذي سمعه من محمد ﷺ: «ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته...»[٣٨٩].

الأسلوب الحادي عشر: الترهيب:

كان أبوجهل، إذا سمع عن رجل قد أسلم وله شرف ومنعة، أنبه وأخزاه، وقال له: «تركت دين أبيك وهو خير منك! لنسفهن حلمك ولنضعفن رأيك ولنضعن شرفك»، وإن كان تاجرا قال له: «لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك»، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به[٣٩٠].

---

(٣٨٧) فصلت: ١٣.

(٣٨٨) روى هذا الخبر ابن إسحاق بإسناد منقطع - ابن هشام (١/ ٣٦٢ - ٦٣)، وعبد بن حميد - انظر: المنتخب من مسند عبد بن حميد بتحقيق السامرائي والصعيدي، ص٣٣٧/ح ١١٢٣، بإسناد متصل من حديث جابر - رواية ابن أبي شيبة - وفيه الأجلح الكندي، وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره وبقية رجاله ثقات، ولذلك حسن الألباني إسناده - انظر: فقه السيرة للغزالي، ص١١٣ - الحاشية. وقال الألباني عن إسناد ابن إسحاق إنه حسن مرسل... ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٤/ ٢٩٥ - ٢٩٧) من غير طريق ابن إسحاق، وفيه الأجلح... والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٠٢ - ٢٠٣) بمثل رواية ابن أبي شيبة، وأبونعيم في الدلائل (١/ ٢٣٤). وانظر مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ٢٠). * في الأماكن المذكورة هنا.

(٣٨٩) رواه الحاكم في المستدرك موصولا (٢/ ٥٠٦ - ٥٠٧) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، على شرط البخاري ولم يخرجاه» والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٩٨ - ١٩٩)من هذا الطريق، ومن طرق أخرى مرسلا، ثم قال بعد إيراد جميع الطرق: «وكل ذلك يؤكد بعضه بعضا».

(٣٩٠) ابن إسحاق، معلقا - ابن هشام (١/ ٣٩٥).

الأسلوب الثاني عشر:

أ ـ الاعتداء الجسدي:

عندما لم تثمر كل الأساليب السابقة في صد الرسول ﷺ وأصحابه عن دينهم، لجأت قريش إلى أسلوب الاعتداء الجسدي والتصفية الجسدية.

لقد استفحل إيذاؤهم للرسول ﷺ في الفترة العلنية لغضبهم منه حين أضحى يظهر شعائر دينه مثل الصلاة عند الكعبة. فقد روى مسلم[٣٩١] عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، قال، قال أبوجهل: «هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى! لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب. قال فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ـ زعم ليطأ على رقبته. قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة». فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا.»، قال: فأنزل الله (عز وجل) ﴿... كلا إن الإنسان ليطغى... أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى... أرأيت إن كذب وتولى... كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية... كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾[٣٩٢].

وروى البخاري[٣٩٣] بسنده إلى عروة بن الزبير، قال: «سألت عبدالله ابن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: رأيت عقبة ابن أبي معيط، جاء إلى النبي ﷺ، وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا، فجاء أبوبكر حتى دفعه عنه ﷺ، فقال: «أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟».

---

(٣٩١) (٤/ ٢١٤٥ ـ ٢١٥٥/ح ٢٧٩٧)، وانظره مختصرا عند البخاري في الفتح (١٨/ ٣٨٠/ح ٤٩٥٨).

(٣٩٢) العلق: ٦ ـ ١٩.

(٣٩٣) الفتح (١٤/ ١٧٩/ح ٣٦٧٨) و (١٥/ ٩ ـ ١١/ح ٣٨٥٦).
والخبر عند ابن إسحاق بإسناد حسن، انظر ابن هشام (١/ ٣٥٨ ـ ٥٩)، وهو عنده في سيرته بنفس الإسناد، ص ٢٢٩ ـ ٣٠، من رواية يونس بن بكير.

وروى البخاري[٣٩٤] ومسلم[٣٩٥] من حديث ابن مسعود، قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبوجهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبوجهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد. فانبعث أشقى القوم[٣٩٦] فأخذه. فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر. لو كان لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم. فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم.. فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر».

قال ابن حجر[٣٩٧]: «وقد أخرج أبويعلى والبزار بإسناد صحيح عن أنس، قال: «لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غشي عليه، فقام أبوبكر فجعل ينادي: ويلكم، أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟ فتركوه وأقبلوا على أبي بكر...».

وتسلط عليه عتيبة بن أبي لهب بالأذى، وشق قميصه، وتفل في وجهه ﷺ إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه النبي ﷺ، وقال: «اللهم سلط عليه كلبا من كلابك». واستجيب دعاؤه، فذبحه السبع وهو بالزرقاء بالشام[٣٩٨] وحاولت أم جميل - زوجة أبي لهب - أن تعتدي عليه بحجر فحماه الله منها - كما روى البيهقي في الدلائل (٢/١٩٦) بإسناد حسن لغيره لأنه تقوى بآخر. وكانت تحمل الحطب لتضعه في طريقه - كما حكاه القرآن الكريم [المسد: ٤].

---

(٣٩٤) الفتح (١٢/٦٦/ح ٢٩٣٤).

(٣٩٥) (٣/١٤١٨ - ١٤١٩/ح ١٧٩٤) ورواه غيرهما، مثل: أحمد: المسند (٥/٢٧٢/ح ٣٧٢٢) وصحح شاكر إسناده؛ وابن إسحاق، السيرة، ص ٢١١، وعند ابن هشام (٢/ ٦٥ - ٦٦) بدون إسناد، وبمعنى قريب من رواية الشيخين وأحمد.

(٣٩٦) هو عقبة بن أبي معيط كما صرح به في الرواية الثانية عند مسلم (٣/١٤١٩/ح ١٧٩٤).

(٣٩٧) الفتح (١٥/١١/ح ٣٨٥٦).

(٣٩٨) انظر البيهقي: الدلائل (٢/٣٣٨) وقال عن إسناده: «كذا قال عباس بن الفضل، وليس بالقوي».

وروى أحمد[٣٩٩] أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف: لو قد رأينا محمداً لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله... وأخبرته ابنته فاطمة بالذي قالوا، فجاءهم وحصبهم بقبضة من تراب، من أصابته منهم قتل يوم بدر كافرا.

وروى الإمام أحمد[٤٠٠] من حديث أنس، ان جبريل (عليه السلام) جاء ذات يوم إلى النبي ﷺ وهو جالس حزينا قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له مَالَك؟ قال: «فعل بي هؤلاء وفعلوا، فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال: نعم، فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع بتلك الشجرة، فدعاها، فجاءت حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع، فأمرها فرجعت إلى مكانها. فقال رسول الله ﷺ حسبي».

يرى ابن كثير[٤٠١] ان غالب ما وقع للرسول ﷺ من اعتداء جسدي وما يشبه ذلك، كان بعد وفاة عمه أبي طالب.

ونال أبا بكر (رضي الله عنه) نصيبُه من الأذى، حتى فكر في الهجرة إلى الحبشة فرارا بدينه[٤٠٢].

وذات يوم قام أبوبكر خطيباً في المسجد الحرام، فضربه المشركون ضربا شديدا، وممن ضربه عتبة بن ربيعة حيث جعل يضربه على وجهه بنعلين مخصوفتين حتى ما يعرف وجهه من أنفه. وجاء بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملوه في ثوب إلى منزله، ولا يشكون في موته،

---

(٣٩٩) المسند (٤/ ٢٦٩/ح ٢٧٦٢)، قال شاكر: «إسناده صحيح»، وهو في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٨)، وقال: «رواه أحمد بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح»، وأقول: «بل كلاهما». والمسند (٥/ ١٦٣) بإسناد آخر إلى ابن عباس وقد صححه شاكر. وسندا هذه القصة في مرتبة الحسن، وقد يصلان إلى درجة الصحيح بالتعدد وكون رجالها رجال الصحيح، كما قال باوزير في كتابه: مرويات غزوة بدر، ص ٢٢٣.

(٤٠٠) الساعاتي: الفتح الرباني (٢٠/ ٢٢٠)، وقال الساعاتي: «لم أقف عليه لغير الإمام أحمد ورجاله من رجال الصحيحين».

(٤٠١) البداية والنهاية (٣/ ١٤٨).

(٤٠٢) انظر الحديث بتمامه من رواية البخاري/ الفتح (١٠/ ٤٣ - ٤٤/ح ٢٢٩٧)، ورواه بإسناد حسن - ابن هشام (٢/ ١٤ - ١٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٣٨٤ - ٣٨٩) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٧١ - ٤٧٣). وسيأتي الكلام عن هذه الهجرة في نهاية الكلام عن هجرة الرسول ﷺ إلى الطائف.

وأقسموا لئن مات أبوبكر ليقتلن عتبة بن ربيعة[٤٠٣].

وكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبدالله بن مسعود، على الرغم من تحذير المسلمين من عدوان المشركين وخشيتهم عليه. فعندما فعل ذلك، ضربوه على وجهه حتى أثروا فيه. وعندما قال له الصحابة: « هذا الذي خشينا عليك، قال: ما كان أعداء الله أهون منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا. قالوا: لا، حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون»[٤٠٤].

وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من أوراق النخيل، ثم يدخنه من تحته[٤٠٥]. وروي انه عندما أسلم أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطاً، وأقسم ألا يحله إلا إذا ترك الإسلام. فأقسم عثمان على عدم تركه الإسلام. فلما رأى عمه صلابته في دينه تركه[٤٠٦].

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعته وأخرجته من بيته. وكان من أنعم الناس عيشا، فتخشف جلده تخشف الحية، وحتى حمله أصحابه على قسيهم؛ لشدة ما به من الجهد[٤٠٧].

واعتدوا على عمر بن الخطاب عندما أسلم، وحاولوا قتله لولا أن أنقذه الله بالعاص بن وائل[٤٠٨].

وممن أوذي عثمان بن مظعون. فقد روي انه عندما رجع من الهجرة الأولى إلى الحبشة، دخل في جوار الوليد بن المغيرة، فلما رأى المشركين يؤذون المسلمين وهو آمن، رد جوار الوليد. وعندما قدم لبيد بن ربيعة إلى مكة، وكان في مجلس لقريش ينشدهم شعره، قال لبيد: «ألا كل شيء ماخلا الله باطل» قال عثمان بن مظعون: «صدقت، وعندما قال: وكل نعيم لا محالة

---

(٤٠٣) انظر القصة في البداية (٣/٣٣ - ٣٤).

(٤٠٤) رواه ابن إسحاق بسند حسن مرسل موقوف على عروة ابن هشام (١/٣٨٨ - ٣٨٩) ورواه في السير والمغازي، ص١٨٦.

(٤٠٥) المنصورفوري: رحمة للعالمين (١/٥٢) ولم نقف على مصدر المنصورفوري.

(٤٠٦) ابن سعد (٣/٥٥) من رواية الواقدي.

(٤٠٧) ابن إسحاق، السيرة، ص١٩٣، بسند معضل فهو ضعيف.

(٤٠٨) يأتي ذكره في إسلام عمر (رضي الله عنه) بإسناد حسن من رواية ابن إسحاق.

زائل، قال له عثمان: «كذبت. نعيم الجنة لا يزول»، قال لبيد: «يامعشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟» فقال رجل من القوم: «إن هذا أيضا في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله. فرد عليه عثمان حتى تفاقم أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه فَخَضَرَهَا، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: «أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابت لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة»، قال عثمان: «بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أباعبد شمس»، فقال له الوليد: «هلم يا ابن أخي، إن شئت فعد إلى جوارك» فقال: «لا[٤٠٩]».

وكان عم الزبير بن العوام يعلقه في حصير، ويدخن عليه النار، ويقول: «ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير. لا أكفر أبدا[٤١٠]».

ولم يقتصر التعذيب الجسدي على المسلمين بمكة، بل امتد إلى بعض الأفراد الذين أسلموا من القبائل البعيدة عن مكة. فقد روى ابن سعد[٤١١] ان أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم عندما أسلمت هي وزوجها، وهاجر زوجها مع أبي هريرة وجماعة من قومها، جاءها أهل زوجها أبي العكر فسألوها إن كانت على دينه، فأقرت بإسلامها، فأقسموا على تعذيبها. فعندما ارتحلوا من مكان إلى آخر، حملوها على شر ركابهم وأغلظه، ثم أطعموها خبزا وعسلا ومنعوا عنها الماء، وتركوها في الشمس حتى ذهب عقلها وسمعها وبصرها، وكرروا ذلك لمدة ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث، طلبوا منها ترك دينها، فلم تفعل غير الإشارة بأصبعها إلى السماء بالتوحيد ولا تعي ما يقولون

---

(٤٠٩) رواه ابن إسحاق بإسناد منقطع ابن هشام (٢/ ١٠ - ١٢) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٩٢ - ٢٩٣) من طريق موسى بن عقبة، ولم يسم ابن عقبة من حدثه، والطبراني في الكبير (٩/ ٢١ - ٢٤) مرسلا عن عروة، وفيه ابن لهيعة، ونقله عنه الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٢ - ٣٤)، وكل هذه الطرق ضعيفة. ولكنها تدل على أن للقصة أصلا.

(٤١٠) الحاكم: المستدرك (٣/ ٣٦٠) وسكت عنه الحاكم والذهبي. فيه أبو الأسود وقد عنعن، وهو من مرسل عروة، وأبونعيم في الحلية (١/ ٨٩) بإسناد مرسل رجاله ثقات.

(٤١١) الطبقات (٧/ ١٥٥ - ١٥٧) من رواية الواقدي، وهو متروك فالإسناد ضعيف جداً.

من شدة الإعياء والإغماء، وأكرمها الله بدلو من ماء شربت منه، فكان ذلك سببا في إسلام أهل زوجها وهجرتهم إلى النبي ﷺ.

وعندما سمع أبوذر الغفاري بخبر النبي ﷺ جاء ودخل مكة، وأخذ يسأل عن الرسول ﷺ فضربه أهل مكة حتى أغشي عليه[٤١٢]، وكاد أن يموت، فخلصه العباس (رضي الله عنه) منهم[٤١٣].

ب - تعذيب الموالـي:

لقد نفس الكفار كل أحقادهم على الإسلام ومعتنقيه في أشخاص الموالي، لأنه لم تكن لهم منعة. فكان العذاب أقسى وأفظع.

وقد عذر الله المعذبين فيما يقولون حينما يبلغ الجهد منهم مبلغه. قال سعيد بن جبير لابن عباس: «أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟» قال: «نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجوعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده[٤١٤]». قال ابن كثير[٤١٥]: «وفي مثل هذا أنزل الله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾».

قال ابن مسعود: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأبوبكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون

---

(٤١٢) و (٤١٣) طرف من حديث في قصة إسلام أبي ذر، متفق عليه: البخاري/ الفتح (١٤/٣٣/ح ٣٥٢٢)، مسلم (٤/ ١٩٢٠/ح ٢٤٧٣)، و(٤/ ١٩٢٣ - ٢٤/ح ٢٤٧٤).

(٤١٤) رواه ابن إسحاق ابن هشام (١/ ٣٩٦) وقد صرح بالسماع وفي سنده حكيم بن جبير، وهو ضعيف كما قال ابن حجر في التقريب، ص١٧٦. ونقله ابن كثير في البداية (٣/ ٦٥) عن ابن إسحاق بهذا الإسناد.

(٤١٥) البداية والنهاية (٣/ ٦٥).

والآية ١٠٦ من سورة النحل.

فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله تعالى، وهان على قومه، فأخذوه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد(٤١٦).

جـ ـ آل ياسر:

كانت هذه الأسرة ممن يضرب بها المثل فيما لاقاه المستضعفون من الابتلاءات في تاريخ الإسلام. فقد كان بنومخزوم يخرجون بهم إذا حميت الظهيرة فيعذبونهم برمضاء مكة(٤١٧).

ومر بهم الرسول ﷺ ذات مرة وهم يعذبون، فقال لهم: «أبشروا آل عمار وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة»(٤١٨).

وكان أول من استشهد في سبيل الله من هذه الأسرة خاصة، وفي الإسلام عامة: أم عمار ـ سمية بنت خباط ـ فقد طعنها أبوجهل بحربة في قبلها فماتت من جراء هذا الاعتداء الآثم(٤١٩).

---

(٤١٦) رواه أحمد في المسند (٥/ ٣١٩/ح ٣٨٣٢/ شاكر) وقال شاكر: «إسناده صحيح»، وخرجه من مصادر أخرى فانظرها إن شئت. وذكره الذهبي في السيرة، ص٢١٧ ـ ٢١٨، وقال عنه: «حديث صحيح». وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٨٤) وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي، وأبونعيم في الحلية (١/ ١٤٩)، وابن ماجة: صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٣٠/ الألباني) وقال الألباني: «حسن»، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٨١ ـ ٨٢) وابن كثير في البداية (٣/ ٦٤) وقال: ورواه الثوري عن منصور عن مجاهد مرسلا.

(٤١٧) ابن هشام (١/ ٣٩٥) من رواية ابن إسحاق بدون إسناد، وعن قصة إغراقه في الماء، انظر سيرة ابن إسحاق، ص١٩٢ من حديث ابن سيرين.

(٤١٨) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٨٨) من حديث جابر، وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وقد وهم محققا سيرة ابن هشام عندما قالا إن الذهبي سكت عنه ـ ابن هشام (١/ ٣٩٥). وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٩٣) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات» وقال الألباني: «حسن صحيح» كما في حاشية فقه السيرة للغزالي، ص١٠٧ ـ ١٠٨، ورواه ابن إسحاق بلاغا ـ ابن هشام (١/ ٣٩٥) ولفظه: «صبرا آل ياسر موعدكم الجنة..» وذكره الذهبي السيرة، ص٢١٨، عن هشام الدستوائي عن أبي الزبير عن جابر، وأبوالزبير مدلس وقد عنعن ولكن ما ذكرناه من شواهد تقوي حديث أبي الزبير وترفعه إلى درجة الحسن لغيره. انظر الفتح الرباني (٢٠/ ٢٢٠).

(٤١٩) من رواية أحمد: المسند (١/ ٤٠٤)، من مرسل مجاهد، ورواه من الطريق نفسه: البيهقي: دلائل النبوة (٢/ ٢٨٢)، والذهبي: السيرة النبوية، ص٢١٨، ورواه ابن إسحاق بلاغا ـ ابن هشام (١/ ٣٩٥) وفيه قوله: «فأما أمه ـ أم عمار ـ فقتلوها، وهي تأبى إلا الإسلام» والخبر في الإصابة (٣٥/ ٦٤٨) ـ ترجمة ياسر العبسي و(٤/ ٣٣٤) ـ ترجمة سمية، والبلاذري: أنساب الأشراف (١/ ١٩٠).

ومات ياسر في العذاب، ورمي ابنه عبدالله فسقط[٤٢٠]. وتفننوا في إيذاء عمار، حتى أجبروه على أن يتلفظ بكلمة الكفر بلسانه. وذكر جمهور المفسرين[٤٢١] أن من أسباب نزول الآية الكريمة ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان. . .﴾[٤٢٢] هو موقف عمار بن ياسر[٤٢٣] هذا.

د ـ بلال:

كان بلال مولى لبعض بني جمح. وهو بلال بن رباح، وأمه حمامة. ذكر أنه كان حبشيا، وهو المشهور، وقيل كان نوبيا[٤٢٤].

كان طاهر القلب صادق الإسلام. وكان مولاه أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: «لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى»، فيقول وهو في ذلك البلاء: «أحد

---

(٤٢٠) قاله ابن حجر في الإصابة (٣/٦٤٨) وعزاه إلى ابن الكلبي في التفسير عن أبي صالح عن ابن عباس، وابن الكلبي متروك في الحديث.

(٤٢١) ذكر ابن الجوزي في الزاد (٤/٤٩٥) أربعة أقوال فيمن نزلت فيه هذه الآية، أحدها إنها نزلت في عمار بن ياسر. رواه مجاهد عن ابن عباس وبه قال قتادة. وقال ابن كثير في التفسير (٤/٥٢٥): «وهكذا قال الشعبي، وأبومالك، وقتادة»، ثم قال: «وقد روى العوفي عن ابن عباس أنها نزلت في عماره.

أما رواية ابن جرير من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، وقوله: «أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قارهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئنا بالإيمان. قال النبي ﷺ: «إن عادوا فعد». لقد ضعف هذه الرواية الألباني لعلة الإرسال، وصحح سبب نزول الآية في عمار لمجيء ذلك من طرق ساقها ابن جرير. انظر حاشية فقه السيرة للغزالي، ص١٠٨، وفي تخريجه للحديث فوائد فانظرها، فقد تركناها مع غيرها في مواطن كثيرة للألباني وغيره وذلك خشية الإطالة.

(٤٢٢) النحل: ١٠٦.

(٤٢٣) قال ابن حجر في الفتح (٩/٢٨١): «كان عمار عربيا عنسيا، ما وقع عليه سبي، وإنما سكن أبوه ياسر مكة وحالف بني مخزوم فزوجوه سمية وهي من مواليهم، فولدت له عمارا، فيحتمل أن يكون المشركون عاملوا عمارا معاملة السبي لكون أمه من مواليهم».

وقال ابن إسحاق في السيرة، ص ١٩٢: «إن ياسرا كان عبدا لبني بكر من بني الأشجع، فاشتروه منهم فزوجوه سمية أم عمار، فولدت عمارا. وكانت سمية أمة لهم، فأعتقوا سمية وعمارا». وانظر ترجمته في كتب التراجم.

(٤٢٤) ابن حجر: الفتح (١٤/٢٤٨/ك. فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب بلال. وعن كونه من سبي الجاهلية، انظر رواية البخاري (٩/٢٨٠ ـ ٨١ ك. البيوع/ ب. شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه/ ترجمة الباب/ معلقا).

أحد»[٤٢٥].

وروى البلاذري[٤٢٦] عن عمرو بن العاص، قال: «مررت ببلال وهو يعذب في الرمضاء ولو ان بضعة لحم وضعت عليه لنضجت، وهو يقول: أنا كافر باللات والعزى. وأمية مغتاظ عليه فيزيده عذابا فيقبل عليه فيدغت في حلقه فيغشى عليه ثم يفيق».

وروي البلاذري[٤٢٧] عن مجاهد، قال: «جعلوا في عنق بلال حبلا وأمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبي مكة ـ يعني جبليها ـ ففعلوا ذلك وهو يقول أحد أحد».

وقال البلاذري[٤٢٨]: «وروي أن بلالا قال: أعطشوني يوما وليلة، ثم أخرجوني فعذبوني في الرمضاء في يوم حار».

وعندما رآه أبوبكر (رضي الله عنه) في هذه الحالة ساوم سادته على شرائه، فاشتراه وأعتقه. فقد روى ابن أبي شيبة[٤٢٩] بإسناد صحيح، والبلاذري[٤٣٠] بإسناد جيد، أن أبابكر اشترى بلالا بخمس أواق وهو مدفون بالحجارة. وفي الصحيح أن بلالا قال لأبي بكر: «إن كنت إنما اشتريتني

---

(٤٢٥) ابن إسحاق، بدون إسناد ـ ابن هشام (١/ ٣٩٢)، ولهذا الحديث شاهد وهو حديث ابن مسعود الذي سبق ذكره، في آخر الفقرة (ب: تعذيب الموالي)، وهو حديث صحيح.
أما ما روي من أن ورقة بن نوفل كان يمر ببلال وهو يضرب، وقوله: «لئن قتلوه على هذا لأتخذنه حنانا»، فقد رواه ابن إسحاق موقوفا على عروة، فهو مرسل ـ ابن هشام (١/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣)، ومخالف لما في الصحيحين.

(٤٢٦) أنساب الأشراف (١/ ١٨٥).

(٤٢٧) المصدر والمكان نفساهما.

(٤٢٨) المصدر نفسه (١/ ١٨٦).

(٤٢٩) قاله ابن حجر في الفتح (٤/ ٢٤٨). ورواه ابن عبدالبر في الإستيعاب (٢/ ٣٤) بإسناد قوي كما قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١/ ٣٥٣) ـ وانظر تخريجه في القصيمية، ص ٣٦٧. وقد ذكر ابن حجر أقوالا أخرى في قصة عتقه كما في الفتح (٩/ ٢٨١). وذكر ابن الجوزي في الزاد (٩/ ١٤٦) في سبب نزول الآية ﴿إِنَّ سَعْيَكُم لَشَتَّى﴾ من قول ابن مسعود إنه اشتراه بزيدة وعشرة أواق، وقال: رواه الواحدي في أسباب النزول، ص ٣٣٥، وأورده السيوطي في الدر (٦/ ٣٥٨) من رواية ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر عن أبي مسعود. وذكره البغوي والخازن بغير إسناد. وكذلك روى ابن عبدالبر أحاديث في قصة شرائه فانظرها في الاستيعاب (١/ ٣٢ ـ ٣٤)، وهي مرسلة تتقوى ببعضها، وتخريجها في القصيمية، ص ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩، وهناك أحاديث أخرى خرجها صاحب القصيمية من كتب أخرى، فانظره، ص ص ٣٧٠ ـ ٣٧٢.

(٤٣٠) أنساب الأشراف (١/ ١٨٦).

لنفسك فأمسكني وإن كنت اشتريتني لله فدعني وعمل الله[٤٣١]».

هـ ـ خباب بن الأَرَتّ:

هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة... بن تميم التميمي، ويقال الخزاعي...[٤٣٢] سبي في الجاهلية، فبيع بمكة. وكان مولى لأم أنمار الخزاعية، وقيل غير ذلك. ثم حالف بني زهرة. كان يعمل قينا ـ حدادا ـ في صناعة الأسنة، وبخاصة السيوف[٤٣٣]. وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام.

وعندما أظهر إسلامه لاقى صنوفا شتى من العذاب في المال والنفس، ضمن سائر المستضعفين[٤٣٤]. ومما روي في ذلك انهم كانوا يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبا، ويلوون عنقه بعنف، واضجعوه مرات عديدة على صخور ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجرا حتى لا يستطيع أن يقوم[٤٣٥]. وأوقدوا له ناراً ووضعوه عليها، فما أطفأها إلا ودك ظهره، كما ذكر خباب نفسه، وقد كشف عن ظهره وأرى أثر ذلك عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)[٤٣٦] وذكر أيضا انهم كانوا يضجعونه على الرضف، ومع ذلك لم ينالوا

---

(٤٣١) البخاري/ الفتح (١٤/ ٢٤٩/ح ٥٥٣٧). وروى ابن إسحاق بإسناد حسن مرسل أنه استبدله من سيده بغلام أسود ـ ابن هشام (١/ ٣٩٣).

(٤٣٢) قاله ابن هشام بدون إسناد، (١/ ٣١٩). وانظر ترجمته في الإصابة (١/ ٤١٦).

(٤٣٣) جاء ذلك في قصته مع العاصي بن وائل عند البخاري ومسلم وغيرهما، كما سيأتي ذكره.

(٤٣٤) انظر أحمد: فضائل الصحابة (١/ ١٨٢) من حديث ابن مسعود الذي سبق ذكره. فقد جاء في الحديث أن خبابا كان ضمن سائر من أخذهم المشركون وألبسوهم الدروع والحديد وصهروهم في الشمس. وذكر ابن سعد (٣/ ١٦٥)، أنه كان ضمن المستضعفين المعذبين. وإسناده مرسل ورجاله ثقات ماعدا الواقدي. وذكر ذلك أبونعيم في الحلية (١/ ١٤٣) بإسناد صحيح كما خرجه صاحب القصيمية، ص ٣٧٥.

(٤٣٥) ابن الجوزي: تلقيح فهوم الأثر، ص ٦٠.

(٤٣٦) رواه أبونعيم في الحلية (١/ ١٤٤) بإسناد مرسل عن الشعبي، وإذا ثبت سماع الشعبي من خباب فيكون الحديث متصلا صحيحا، ولكن الحديث حسن بالشواهد التي ذكرناها في آخر تعذيبه. وذكر ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٦٥) من حديث أبي ليلى الكندي، رؤية خباب عمرا آثارا في ظهره مما عذبه به المشركون، وإسناده حسن، ورواه ابن ماجه: السنن/ المقدمة (١٥٣) وإسناده صحيح كما قال البوصيري في «الزوائد»: (١٢)، وصححه الألباني: صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٣١/ح ١٥٣) و أشار إلى ذكره في مؤلفه الذي لم ير النور بعد: «صحيح السيرة النبوية». وانظر بقية أخباره في البلاذري: أنساب الأشراف (١/ ١٧٥ ـ ١٧٩). وروى البلاذري في هذا المصدر (١/ ١٧٦) انه سمي الأرَتّ للكنة في لسانه إذا تكلم بالعربية.

منه ما أرادوا[٤٣٧].

وله قصة مشهورة مع العاصي بن وائل، رواها البخاري[٤٣٨] ومسلم[٤٣٩] وغيرهما، من حديث خباب نفسه، قال: «كنت قينا بمكة فعملت للعاصي ابن وائل السهمي سيفا، فجئت أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يحييك، قال: إذا أماتني الله ثم بعثني ولي مال وولد فسأقضيك، فأنزل الله: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتَيَنَّ مالا وولدا، أطَّلَعَ الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا﴾[٤٤٠]».

وعندما اشتد البلاء بخباب وإخوانه المسلمين المستضعفين، شكوا إلى الرسول ﷺ حالهم. فقد روى البخاري[٤٤١] عن خباب قوله: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

عامة الموالي المستضعفين:

منهم حمامة، والدة بلال، وعامر بن فهيرة، وأم عبيس، وزنيرة، والنهدية، وابنتها، وجارية بني عدي، التي كان يعذبها عمر بن الخطاب قبل أن

---

(٤٣٧) رواه أبونعيم في الحلية (١/ ١٤٤) بإسناد صحيح.
(٤٣٨) الفتح (١٨/ ٣١/ح ٤٧٣٣) وانظر أحاديث الباب ـ واللفظ للبخاري.
(٤٣٩) (٤/ ٢١٥٣/ح ٢٧٩٥). وللبخاري عدة روايات بهذا المعنى. وذكر القصة ابن إسحاق بدون إسناد، وأحمد (٥/ ١١٠)، والترمذي (٨/ ٣٠٨ ـ ٩) ـ انظر: صحيح الترمذي (٣/ ٧٦/ح ٣٣٨٥) وقال الألباني: «متفق عليه»، وهو يشير إلى ماذكرناه...
(٤٤٠) مريم: ٧٧ ـ ٧٨.
(٤٤١) الفتح (١٤/ ١١٣ ـ ١١٤/ح ٣٦١٢).

يسلم[٤٤٢]. وقد أعتقهم أبوبكر جميعا[٤٤٣].

وعندما رأى أبوقحافة ابنه أبابكر يعتق هؤلاء المستضعفين، قال له: «يابني، إني لمراك تعتق رقابا ضعافا، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال أبوبكر: «يا أبت، إني إنما أريد ما أريد لله عز وجل». فأنزلت فيه الآية ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾ إلى قوله عز وجل ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى[٤٤٤]﴾[٤٤٥]».

وقد أصيب بصر زنيرة حين أعتقها أبوبكر، فقالت قريش: «ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى» فقالت: «كذبوا وبيت الله، ما تضران اللات والعزى وما تنفعان». فرد الله بصرها[٤٤٦].

وكان أفلح ـ أبو فكيهة ـ مولى لبني عبدالدار ـ كانوا يشدونه بالحبل من رجله ثم يجرونه على الأرض، ليفتنوه عن دينه[٤٤٧].

ب ـ العبر والعظات:

١ ـ ربما يتساءل المرء: فيم هذا العذاب الذي لقيه الرسول ﷺ وأصحابه وهم على الحق؟ ولماذا لم يعصمهم الله تعالى منه وهم جنوده وفيهم رسوله؟ والجواب: أن أول صفة للإنسان في الدنيا، أنه مكلف، وأمر

---

(٤٤٢) انظر ابن كثير: الفصول في إختصار سيرة الرسول، ص٨٧، ابن هشام (١/٣٩٣ ـ ٩٤) من رواية ابن اسحاق بدون إسناد. وسبق الكلام عن أن أبا بكر قد أعتق بلالا.

(٤٤٣) انظر: ابن هشام (١/ ٣٩٤) من رواية ابن إسحاق بدون إسناد، وسيرة ابن إسحاق، ص ١٩١، بدون إسناد أيضا، والبلاذري: أنساب الأشراف (١/١٥٨، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٦).

(٤٤٤) الآيات ٥ ـ ٢١ من سورة الليل.

(٤٤٥) المستدرك (٢/ ٥٢٥) من حديث زياد بن عبدالله البكائي عن محمد بن اسحاق. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، وسكت عليه الذهبي، ورواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (١/ ٣٩٤) وفي السير والمغازي، ص ص ١٩١ ـ ١٩٢) بإسناد منقطع، وهو الإسناد الذي وصله الحاكم. ورواه الواحدي في أسباب النزول، ص٣٣٦ من حديث إبراهيم ابن سعد عن محمد بن إسحاق به، ورواه السيوطي في الدر (٦/٣٠٨) من رواية ابن جرير وزاد نسبته لابن عساكر، وانظر زاد المسير (٩/١٤٨) حاشية المحققين.

(٤٤٦) روى ذلك ابن إسحاق بإسناد حسن مرسل لأنه موقوف على عروة ورواه غيره عنه ولم يصلوه ـ انظر ابن هشام (١/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣) وسيرة ابن إسحاق، ص ١٩١ والذهبي: السيرة، ص ٢١٨.

(٤٤٧) ابن حجر: الإصابة (٤/ ١٥٦/ ترجمة أبي فكيهة/ رقم ٩٠٧) بدون إسناد.

الدعوة إلى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات التكليف، والتكليف من أهم لوازم العبودية لله تعالى. وعبودية الإنسان لله (عز وجل) ضرورة من ضرورات ألوهيته (عز وجل)، ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾(٤٤٨).

فقد استلزمت العبودية ـ إذاً ـ التكليف، واستلزم التكليف تحميل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء، والصمود في وجه الفتن والابتلاءات.

والفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب، وفي ذلك يقول المولى (عز وجل): ﴿الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾(٤٤٩)، ويقول: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾(٤٥٠).

وما دام الأمر كذلك فلا ينبغي للمسلم أن يتوهم اليأس إذا ماعانى شيئا من المشقة والمحنة. بل العكس هو المنسجم مع طبيعة هذا الدين، أي إن على المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيدا من الضر والنكبات سعيا إلى تحقيق أمر ربهم (عز وجل)، ويتجلى برهان ذلك في قوله تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم، مستهم البأساء والضراء، وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب(٤٥١)﴾(٤٥٢).

٢ ـ المقرر عند علماء المسلمين أن الأخذ بالعزيمة في ميدان الإكراه أولى من الرخصة، وأن أخذ الأئمة والقادة بالعزيمة هو الأولى والأجمل. ويعتبر الفقهاء الإكراه بمدى قدرة المكره على إيقاع ما هدد به(٤٥٣).

---

(٤٤٨) الذاريات: ٥٦.
(٤٤٩) العنكبوت: ١ ـ ٣.
(٤٥٠) آل عمران: ١٤٢.
(٤٥١) البقرة: ٢١٤.
(٤٥٢) انظر البوطي: فقه السيرة، ص ص ٨٥ ـ ٨٧.
(٤٥٣) انظر الموصلي: الإختيار لتعليل المختار في الفقه الحنفي، طبعة دار المعرفة، بيروت، (٢/١٠٤)، نقلا عن الشيخ زهير سالم: عثرات وسقطات، ص٤٣٨.

وان أخذ عامة المسلمين بالرخصة ليس دليلا على فساد في العقيدة، بدليل قول الرسول ﷺ لعمار بن ياسر: «إن عادوا فعد»، أي إذا عادوا وطلبوا منك ذكر آلهتم بخير، فاذكرها، مادام قلبك مطمئناً بالإيمان[٤٥٤].

يقول ابن كثير[٤٥٥] في تعليقه على موقف عمار بن ياسر من التعذيب: «ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوالي المكره على الكفر، إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يستقتل كما كان بلال (رضي الله عنه) يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، . . . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري، لما قال له مسيلمة الكذاب: «أتشهد أن محمداً رسول؟» فيقول: «نعم» فيقول. «أتشهد أني رسول الله؟» فيقول: «لا أسمع». فلم يزل يقطعه إربا إربا وهو ثابت على ذلك. . . والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر، في ترجمة عبدالله بن حذافة السهمي. . . ».

وفي تعليقه على الموقف ذاته قال ابن الجوزي[٤٥٦]: «الإكراه على كلمة الكفر يبيح النطق بها. وفي الإكراه المبيح لذلك عن أحمد روايتان إحداهما: أنه يخاف على نفسه أو على بعض أعضائه التلف إن لم يفعل ما أمر به. والثانية أن التخويف لا يكون إكراها حتى ينال بعذاب. وإذا ثبت جواز «التقية»، فالأفضل ألا يفعل. . . ».

إن في مواقف المؤمنين - بمختلف قبائلهم - وثباتهم على دينهم ورضاهم بجوار ربهم، مثلاً عالياً في التوكل على الله تعالى، ولن ينسى التاريخ تلك المواقف الإيمانية البطولية لهؤلاء المسلمين الأوائل، الذين كانوا قدوة لأصحاب المبادئ في كل زمان ومكان.

إن أعداء الإسلام في كل زمان ومكان، لم يكفوا ولن يكفوا عن استخدام

---

(٤٥٤) انظر: الشيخ زهير سالم، ص ص ٣٩ - ٤٠.
(٤٥٥) تفسيره (٤/٥٢٥ - ٥٢٦).
(٤٥٦) زاد المسير (٤/٤٩٦).

كافة الوسائل والأساليب لإطفاء نور الإسلام ومحاربة دعاته، وربما تتجدد الأساليب والوسائل، ولكنها لا تخرج في مضمونها عن تلك الأساليب التي مارسها كفار قريش ضد المسلمين المستضعفين بمكة. وسيطول بنا الشرح إذا وقفنا عند كل أسلوب، وذكرنا له أمثلة من واقع حركة الإسلام وسط المجتمعات والشراذم الرافضة لتحكيم شرع الله.

كان من جليل حكمة الله تعالى أن يقوم مشركو قريش بسلسلة من المساومات مع الرسول ﷺ بعد أن صوروا في أنفسهم كل ما يمكن أن يظنوه سببا أو هدفا وراء دعوته، ورفض الرسول ﷺ قبول كل العروض التي قدموها له مقابل أن يتخلى عن دعوته ليثبت للتاريخ أن هدفه شيء واحد، وهو الإسلام، وليقطع الطريق أمام المتشككين في أهداف دعوته ﷺ، أو فهموا فهما مغايرا لما كشفت عنه تلك اللقاءات بين الرسول ﷺ وبين مساوميه من الكفار، وكانت سيرته ﷺ فيما بعد تأكيدا ودليلا على أنه لم يكن يطلب شيئا غير الإسلام(٤٥٧).

الأسلوب الثالث عشر: ملاحقة المسلمين خارج مكة والتحريض عليهم: عندما هاجر بعض المسلمين إلى النجاشي، أرسلوا خلفهم من حاول اللحاق بهم قبل العبور إلى الحبشة، وعندما استقروا بالحبشة وكثر عددهم، أرسلوا في طلبهم، واستخدموا في ذلك الرشوة والحيلة للوقيعة بين المسلمين والنجاشي، ولكنهم فشلوا في ذلك.

وسيأتي بيان ذلك في هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة وهجرة المدينة.

الأسلوب الرابع عشر: المقاطعة العامة: سيأتي ذكرها في مكانها من هذا الكتاب (مبحث ٢٨).

الأسلوب الخامس عشر: محاولة قتل الرسول، ثم شن الحرب عليه: سيأتي ذكر ذلك من خلال أبحاث وفصول الكتاب.

(٤٥٧) انظر البوطي: فقه السيرة، ص ٩٠.

المبحث الرابع والعشرون: مكان التقاء الرسول ﷺ بالمسلمين:

كان الرسول ﷺ يلتقي سرا بالداخلين في الإسلام؛ ليعلمهم ما ينزل به الوحي من تعاليم الدين. وفي السنة الخامسة من ابتداء الدعوة اختار الرسول ﷺ منزل أحد المسلمين، وهو الأرقم بن أبي الأرقم[٤٥٨]، ليلتقي بأكبر عدد منهم، وحافظوا على كتمان سرية هذا المكان[٤٥٩]، لأن عامة الصحابة كانوا يخفون إسلامهم، ولذا فمن الحكمة اتباع السرية لما فيها من صالح للمسلمين وللإسلام. أما لماذا اختار الرسول ﷺ دار الأرقم بالذات؟ أجاب عن هذا السؤال ـ استنتاجا ـ المباركفوري[٤٦٠]، فقال: «لأن الأرقم لم يكن معروفا بإسلامه، ولأنه من بني مخزوم التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم إذ يستبعد أن يختفي الرسول ﷺ في قلب العدو، ولأنه كان فتى صغيرا عندما أسلم. في حدود الست عشرة سنة(*)، إذ إنه في هذه الحالة تنصرف الأذهان إلى منازل كبار الصحابة».

ويلحظ ان دار الأرقم كانت قرب الصفا، وهي منطقة تشتد فيها حركة الناس بصورة طبيعية، مما يصعب معه إدراك وجود حركة خاصة بأناس تجتمع وتنفض في هذه الدار.

وعندما شك الكفار في وجود مكان يلتقي فيه المسلمون، كان كل الذي توصلوا إليه أنه يلتقي بهم في دار عند الصفا[٤٦١].

إن مراعاة السرية والكتمان في حياته ﷺ واضحة في مواقف كثيرة منها هذا الموقف.

---

(٤٥٨) ودار الأرقم هذا هي الدار المعروفة الآن بدار الخيزران عند الصفا، كما قال الشامي: السبل (٢/ ٤٣٠) وقال اللواء إبراهيم رفعت باشا في: مرآة الحرمين، ط ١، (١/ ١٩٩٢)«... هذه الدار في زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا وبابها يفتح إلى الشرق ويدخل منه إلى فسحة سماوية طولها نحو ثمانية أمتار في عرض أربعة...».

(٤٥٩) انظر قصة خطبة أبي بكر في الحرم وضرب المشركين له حيث جاء فيها أن أم جميل بنت الخطاب (رضي الله عنها) أنكرت معرفتها بأبي بكر وبمحمد ﷺ ومكان وجود أبي بكر ـ البداية (٣/ ٣٣ ـ ٣٤).

(٤٦٠) الرحيق المختوم، ص ٤٩. * قلت: مابين الـ ١٧ والـ ١٩ كما عند ابن سعد (٣/ ٢٤٤).

(٤٦١) انظر: ابن إسحاق ـ بدون إسناد، ابن هشام (١/ ٤٢٤) والأصبهاني: المعرفة (٢/ ٣٧٨).

المبحث الخامس والعشرون: أ ـ الهجرة الأولى إلى الحبشة:

كانت بداية الاضطهادات في أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة، بدأت ضعيفة، ثم لم تزل في ازدياد يوماً يوماً وشهرا شهرا، حتى اشتدت وتفاقمت في أواسط السنة الخامسة، حتى نبا بهم المقام في مكة، وأعوزتهم أن يفكروا في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفي هذا الوقت العصيب نزلت سورة الكهف ردودا على أسئلة طرحها المشركون على النبي ﷺ، ولكنها اشتملت على ثلاث قصص، فيها إشارات بليغة من الله تعالى إلى عباده المؤمنين. فقصة أهل الكهف ترشد المؤمن إلى الهجرة من مراكز الكفر والعدوان حين مخافة الفتنة على الدين، متوكلا على الله ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيّئ لكم من أمركم مرفقا﴾(٤٦٢).

وقصة الخضر وموسى تفيد أن الظروف لا تجري ولا تنتج حسب الظاهر دائما، بل ربما يكون الأمر على خلاف الظاهر، ففيها إشارة لطيفة إلى أن الحرب القائمة ضد المسلمين ستنعكس تماما، وسيصادر هؤلاء الطغاة المشركون ـ إن لم يؤمنوا ـ أمام هؤلاء الضعفاء المدحورين من المسلمين.

وقصة ذي القرنين تفيد أن الأرض لله يورثها من عباده من يشاء وأن الفلاح إنما هو في سبيل الإيمان دون الكفر، وأن الله لا يزال يبعث من عباده ـ بين آونة وأخرى ـ من يقوم بإنجاء الضعفاء من يأجوج ومأجوج ذلك الزمان، وأن الأحق بإرث الأرض إنما هو عباد الله الصالحون(٤٦٣).

ثم نزلت سورة «الزمر» تشير إلى الهجرة وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة، ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، وأرض الله واسعة، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾(٤٦٤).

---

(٤٦٢) الكهف: ١٦.

(٤٦٣) انظر القصة في الآيات ٨٣ ـ ٩٧ من سورة الكهف، خاصة الآية ٩٤ ﴿قالوا ياذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا﴾.

(٤٦٤) الزمر: ١٠.

في هذه الظروف كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة، فرارا بدينهم من بلاد الفتنة إلى بلاد الأمان[٤٦٥].

روى ابن إسحاق[٤٦٦] من حديث أم سلمة، قالت: «لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه لايصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه، فخرجنا إليها حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلما. . .».

روى ابن سعد[٤٦٧] أنهم خرجوا متسللين سرا، وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة، حتى انتهوا إلى الشعيبة، منهم الراكب والماشي، ووفق الله تعالى للمسلمين ساعةَ جاؤوا سفينتَين للتجار حملوهم فيها إلى أرض الحبشة بنصف دينار. وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حين نبئ رسول الله ﷺ[٤٦٨]، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا، فلم يدركوا منهم أحدا.

وذكر ابن سعد في رواية ثانية[٤٦٩] أسماء اثني عشر رجلا وأربع نسوة،

---

(٤٦٥) وعن إشارات سورة الكهف والزمر، انظر: الرحيق، ص ص ١٠٥ ـ ١٠٦ وهي اشارات جميلة. وعن الابتلاء في الدين وكونه السبب الرئيس وراء هذه الهجرة الأولى إلى الحبشة، انظر: البخاري/ الفتح (١٠/ ٤٣ ـ ٤٤/ح ٢٢٩٧) وانظر رسالة العودة، ص ٢٩٩ وما بعدها، ففيها استيعاب جيد للموضوع، وابن كثير: البداية (٣/ ٧٣ وما بعدها).

(٤٦٦) السير والمغازي، ص ١٢٣، من رواية يونس بن بكير، ابن هشام (١/ ٤١٣)، من رواية البكائي، وإسناده حسن، وهو خبر طويل في قصة هجرة الحبشة الأولى، وستأتي الإشارة إلى أجزاء منه في هذا الباب. وذكره غير واحد من طريق ابن إسحاق.

(٤٦٧) الطبقات (١/ ٢٠٤) وفي سنده ثلاث علل: الواقدي وجهالة عبيدالله بن عباس الهذلي والإرسال.

(٤٦٨) وهذا موافق لقول ابن إسحاق من إن وقوع الهجرة الأولى قبل المقاطعة وذلك خلافا لموسى بن عقبة. انظر: ابن هشام (١/ ٤٣٠)، وابن كثير في البداية (٣/ ٧٤) حيث قال: «وقد زعم موسى بن عقبة أن الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة كانت حين دخل ابوطالب ومن حالفه مع رسول الله ﷺ إلى الشعب».

(٤٦٩) الطبقات (١/ ٢٠٤) من طريق الواقدي، وهذا هو الذي اختاره ابن القيم في الزاد (٣/ ٢٣).

ووافقه في ذلك ابن سيد الناس[٤٧٠]، وزاد عليه امرأة خامسة، وهي أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، زوجة أبي سبرة. وروى ابن إسحاق[٤٧١] أنهم كانوا عشرة من الرجال وأربع نسوة. إذ إنه لم يذكر فيهم ابن مسعود، وذكر حاطبا بالشك «ويقال. . .». ووافق الذهبي[٤٧٢] ابن إسحاق في عدد الرجال والنساء ولكنه ذكر أبا سبرة ولم يذكر أبا حاطب أو حاطبا، ولم يذكر ابن مسعود. وذكر عروة[٤٧٣] أنهم كانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة، وذكر فيهم ابن مسعود ولم يذكر حاطبا.

وكان ضمن هؤلاء المهاجرين: أبوسلمة بن عبدالأسد، وزوجه أم سلمة بنت أبي أمية، أم المؤمنين فيما بعد، وراوية الحديث الطويل في قصة الهجرة، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وعثمان بن عفان، وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ.

وقد قال الرسول ﷺ في عثمان ورقية (رضي الله عنهما): «إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام»[٤٧٤].

وعرفت هذه الهجرة بالهجرة الأولى إلى الحبشة، وذكر ابن هشام[٤٧٥] أنه كان عليهم عثمان بن مظعون.

لم يمكث هؤلاء المهاجرون طويلا حتى بلغتهم الأخبار بأن أهل مكة قد أسلموا، فلذا قرروا العودة إلى وطنهم مكة في شوال من نفس السنة[٤٧٦].

وعندما اقتربوا من مكة علموا بأن الذي بلغهم كان مجرد إشاعة، وعرفوا أن نار العداوة مازالت مشتعلة. فرجع منهم من رجع إلى الحبشة، ومن دخل منهم مكة دخلها مستخفيا أو في جوار رجل من قريش[٤٧٧].

---

(٤٧٠) عيون الأثر (١/١٥٥).

(٤٧١) ابن هشام (١/٣٩٨ - ٩٩)، والسير والمغازي، ص ص ٢٢٣ - ٢٢٤، بدون إسناد. فهو ضعيف.

(٤٧٢) سيرته، ص ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٤٧٣) مغازية، ص ١٠٥. وإسناده ضعيف.

(٤٧٤) البيهقي: الدلائل (٢/٢٩٧) من حديث أنس بإسناد ضعيف، لضعف بشر بن موسى الخفاف.

(٤٧٥) السيرة (١/٣٩٩).

(٤٧٦) الطبقات (١/٢٠٦) من طريق الواقدي، ابن إسحاق - بدون إسناد - ابن هشام (٢/٥). فالأسانيد ضعيفة.

(٤٧٧) ابن إسحاق بدون إسناد - ابن هشام (٢/٥). فهو ضعيف.

ويزعم بعض الناس أن سبب رجوعهم كان لوقوع هدنة حقيقية بين الإسلام والوثنية، أساسها أن محمدا ﷺ تقرب إلى المشركين بمدح أصنامهم والاعتراف بمنزلتها، إذ زعموا أنه قرأ على المشركين سورة النجم حتى وصل قوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان في آذان المشركين قوله (تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى) فسجد وسجد كفار مكة. فلما بلغهم ذلك في الحبشة ظنوا أن القوم قد أسلموا لهذه القصة المزعومة.

وممن روى هذه القصة ابن سعد[٤٧٨] والطبري[٤٧٩] والبيهقي[٤٨٠]، ولم يروها أحد من أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد ولا غيرهم من أصحاب الكتب المعتمدة على التحرير.

وهي باطلة من حيث السند والمتن. وإليك أقوال العلماء في هذا:

١ ـ بطلان القصة من جهة النقل (السند):

قال ابن كثير[٤٨١]: «قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم».

وللقاضي عياض[٤٨٢] عدة مآخذ على هذه القصة، وفي ذلك يقول: «أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم. ومن حكيت عنه هذه المقالة من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية... إلخ».

---

(٤٧٨) النجم: ١٩ و ٢٠، الطبقات (١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦)، من طريق الواقدي فهو ضعيف جداً.
(٤٧٩) التفسير (١٧/ ١٣١ ـ ١٣٢) وفي إسناده أبومعشر، فالإسناد ضعيف.
(٤٨٠) الدلائل (٢/ ٢٨٥ ـ ٨٧) وإسناده ضعيف.
(٤٨١) التفسير (٣/ ٢٢٩).
(٤٨٢) الشفا (٢/ ٧٥٠ وما بعدها).

وقال ابن حجر[٤٨٣] بعد ذكر بعض مصادر القصة وأسانيدها وطرقها: «وكلها سوى طريق سعيد بن جبير: إما ضعيف وإما منقطع، لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلا مع أن لها طريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيحين، أحدهما ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب... والثاني ما أخرجه أيضا من طريق المعتمر بن سليمان وحماد بن سلمة...».

وساق الدكتور عبدالمعطي قلعجي[٤٨٤] الحجج الحديثية والمنطقية لتفنيد أكذوبة الغرانيق.

وللشيخ الألباني[٤٨٥] رسالة بعنوان: (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق)، خرج فيها أحاديث هذه القصة وحكم عليها بالضعف والبطلان، مشيرا إلى أن هناك عدة روايات مرسلة أسانيدها صحيحة إلى مرسليها، وهو يتفق في هذا مع ابن حجر، ولكنه يختلف معه في النتيجة. فقد ذهب ابن حجر[٤٨٦] إلى تقوية تلك الأحاديث المرسلة، حين قال: «فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلا، وقد ذكرت ان ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض». أما الألباني[٤٨٧] فإنه يرى أن تقوية الحديث بكثرة الطرق ليست على إطلاقها، وله منطقه وحجته في هذا، وخلص إلى رد تلك الآثار المرسلة لكونها لا تعتضد عنده.

وقد وقف الأستاذ الدكتور محمد مصطفى الأعظمي[٤٨٨] عند هذه المسألة ليناقش فيها الشيخ الألباني، قائلا: «ونقل الألباني[٤٨٩] عن ابن تيمية في مسألة الاحتجاج بالمرسل ما مفاده: ... وإن جاء المرسل من وجهين، كل

---

(٤٨٣) الفتح (١٨/٤١).
(٤٨٤) انظر: حاشية (١٣) من دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٨٧ - ٢٩١).
(٤٨٥) انظر: الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٢م. نشر المكتب الإسلامي.
(٤٨٦) الفتح (١٨/٤٢).
(٤٨٧) نصب المنجانيق، ص ٢٠ وما بعدها.
(٤٨٨) حاشية مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير، ص ١٠٧.
(٤٨٩) نصب المنجانيق، ص ٢٣.

من الراويين أخذ العلم عن غير شيوخ الآخر فهذا يدل على صدقه، فإن مثل ذلك لا يتصور في العادة تماثل الخطأ فيه وتعمد الكذب. . .

وقد رد بعض المشايخ على الألباني في اتباعه هذه القاعدة، ولذلك أحببت أن أذكر أن هذه القاعدة ليست من بنات أفكار الشيخ الألباني، بل اعتمد فيها على ما قاله الشافعي، ومن جاء بعده من المحققين كابن تيمية والنووي وغيرهم. قال السيوطي[٤٩٠]: «فإن صح مخرج المرسل بمجيئه أو نحوه من وجه آخر مسندا أو مرسلا أرسله من أخذ العلم عن غير رجال المرسل الأول كان صحيحا». هكذا نص عليه الشافعي[٤٩١] في الرسالة، مقيدا له بمرسل كبار التابعين، ومن إذا سمى من أرسل عنه سمي ثقة، وإذا شاركه الحفاظ المأمونون لم يخالفوه، وزاد في الاعتضاد أن يوافق قول صحابي أو يفتي أكثر العلماء بمقتضاه، فإن فقد شرط مما ذكر لم يقبل مرسله. . . . ومما لا شك فيه ان وجود هذه الشروط مستحيلة في هذه الفرية. لذلك فإن تقوية ابن حجر (رحمه الله) هذه المراسيل ذهول منه».

ويجيب الدكتور أبو شهبة[٤٩٢] على ما ذكره ابن حجر في «الفتح» وتابعه عليه السيوطي وغيره، قائلا:

١ ـ «إن جمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل وجعلوه من قسم الضعيف لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابي، وحينئذ يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة، وعلى الثاني فلا يؤمن أن يكون كذابا، وقد قرر الإمام مسلم[٤٩٣] هذه الحقيقة فقال: « والمرسل في أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجة». وقال ابن الصلاح[٤٩٤]: «وما ذكرنا من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه هو الذي استقر عليه آراء جماهير حفاظ الحديث وتداولوه في تصانيفهم، والاحتجاج به مذهب مالك وأبي

---

(٤٩٠) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (١/ ١٩٨ ـ ١٩٩).
(٤٩١) انظر الرسالة، ص ص ٤٦١ ـ ٤٦٢.
(٤٩٢) السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة (١/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩).
(٤٩٣) انظر: مقدمة صحيح مسلم (١/ ٣٠).
(٤٩٤) انظر. مقدمة ابن الصلاح، ص ٥٨، طبعة العلمية بحلب.

حنيفة وأصحابها في طائفة، أما الشافعي فيحتج به بشروط ذكرها في رسالته، وقد نقلها العراقي في شرح ألفيته وغيره.

٢ ـ الاحتجاج بالمرسل إنما هو في فروع الدين التي يكتفى فيها بالظن، أما الاحتجاج به على شيء يصادم العقيدة وينافي دليل العصمة فغير مسلم، وقد قال علماء التوحيد: إن خبر الواحد لو كان صحيحا لا يؤخذ به في العقائد لأنه لا يكتفى فيها إلا بما يفيد اليقين، فما بالك بالضعيف أو المختلف فيه.

هذا إضافة إلى أن القصة لم يروها أحد من أصحاب الكتب الستة أو الإمام أحمد، ولا غيرهم من اصحاب الكتب المعتمدة على التحرير».

٢ ـ بطلان القصة من حيث المتن (أو العقل):

أ ـ مخالفة القصة للقرآن الكريم:

يقول الدكتور الأعظمي[٤٩٥] في تفنيد هذه الفرية، «ولو فرضنا ـ جدلا ـ أن أسانيدها صحيحة ثابتة، فهل تثبت بذلك صحة القصة، معاذ الله؟!

والمعروف للجميع أن الحديث الشاذ ـ وهو الحديث الذي يخالف الراوي الثقة فيه من هو أوثق منه أو اكثر عدداً ـ من الأحاديث الضعيفة. وهذا في خبر الآحاد. فإذا كان خبر من خبر الآحاد يخالف القرآن الكريم وإجماع الأمة مثلا كالإيمان بعصمة الأنبياء فلا يكون الحديث شاذا، بل يكون موضوعا في هذه الحالة.

وقد قال ابن الجوزي[٤٩٦] قديما: «كل حديث رأيته يخالف العقول، أو يناقض الأصول، فاعلم أنه موضوع، فلا يتكلف اعتباره ـ أي لا تعتبر روايته».

وقد قال ابن أبي حاتم الرازي[٤٩٧] «. . . ويقاس صحة الحديث بعدالة

---

(٤٩٥) حاشيته على مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير.
(٤٩٦) فتح المغيث: ص ١١٤
(٤٩٧) مقدمة الجرح والتعديل، ص ٣٥١

ناقليه، وأن يكون كلاما يصلح أن يكون من كلام النبوة. . .» وأي عقل ـ مهما بلغ من السخافة ـ يستطيع أن يقبل أن الرسول ﷺ الذي دعا إلى التوحيد الخالص يأتي عليه زمان فيصالح المشركين بتمجيد آلهتهم، ثم ينسب ذلك القول اللعين إلى ربه جلّ وعلا؟.

«فإذا كانت الأسانيد مثل الشمس لا تثبت هذه القصة من قريب أو من بعيد، فكيف ثبتت بهذه الأسانيد الضعيفة حتى نبحث عن تأويلها. . .».

ومن الأدلة الصريحة على مخالفة هذه القصة للقرآن الكريم، قول الله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾[٤٩٨]. وقد أبعد الله الغواية عن عباده المرسلين. وقد أقر رئيس الشياطين بأن لا سلطان له على عباد الله المخلصين، كما حكاه الله عنه في قوله تعالى:

﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلَصين﴾[٤٩٩] ومن هو ذلك الأخلص من النبي محمد ﷺ.

بل ليس للشيطان سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. كما قال الله تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾[٥٠٠].

وأي الناس أصدق إيمانا بالله وأشد توكلا عليه من الأنبياء، بله رسول الله ﷺ.

ب ـ اضطراب روايات القصة:

ومما يضعف هذه القصة ويوهنها شدة اضطراب رواياتها، فرواية تقول: وقعت خارج الصلاة، ورواية: إنه كان في الصلاة، وثالثة تقول: بل حدث نفسه فسها، ورابعة تقول: إن الشيطان قالها على لسان النبي ﷺ قرأها، وسادسة تقول: إن النبي ﷺ قال ذلك وهو ناعس. وسابعة تقول: إن

---

(٤٩٨) الحجر: ٤٢.
(٤٩٩) ص: ٨٢ ـ ٨٣.
(٥٠٠) النحل: ٩٩.

الشيطان انتهز سكتة من سكتات النبي ﷺ في القراءة، فقرأها حاكيا صوت النبي ﷺ. كما رويت عبارة: «تلك الغرانيق العلا» بألفاظ مختلفة.

جـ ـ اللغة العربية تنكر القصة:

نقل الشيخ أبوشهبة[٥٠١] رأي الشيخ محمد عبده في رد هذه الفرية من ناحية اللغة العربية. فقد قال الشيخ عبده إن وصف العرب لآلهتهم بالغرنيق لم يرد لافي نظمهم ولا في خطبهم، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جاريا على ألسنتهم إلا ماجاء في معجم ياقوت من غير سند، ولا معروف بطريق صحيح، والذي تعرفه اللغة أن الغُرْنوق، والغِرنوق، والغُرنيق، والغِرنيق اسم لطائر مائي أسود أو أبيض. ومن معانيه الشاب الأبيض الجميل، ويطلق على غير ذلك، ولا شيء من معانيه اللغوية يلائم معنى الإلهية والأصنام حتى يطلق عليها في فصيح الكلام الذي يعرض على أمراء الفصاحة والبيان...

ووجه آخر لبطلان هذه القصة من حيث الأسلوب اللغوي السليم هو قول المفترين إن آيات الغرانيق جاءت بين الآيات ﴿أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذا قسمة ضيزى﴾[٥٠٢]، والآيات ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾[٥٠٣].

ما هذا؟ ذم ثم مدح ثم ذم لذات الشيء. فلو أن القصة صحيحة لكان هناك تناسب بينها وبين ما قبلها وما بعدها، ولما كان النظم مفككا والكلام متناقضا، وهو مما لا يخفى على المبتدئين في تعلم اللغة العربية، دعك عن عرب قريش، أهل الفصاحة والبيان[٥٠٤].

---

(٥٠١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/ ٣٦٧).
(٥٠٢) النجم: ١٩ ـ ٢٢.
(٥٠٣) النجم: ٢٣.
(٥٠٤) انظر الغزالي: فقه السيرة، ص ١١٨، محمد بن شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).

أما الآية التي اقترن تفسيرها بقصة الغرانيق: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيّته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته، والله عليم حكيم﴾[٥٠٥] فخلاصة ما يقال عنها: إن تفسير البخاري «التمني» بما نقله عن ابن عباس غير ملزم لتعين تفسير «التمني» في الآية بالتلاوة والقراءة، وهو التفسير الذي كان مفتاحا لباب اختراع أكذوبة الغرانيق وما اشتملت عليه من طامات وبلايا، لأن التمني جاء في الآية مطلقا عن قيد الإضافة إلى الكتاب، فلم يذكر له مفعول قيد به[٥٠٦].

د ـ بطلان القصة من حيث الزمان:

ومما ساقه الدكتور الشامي[٥٠٧] لدحض هذه الفرية هو أن آية سورة الحج، آية التمني هذه، إن لم تكن مدنية، فهي مما نزل بين مكة والمدينة. والحادثة حسب زعم رواتها ـ مكية، فهل يعقل أن يكون ذلك الزمن غير القصير بين الحادثة وبين نزول الآية التي جاءت تعقيبا عليها؟.

سبب سجود المشركين:

والذي ثبت في الصحيح[٥٠٨] أن الرسول ﷺ قرأ سورة النجم، في جماعة من المسلمين والمشركين، وخواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب. فلما أخذ صوت الرسول ﷺ يهدر بها ويرعد بنذرها حتى وصل إلى قول الله تعالى ﴿والمؤتفكة أهوى. فغشاها ماغشى. فبأي آلاء ربك تتمارى. هذا نذير من النذر الأولى. أزفت الآزفة. ليس لها من دون الله كاشفة. أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون﴾، كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن

---

(٥٠٥) الحج: ٥٢.
(٥٠٦) انظر عرجون: محمد رسول الله ﷺ، (٢/ ٧٥).
(٥٠٧) من معين السيرة، ص ٧٦ ـ حاشية (٣).
(٥٠٨) البخاري/ الفتح (١٨/ ٢٤٧ ـ ٤٨/ح ٤٨٦٢، ٤٨٦٣.

يخروا لله ساجدين، مع غيرهم من المسلمين، حتى إن الوليد بن المغيرة ـ وكان كبير السن ـ أخذ كفا من البطحاء وسجد عليه.

فلما نكسوا على رؤوسهم وأحسوا أن جلال الإيمان لوى زمامهم، ندموا على ما كان منهم، وأحبوا أن يعتذروا عنه، بأنهم ما سجدوا مع محمد ﷺ إلا لأن محمداً ﷺ عطف على أصنامهم بكلمة تقدير..[٥٠٩].

ب ـ الهجرة الثانية إلى الحبشة:

عندما عاد بعض من هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة، ووجدوا أن الابتلاء الواقع على المسلمين أصبح أشد مما كان، ولما رأى الرسول ﷺ حالهم، أذن لهم بالهجرة مرة ثانية. وكانوا هذه المرة نيفا وثمانين رجلا وتسع عشرة امرأة[٥١٠]. وقيل غير ذلك.

فقد روى الإمام أحمد[٥١١] ان ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: «بعثنا

---

(٥٠٩) انظر الغزالي: فقه السيرة، ص ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٥١٠) انظر: ابن إسحاق ـ بدون إسناد ـ سيرة ابن هشام (١/ ٤٠٨)، زاد المعاد (٣/ ٢٦).

(٥١١) المسند (٦/ ١٨٥/ح ٤٤٠٠/ شاكر)، قال شاكر: «إسناده حسن» وقال ابن كثير في البداية (٣/ ٧٧) إن إسناده جيد قوي وسياقه حسن. وفيه ما يقتضي أن اباموسى كان ممن هاجر من مكة إلى أرض الحبشة، إن لم يكن ذكره مدرجا من بعض الرواة، وقال إنه روي عن أبي إسحاق السبيعي من وجه آخر، عن أبي بردة عن أبي موسى، عند ابن نعيم في دلائله (١/ ٢٥٢) وجاء في أوله: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننطلق مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض الحبشة...» وفي أواخره وبعد ذكر إكرام النجاشي لهم قال: «وأمر لنا بطعام وكسوة...» ثم قال ابن كثير (٣/ ٧٧): «وهكذا رواه الحافظ البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠) من طريق أبي علي الحسن ابن سلام السواق عن عبيد الله بن موسى، فذكر بإسناده مثله إلى قوله: «فأمر لنا بطعام وكسوة». قال ابن كثير: «وهذا إسناد صحيح. وظاهره يدل على أن أبا موسى كان بمكة، وأنه خرج مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض الحبشة. والصحيح عن يزيد بن عبدالله بن أبي بردة عن جده أبي بردة عن أبي موسى: أنهم بلغهم مخرج رسول الله ﷺ وهم باليمن، فخرجوا مهاجرين في بضعة وخمسين رجلا في سفينة فألقتهم سفينتهم إلى النجاشي بأرض الحبشة، فوافقوا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عندهم، فأمره جعفر بالإقامة، فأقاموا عنده، حتى قدموا على رسول الله ﷺ زمن خيبر. قال: وأبوموسى شهد ما جرى بين جعفر وبين النجاشي، فأخبر عنه. قال: ولعل الراوي وهم في قوله: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننطلق، والله أعلم».
قال شاكر عن تحقيق ابن كثير هذا: «هذا تحقيق جيد...» انظر حاشية المسند (٦/ ١٨٧ وما قبلها). وعن قدوم أبي موسى مع جعفر يوم فتح خيبر، انظر: البخاري/ الفتح (١٥/ ٣٦/ح ٣٨٧٦) ـ وسيأتي ذكره في الكلام عن غزوة خيبر إن شاء الله.
أما ابن حجر فقد حاول الجمع بين الروايات، وذلك بأن يكون هاجر أولا إلى مكة فأسلم فبعثه النبي ﷺ مع من بعث إلى الحبشة، فتوجه إلى بلاد قومه. وهي مقابل الحبشة من الجانب الشرقي، فلما تحقق استقرار النبي ﷺ بالمدينة هاجر هو ومن أسلم من قومه إلى المدينة، فهاجت البحر فألقتهم السفينة إلى الحبشة ـ (الفتح ١٥/ ٣٢/ ...).

==

رسـول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلا، فيهم جعفر، وعبـدالله بن عرفـطة وعثمان بن مظعون، وأبوموسى، . . .» ولم يذكر عدد النساء. وذكر ابن سعد[٥١٢] أن عدد الرجال ثلاثة وثمانين رجلا وعدد النساء إحدى عشرة امرأة. وذكر ابن إسحاق[٥١٣] في السير والمغازي أنهم كانوا نيفا وثمانين رجلا، وذكر أسماء ست عشرة امرأة، وذكر في السيرة[٥١٤] أنهم كانوا ثلاثة وثمانين رجلا، وإذا اعتبرنا من ولدت ريطة بنت الحارث، فيكون عدد النساء عنده عشرين أمرأة، وقد ذكر ابن القيم[٥١٥] انهن تسع عشرة امرأة، والله أعلم.

ويشهد بقبول ما جاء عند أهل المغازي والسير في عدد المهاجرين هذه المرة، رواية أحمد المذكورة من حديث ابن مسعود.

جـ ـ قريش تسعى لإعادة المهاجرين:

روى ابن إسحاق[٥١٦] من حديث أم سلمة (رضي الله عنها) في هجرة الحبشة، أنها قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم[٥١٧]، فجمعوا له أدما كثيرا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا

==

وقـد ارتضى هذا الجمع بعض العلماء، منهم: الصالحي في سيرته: سبل الهدى والرشاد (٢/٥٣٣)، والسعود في رسالته المقدمة لنيل درجة الماجستير بعنوان: أحاديث الهجرة (ص ٥٠)، والعـودة في رسالته المقدمة لنيل الدكتوراه، السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق، ص ٣٠١. ويتفق البخاري ومسلم مع ابن إسحاق على أن عودته كانت مع جعفر والرسول ﷺ بخيبر، كما سيأتي ذكره في غزوة خيبر.

(٥١٢) الطبقات (١/٢٠٧). بإسناد ضعيف.

(٥١٣) ص: ٢٢٨.

(٥١٤) ابن هشام (١/٤٠٨) بدون إسناد. فهو ضعيف.

(٥١٥) زاد المعاد (٣/٢٦) نقلا عن ابن إسحاق في السيرة وهو ضعيف.

(٥١٦) السير والمغازي، ص ٢١٣ وما بعدها، وابن هشام (١/٤١٣ وما بعدها)، وإسناده حسن. وقد سبق ذكره، وهي من أجود ما روي في هذا الباب.

(٥١٧) الأدم: الجلود، وأحدها: أديم.

إلا أهدوا له هدية. ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعة[٥١٨] وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم. فخرجا حتى قدما على النجاشي... فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم...».

وفي الحديث أن الوفد اتفق مع البطارقة أن يشيروا على النجاشي بأن يسلمهم إليهم ولا يكلمهم. ولكن النجاشي عندما أشير اليه بذلك رأى أن يدعو المسلمين ويستمع بنفسه إلى ما يقولونه.

وعندما حضروا أمامه تكلم نيابة عنهم جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه)، فأوضح للنجاشي حقيقة الدين الذي جاء به محمد ﷺ، وموقف قومهم منه.

وعندما طلب النجاشي شيئا مما جاء به ﷺ قرأ عليه جعفر صدر سورة مريم. فبكى النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكى أساقفته حتى ابتلت كتبهم التي يحملونها.

ثم قال النجاشي مخاطبا سفيري قريش: «إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبدا»[٥١٩].

---

(٥١٨) في حديث ابن مسعود عند أحمد في المسند (٦/ ١٨٥) بإسناد حسن، وقد سبق الكلام عليه، وأن الذي بعثوه مع عمرو هو عمارة بن الوليد. والذي رجحه عرجون في كتابه محمد رسول الله ﷺ (٢/ ٢٤) - جمعا بين الروايات - أن قريشا بعثت في أثر المهاجرين إلى الحبشة من المسلمين بعثة واحدة، كانت في الهجرة الثانية، وكان فيها عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة، مبعوثين أصليين، وكان معهما رديفا وتابعا عمارة بن الوليد...
انظر كامل المناقشة في كتابه المذكور ٢/ ٢١ - ٢٤).

(٥١٩) ربما يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو: هل كان النجاشي وأساقفته يعرفون العربية حتى يتفعلوا هذا الانفعال مع القرآن الكريم؟
يقول السهيلي في الروض الأنف (٢/ ٩٣) في تعليقه على حديث عائشة (رضي الله عنها) في قصة تملك النجاشي على الحبشة: «وذكر حديث عائشة عن النجاشي حين رد الله عليه ملكه، وأن قومه كانوا باعوه إلى تاجر من العرب، فلما مرج أمر الحبشة، أخذوه من سيده، واستردوه. فظاهر الحديث يدل على أنهم أخذوه منه قبل أن يأتي به بلاده وقد تبين في حديث آخر أن ==

وعندما خرجا، قال عمرو لعبدالله: «والله لآتينه غدا بما يبيد خضراءهم».

فلما كان الغد جاء عمرو إلى النجاشي وقال له: «إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما». فأرسل النجاشي إليهم، وعندما جاؤوه سألهم عن قولهم في المسيح، فقال جعفر: «نقول فيه الذي جاءنا به نبينا، هو عبدالله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول».

فأخذ النجاشي عودا من الأرض، وقال لجعفر: «ما عدا عيسى ما قلت قدر هذا العود». ولم يأبه لامتعاض بطارقته، فأعطى المسلمين الأمان في بلاده، ورد هدية قريش(٥٢٠).

أخفقت سفارة قريش في مهمتها، ولم تجد قريش أمامها غير التشفي ممن هم تحت أيديها.

== سيده كان من العرب وأنه استعبده طويلا، وهو الذي يقتضيه قوله: فلما مرج على الحبشة أمرهم وضاق عليهم ما هم فيه... وهذا يدل على طول مدة مغيبه عنهم... وقد روي أن وقعة بدر حين انتهى خبرها إلى النجاشي علم بها من عنده من المسلمين، فأرسل إليهم، فلما دخلوا عليه إذ هو قد لبس مسحا... إلى قوله: «بلغني أنه التقى هو وأعداؤه بواد يقال له بدر، كثير الأراك كنت أرعى فيه الغنم على سيدي، وهو من بني ضمرة، وأن الله قد هزم أعداءه ونصر دينه»، فدل هذا الخبر على طول مكثه في بلاد العرب، فمن هنا ـ والله أعلم ـ تعلم من لسان العرب ما فهم به سورة مريم، حين تليت عليه».

قلت: وإذا سلمنا بوجوده فترة من الزمان بالحجاز وعلمنا بوجود علاقات تجارية بين الحبشة والحجاز وإمكان تعلم رجال البلاط الحبشي للغة العربية لأهميتها في هذه العلاقات، كما كان يحدث عند المسلمين حيث إن رسل الرسول ﷺ كانوا يتحدثون لسان من يرسلهم إليهم، وإذا علمنا أن أباتيرز، مولى علي بن أبي طالب، كان ابنا للنجاشي نفسه، وأن عليا وجده عند تاجر بمكة فاشتراه منه وأعتقه مكافأة لما صنع والده مع المسلمين (انظر: السير والمغازي لابن إسحاق ص ٢٢٠)، بإسناد حسن. هذا في رواية، وفي أخرى أن ناسا من الحبشة قدموا مكة ـ ونزلوا على أبي نيزر مدة شهر، يعرضون عليه الرجوع إلى بلاده ليملكوه، فرفض (المصدر والمكان نفسيهما)، بإسناد حسن). إذا علمنا ذلك كله فليس هناك ما يمنع معرفة النجاشي وجماعته العربية. إضافة إلى أن الواقع المشاهد في البلاد غير العربية، نجد بعض المسلمين يحفظون القرآن عن ظهر قلب وينفعلون معه دون فهمهم لمعناه جيدا. وهذا من إعجاز القرآن: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾. وقد شوهد أناس من غير المسلمين ولا يعرفون العربية ينفعلون مع القرآن الكريم. وفي رواية لابن إسحاق عن عروة أن الذي كان يكلم النجاشي عثمان بن عفان، انظر السير والمغازي، ص ص ٢١٨ ـ ٢١٩، والمشهور أن جعفرا هو المتكلم ـ انظر ابن كثير. البداية (٣/ ٨٤) وهو ما جزم به ابن إسحاق في رده على عروة، قائلا: «وليس كذلك، إنما كان يكلمه جعفر بن أبي طالب» ـ انظر: ابن إسحاق: السير والمغازي، ص ٢١٨، معلقا. والروايات في هذا الموضوع تحتاج إلى وقفه متأنية في فرصة أخرى إن شاء الله.

(٥٢٠) انظر نص حديث أم سلمة كاملا في السير والمغازي لابن إسحاق، ص ص ٢١٣ ـ ٢١٦، وابن هشام (١/ ٤١٣ ـ ٤١٨).

أما الإسلام فقد كسب إلى جانبه النجاشي وعمرو بن العاص[٥٢١].

ومكث المسلمون ما شاء الله لهم، فعاد من عاد منهم بعد هجرة المسلمين إلى المدينة وقبل وقعة بدر، وهم ثلاثة وثلاثون رجلا وثماني نسوة[٥٢٢]. وعاد الباقون مع جعفر عندما فرغ الرسول ﷺ من فتح خيبر في العام السابع الهجري[٥٢٣].

د ـ حكم وعظات وعبر من هذا المقطع:

١) إن في هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة دليلاً على مشروعية الهجرة، وهي الانتقال من بلد الكفر حيث يتعذر على العبد أن يعبد الله، إلى دار يتمكن فيها من عبادة الله بدون فتنة. وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام عن هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

٢) إن من أسس ودعامات الدين التضحية بالمال والوطن والنفس في سبيله، لأن الدين إذا فقد لم يغن من ورائه المال والوطن والنفس، بل سرعان ما يذهب كل ذلك أيضا من ورائه، أما إذا قوي شأنه وقامت في المجتمع دعائمه ورسخت في الأفئدة عقيدته، فإن كل ما كان قد ذهب في سبيله من مال وأرض ووطن يعود أقوى من ذي قبل، حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة. ولذا كانت الهجرة نفسها ضرباً من ضروب العذاب والألم في سبيل الدين وتضحية بالوطن والمال، وتبديل محنة أقسى بأخرى أقل قسوة ريثما يأتي الفرج والنصر.

٣) يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، سواء أكان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي النصراني، والذي أسلم بعد ذلك، أو كان مشركاً كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم، وكأبي طالب الذي حمى الرسول ﷺ، والمطعم ابن عدي الذي حمى النبي ﷺ عندما عاد من الطائف[٥٢٤].

---

(٥٢١) يأتي الكلام عن إسلامه فيما بعد وعلاقة ذلك بسفارته إلى الحبشة.
(٥٢٢) البخاري/ الفتح (١٥/ ٨٧ ـ ٨٨/ح ٣٩٠٥) والفتح الرباني (٢٠/ ٢٨٠)، وابن سعد (١/ ٢٠٧).
(٥٢٣) البخاري/ الفتح (١٥/ ٣٦/ح ٣٨٧٦)، وابن سعد (١/ ٢٠٨).
(٥٢٤) انظر البوطي: فقه السيرة، ص ص ١٠٠ ـ ١٠٢.

المبحث السادس والعشرون: إسلام النجاشي:

ذكر ابن اسحاق[٥٢٥] في رواية له أن النجاشي لما مات كان يتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور. ويفهم من هذه الرواية الصحيحة أنه قد أسلم.

وذكر في رواية أخرى أن قومه خرجوا عليه لأنه أسلم، وقبل أن يخوض حربا ضدهم هيأ للمسلمين سفنا ليركبوها إذا انهزم، وكتب كتابا يشهد فيه بإسلامه.. وبلغ ذلك النبي ﷺ. فلما مات النجاشي استغفر له[٥٢٦].

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق موافق في جوهره لما في الصحيحين فيما يتعلق بإسلام النجاشي. فقد روى البخاري[٥٢٧] ومسلم[٥٢٨] أن الرسول ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، في العام التاسع الهجري، وصلى بالمسلمين صلاة الغائب عليه. وروى البخاري[٥٢٩] ومسلم[٥٣٠] أيضا أن الرسول ﷺ قال: «قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش فهلم فصلوا عليه».

وفي رواية لمسلم[٥٣١]، قال الرسول ﷺ: «إن أخا لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه...». وهذا الحديث صريح في أنه مات على الإسلام.

وهذا النجاشي الذي أسلم ليس بالنجاشي الذي كتب إليه الرسول ﷺ عندما كتب إلى عامة الملوك والرؤساء، بدليل رواية عند مسلم[٥٣٢]، ولم يذكر ذلك في روايتين أخريين عنده، مما جعل الشيخ الأرناؤوط[٥٣٣] يميل إلى أن

---

(٥٢٥) ابن هشام (١/ ٤٢٠)، وإسناده صحيح.

(٥٢٦) ابن هشام (١/ ٤٢١)، بإسناد مرسل حسن، ويخالف لحديث أم سلمه. وقد روى البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه وقال: «استغفروا لأخيكم» الفتح (٦/ ٢٤٢/ح ١٣٢٧) وفي هذا الحديث تصريح بأنه النجاشي، ومسلم (٢/ ٦٥٧/ح ٩٥١).

(٥٢٧) الفتح (٦/ ١٤١/ح ١٢٤٥) ـ انظر كلام ابن حجر في الفتح (٦/ ٢٢٨ ـ ٢٣٠) عن إسلامه.

(٥٢٨) (٢/ ٦٥٦/ح ٩٥١) وفي هذا الحديث تصريح بأنه النجاشي، وفي روايتين أخريين ذكر اسمه أصحمة (٦/ ٢٢٨/ح ٩٥٢).

(٥٢٩) الفتح (٢/ ٦٥٧/ح ١٣٢).

(٥٣٠) مسلم (٢/ ٦٥٧/ح ٩٥٢) واللفظ للبخاري، أما لفظ مسلم: «مات اليوم عبد صالح ـ أصحمة...».

(٥٣١) ٦/ ٦٥٧ ـ ٥٨/ح ٩٥٣).

(٥٣٢) الصحيح (٣/ ١٣٩٧/ح ١٧٧٤).

(٥٣٣) حاشيته على إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين لابن طولون، ص ٥٤.

النجاشي الذي صلى عليه الرسول ﷺ هو ذات النجاشي الذي أرسل إليه، لأن كتب التاريخ لا تذكر سوى خبر نجاشي واحد.

المبحث السابع والعشرون: إسلام حمزة وعمر بن الخطاب:

أ - إسلام حمزة:

لم يوقف اضطهاد المشركين للمسلمين دخول صناديد قريش في الإسلام. ففي هذا الجو المشحون بالأحقاد على المسلمين عامة والرسول ﷺ خاصة، شاء الله تعالى أن يكون حقد أبي جهل على الرسول ﷺ سببا في إسلام حمزة عم الرسول ﷺ واحد أشداء قريش. فقد روى ابن اسحاق(٥٣٤) وابن سعد(٥٣٥) أن أمة لعبدالله بن جدعان أخبرت حمزة أن أبا جهل قد أساء إلى ابن أخيه محمد ﷺ إساءات بذيئة. فلم يتردد في المجيء إلى أبي جهل وهو في مجلسه من قومه، فضربه بالقوس على رأسه فشجه شجة منكرة، وقال له: «أتشتمه وأنا على دينه؟»... فكانت تلك بداية انشراح صدر حمزة للإسلام.

وعندما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنع عنه الأذى، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه(٥٣٦).

وكان إسلام حمزة بعد دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم في السنة السادسة من النبوة(٥٣٧).

ب - إسلام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه):

لقد كان عمر من ألد خصوم الإسلام، وكان معروفا بحدة الطبع وقوة

---

(٥٣٤) ابن هشام (١/ ٣٦٠ - ٣٦١)، وإسناده منقطع، والسير والمغازي، ص ص ١٧١ - ١٧٢، بإسناد منقطع، ورواه الحاكم في المستدرك (٣/١٩٣) من طريق ابن إسحاق، وسكت عليه هو والذهبي. وإسناده منقطع أيضا. ولذا فالأسانيد ضعيفة

(٥٣٥) الطبقات الكبرى (٣/ ٩) من طريق الواقدي - وهو متروك في الحديث، ولم يذكر من نقل إساءة أبي جهل إلى النبي ﷺ وزاد أن من أساء إلى النبي ﷺ أيضا: عدي بن الحمراء وابن الأصداء، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٦٧) من رواية الطبراني بإسنادين مرسلين، ورجال أحدهما رجال الصحيح، ورجال الآخر ثقات.

(٥٣٦) ابن إسحاق: السير والمغازي، ص ١٧٢. وإسناده منقطع فهو ضعيف.

(٥٣٧) ابن سعد: الطبقات (٣/ ٩) من رواية الواقدي. إذن فهو ضعيف جداً.

الشكيمة وكثيرا ما لقي بعض المسلمين منه صنوفا من الأذى والتنكيل.

قال سعيد بن زيد، قريبه وزوج أخته: «والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم...»[٥٣٨]. وفي رواية: «لو رأيتني موثقي عمر على الإسلام أنا وأخته وما أسلم...»[٥٣٩].

وروى ابن إسحاق[٥٤٠] أن ليلى - أم عبدالله - زوجة عامر بن ربيعة، قالت: «والله إنا لنرتحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عمر - وهو على شركه - حتى وقف عليَّ وكنا نلقى منه البلاء، فقال: أتنطلقون يا أم عبدالله؟ قالت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، فقد آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجا. قالت: لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا... قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت نعم. فقال: لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب»، وذلك لما كان يراه عامر من شدة عمر وغلظته على المسلمين.

وفي هذا الخبر دليل على نوازع الفطرة السليمة التي كانت تصطرع في نفسه مع غشاوات الجاهلية، إلى أن حانت ساعة جلاء هذه الغشاوة عن فطرته السليمة، فدخل فى الإسلام، وتحولت شدته من شدة في الباطل الى شدة في الحق.

وعندما شرح الله صدره للإسلام قال: «أي قريش أَنْقَلُ للحديث؟» فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، فجاءه عمر فأخبره بإسلامه. فأسرع جميل إلى الكعبة، وصرخ في القوم بأعلى صوته، قائلا: «ألا إن عمر صبأ»، وعمر خلفه يقول: «كذب، ولكن قد أسلمت...» ودخلوا معه في عراك طويل

---

(٥٣٨) روى ذلك أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٢٧٨) وصحح المحقق إسناده.

(٥٣٩) رواه البخاري/ الفتح (١٥/ ٢٥/ح ٣٨٦٧).

(٥٤٠) السير والمغازي، ص ١٨١، وابن هشام (١/ ٤٢٣) بإسناد حسن. ورواه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٢٧٩) من طريق ابن إسحاق، ولكنه لم يصرح باسم شيخ ابن إسحاق.

حتى أنقذه الله منهم بالعاص بن وائل السهمي[٥٤١].

أما القصة المشهورة في سبب إسلامه والتي تقول إنه كان في طريقه إلى محمد ﷺ لينال منه، فلقيه رجل علم منه ما يريد فتعجب منه لأنه لا يعلم بإسلام أخته وزوجها. فغضب عمر وذهب إلى أخته وزوجها ووجد معهما خبابا... فضربها حتى سال الدم منها، ثم وجد معهم آيات من سورة طه، فقرأها بعد أن أمرته أخته بالاغتسال إذا أراد مسها... ثم أسلم وذهب إلى الرسول ﷺ ليعلن إسلامه... ورد جوار خاله العاصي ليضرب ويضرب كما هو حال المستضعفين من المسلمين إلى أن أعز الله الإسلام... هذه القصة لم ترد بإسناد صحيح مقبول عند المحدثين، وإن كان بعض أجزائها قد ورد بأسانيد حسنة. فقد ضعفها وصي الله[٥٤٢] وهمام وأبوصعيليك[٥٤٣] وغيرهم.

لقد كان إسلام عمر استجابة من الله تعالى لدعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به، وهو: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب»[٥٤٤].

---

(٥٤١) أحمد: فضائل الصحابة (١/ ٢٨١ - ٢٨٢)، وحسن المحقق إسناده. وفي رواية مختصرة عند أحمد في الفضائل (١/ ٢٨٢ - ٢٨٣)، أن العاصي بن وائل أجار عمر عندما اجتمع الناس عليه يؤذونه. وقد حسن المحقق إسنادها. وروى البخاري من حديث أبن عمر ان الناس اجتمعوا عليه عند داره عندما أسلم وأجاره العاصي بن وائل - انظر: الفتح (١٥/ ٢١/ ح ٣٨٦٥). وفي رواية أنهم كانوا في طريقهم إليه ليؤذوه عندما علموا بإسلامه فأجاره العاصي، فرجعوا عنه - الفتح (١٥/ ٢٠).
ورواه ابن إسحاق بإسناد حسن - ابن هشام (١/ ٤٢٨ - ٤٢٩)، والسير والمغازي، ص ١٨٤.

(٥٤٢) انظر حاشيته على فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٢٨٥ - ٢٨٦).

(٥٤٣) انظر حاشيتها على سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٥) - والقصة رواها هنا ابن إسحاق بدون اسناد، وانظر الذهبي: السيرة، ص ١٧٩، حيث ضعف إسنادها. ورواها ابن سعد (٣/ ٢٦٧ - ٢٦٩) من غير طريق ابن اسحاق، بإسناد ضعيف كما ذكر الهيثمي في المجمع (٩/ ٦٣ - ٦٥)، وأبونعيم في الدلائل (١/ ٢٤١) بإسناد ضعيف جدا لأن فيه إسحاق بن عبدالله أبي فروة، وهو متروك. واستفاضة ذكر هذه القصة عند أهل المغازي والسير دليل على أن لها أصلا تاريخيا فلا مانع من قبولها تاريخيا.

(٥٤٤) رواه أحمد في مسنده (١/ ٩٥) بإسناد حسن - انظر: الفتح الرباني (٢٠/ ٢٣٠)، وعبد بن حميد في منتخب مسنده، ص ٢٤٥، حديث رقم ٧٥٩، والترمذي بإسناد صحيح - انظر: صحيح سنن الترمذي (٣/ ٢٠٤) وقال الألباني: «صحيح»؛ والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢١٦) رواية الترمذي والحاكم في المستدرك (٣/ ٨٣) من حديث عائشة، وسكت عنه هو والذهبي، ومن حديث ابن عباس بلفظ: «اللهم أعز الإسلام بعمر»، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، والذهبي في سيرته، ص ١٧٢، ورواه يونس بن بكر من غير طريق ابن إسحاق، انظر السير والمغازي لابن إسحاق، ص ١٨٥، وإسناده ضعيف لضعف النضر أبي عمر، وهو ابن عبدالرحمن الخزار الكوفي.. وخلاصة القول إن الحديث صحيح.

فقد أعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب. وفي هذا روى البخاري[٥٤٥] عن ابن مسعود أنه قال: «مازلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب».

ورويت آثار كثيرة في إعزازه الإسلام، دلت على دوره الكبير في نصرة الإسلام، من ذلك:

روى ابن إسحاق[٥٤٦] عن عمر (رضي الله عنه)، قال: «لما أسلمت تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة، قال: قلت: أبوجهل، فأتيت حتى ضربت عليه بابه، فخرج إليَّ، وقال: أهلا وسهلا، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد ﷺ، وصدقت بما جاء به. قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به».

وروى ابن مسعود قال: «إن إسلام عمر كان فتحا وإن هجرته كانت نصرا وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه»[٥٤٧].

وروي عن صهيب الرومي أنه قال: «لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعا إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به»[٥٤٨].

وروي عن ابن عباس أنه قال: «لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا»[٥٤٩].

---

(٥٤٥) الفتح (١٤/١٨٦/ح ٣٦٨٤). لقد كان إسلامه في سنة ست أو سبع من المبعث كما ذكر ابن حجر في شرحه لهذا الحديث. وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٢٦٩ - ٢٧٠) حيث ذكر هذا الحديث وتاريخ إسلام عمر.

(٥٤٦) ابن هشام (١/ ٤٣٠) وفي إسناده جهالة، إذ أنه لم يسم أحد رواته، وبقية رجاله ثقات فهو إذن ضعيف.

(٥٤٧) ابن هشام (١/ ٤٢٢) من رواية ابن إسحاق بإسناد ضعيف. وابن سعد (٣/ ٢٧٠) بإسناد ضعيف.

(٥٤٨) ابن سعد (٣/ ٢٦٩) من رواية الواقدي. فهو ضعيف جداً.

(٥٤٩) أحمد بن حنبل. فضائل الصحابة (١/ ٢٤٨) بإسناد ضعيف.

وروي أن رسول الله ﷺ سماه الفاروق[٥٥٠]، أي الذي فرق بين الحق والباطل.

على الرغم من أن هذه الآثار لا تقبل بميزان المحدثين إلا أنه لا بأس من الاستئناس بها فيما لا يترتب عليه حكم شرعي أو لا يمس العقيدة.

ومما لا خلاف فيه أن إسلام عمر كان إعزازا للإسلام، لقول الرسول ﷺ: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب».

جـ - عظات وعبر وحكم من هذا المقطع:

١ - إن الرجال ذوي القوة والشكيمة في المجتمع الجاهلي يمكن أن يكونوا سندا قويا للدعوة الإسلامية إذا أسلموا.... ولذا كان الرسول ﷺ حريصا على إسلام رجال أمثال أبي جهل وعمر بن الخطاب، وقال إن خيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا[٥٥١]... فليحرص الدعاة دائما على عدم إهمال دعوة الشخصيات القوية والمؤثرة في مجتمعاتها، لأن إسلام هذه الشخصيات سوف يزيل الكثير من التردد الذي يقع فيه من يأتمرون بأمرهم أو يقتدون بهم، كما هو واقع في كل زمان ومكان، وكما حكى عن ذلك القرآن، في مخاطبة الكفار الذين أضلهم الزعماء والسادة والكبراء: ﴿يوم تُقَلَّبُ وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا. وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلُّونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا[٥٥٢]﴾. ولا تقتصر الدعوة على زعماء المشركين وأحادهم، بل لابد

---

(٥٥٠) قال الذهبي في سيرته، ص ١٧٩: (ويروي عن ابن عباس بإسناد ضعيف، قال: «سألت عمر لأي شيء سميت الفاروق؟» فذكر قصته عند إسلامه وضربه اخته وختنه وذهابه إلى الرسول ﷺ في دار الأرقم، وفي نهاية الخبر قوله: فسماني رسول الله ﷺ «الفاروق». وروى ابن سعد (٣/ ٢٧٠) بأسانيد ضعيفة أن الرسول ﷺ سماه الفاروق. انظر ابن الجوزي: تاريخ عمر ابن الخطاب، ص٢٣، ٣٠ - ٣١.

(٥٥١) البخاري/ الفتح (١٣/ ١٦١/ح ٣٣٧٤).

(٥٥٢) الأحزاب: ٦٦ - ٦٨.

أن تتعدى إلى الزعامات المنحرفة عن الإسلام والتي تقود شعوبها أو أحزابها إلى غير طريق الإسلام في مجالات الحياة المختلفة.

٢ ـ إن في نهوض الرسول ﷺ للقاء عمر بن الخطاب عندما جاء إلى المسلمين في دار الأرقم، وأخذه بحجزته[٥٥٣] أو بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة شديدة، ثم تهديده. إن في هذا مثالاً عالياً للشجاعة في موطن الشدة. وهو ما ستلمسه يتكرر في مواطن أخرى كثيرة، مثل موقفه يوم أحد ويوم حنين.

المبحث الثامن والعشرون:

أ ـ المقاطعة العامة:

لما رأت قريش أن عدد الداخلين في الإسلام ازداد، وأن وسائلها وأساليبها السابقة في محاربتهم وقمعهم لم تجد شيئا، خاصة بعد إسلام حمزة وعمر، أعادت النظر في تلك الأساليب والوسائل، ثم اتخذت أسلوبا آخر، أقسى وأشمل من الأساليب السابقة، وهو أسلوب المقاطعة العامة[٥٥٤].

قال ابن إسحاق[٥٥٥] وموسى بن عقبة[٥٥٦] وعروة بن الزبير[٥٥٧] وابن سعد[٥٥٨] وغيرهم من أصحاب المغازي إنه لما رأت قريش أن الصحابة قد نزلوا أرضا أصابوا بها أمنا وأن عمر وحمزة أسلما، وأن الإسلام فشا في

---

(٥٥٣) يعني مقعد السراويل والإزار. والإشارة هنا إلى الخبر المشهور في قصة إسلام عمر (رضي الله عنه) من رواية ابن إسحاق وابن سعد كما سبق الإشارة إلى هذا قبل قليل وقلنا إنها ضعيفة الإسناد، وغير مقبولة حديثياً، وإن استفاضة ذكرها عن أهل المغازي والسير يدل على أن لها أصلاً.

(٥٥٤) سبق القول إن المقاطعة العامة كانت أسلوبا من أساليب محاربة الإسلام ـ الأسلوب الرابع عشر.

(٥٥٥) ابن هشام (١/ ٤٣٠) بدون إسناد، السير والمغازي، ص ١٥٦ ـ ١٦٧ ـ بدون إسناد. فهو إذن ضعيف.

(٥٥٦) نقله عنه ابن حجر في الفتح (١٥/ ٣٨)، وهي عند البيهقي في الدلائل (٢/ ٣١١) موقوفة على الزهري.

(٥٥٧) مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير، جمع وتحقيق الأستاذ الدكتور/ محمد مصطفى الأعظمي، ص ص ١١٤ ـ ١١٦، بإسناد فيه ابن لهيعة وموقوف على عروة، وعن عروة رواه أبونعيم في الدلائل (١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٥).

(٥٥٨) الطبقات (١/ ٢٠٨ ـ ٢١٠) من طريق الواقدي. وانظر تفاصيل المقاطعة في هذه المصادر المذكورة، فهي مطولة جدا، وما ذكرناه هنا مختصر جدا.

القبائل، أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني المطلب، فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم[٥٥٩] ومنعوه ممن أراد قتله، فأجابوه إلى ذلك حتى كفارهم فعلوا ذلك حمية على عادة الجاهلية. فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على أن لا يعاملوهم ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ. ففعلوا ذلك وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، وكان كاتبها منصور بن عكرمة، الذي دعا عليه الرسول ﷺ فشلت بعض أصابعه، ويقال النضر بن الحارث، وقيل طلحة بن أبي طلحة[٥٦٠]. فانحازت بنوهاشم وبنوالمطلب إلى أبي طالب. فكانوا معه كلهم إلا أبا لهب، فكان مع قريش. وقيل كان ابتداء حصرهم في المحرم سنة سبع من المبعث. فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا. وجزم موسى بن عقبة[٥٦١] بأنها كانت ثلاث سنين، حتى جهدوا، ولم يكن يأتيهم شيء من الأقوات إلا خفية، حتى كانوا يؤذون من اطلعوا على أنه أرسل إلى بعض أقاربه شيئا من الصلات، إلى أن قام في نقض الصحيفة نفر من أشدهم في ذلك ضيقا، وهم: هشام بن عمرو بن الحارث وزهير بن أبي أمية والمطعم بن عدي وزمعة بن الأسود وأبوالبختري بن هشام بن الحارث. وكانت تربطهم ببني هاشم والمطلب صلات الأرحام.

وذكر ابن هشام[٥٦٢] أنهم وجدوا الأرضة قد أكلت جميع ما فيها إلا اسم

---

(٥٥٩) الشِّعْب: الطريق في الجبل، ومسيل الماء في بطن الأرض.

(٥٦٠) قال السهيلي في الروض (٢/ ١٢٧): «ان النساب من قريش يقولون إنه بغيض بن عامر ابن هاشم بن عبدالدار. والقول الثاني: إنه منصور بن عبدشرحبيل بن هشام من بني عبدالدار أيضا، وهو خلاف قول ابن إسحاق، ولم يذكر الزبير في كاتب الصحيفة غير هذين القولين، والزبيريون أعلم بأنساب قومهم». وقد اختار ابن القيم قول السهيلي بأنه بغيض بن عامر ـ الزاد (٣/ ٣٠).

(٥٦١) ابن حجر: الفتح (١٥/ ٣٨)، الذهبي: السيرة، ص ٢٢١ ومابعدها، ابن سعد (١/ ٢٠٨ ـ ٢١٠)وأسانيدهم ضعيفة.

(٥٦٢) السيرة (٢/ ٢٠) بإسناد ضعيف.

الله تعالى. وأما ابن إسحاق[٥٦٣] وموسى بن عقبة[٥٦٤] وعروة[٥٦٥] فذكروا عكس ذلك. قالوا إن الأرضة لم تدع اسما لله إلا أكلته، وبقي ما بها من الظلم والقطيعة. والمعنى المقصود عندهم جميعا واحد، وهو أنهم أرادو أن يقولوا أن اسم الله تعالى لا يجتمع مع عبارات الظلم والقطيعة.

قال السهيلي[٥٦٦]: «وفي الصحيح[٥٦٧]: أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط[٥٦٨] وورق السمر، حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة، وكان فيهم سعد بن أبي وقاص. روي أنه قال: لقد جعت حتى أني وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعته في فمي وما أدري ما هو إلى الآن».

وفي رواية يونس[٥٦٩] أن سعدا قال: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجت من الليل أبول، فإذا أنا أسمع قعقعة شيء تحت بولي فنظرت فإذا قطعة جلد بعير، فأخذتها فغسلتها، ثم أحرقتها، فرضضتها بين حجرين، ثم استففتها، فشربت عليها الماء، فقويت عليها ثلاثا».

وكانوا إذا قدمت العير مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئا من الطعام لعياله، فيقوم أبولهب ـ عدو الله ـ فيقول: «يا معشر التجار: غالوا على أصحاب محمد، حتى لا يدركوا معكم شيئا، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم»، فيزيدون عليهم في السلعة أضعافا حتى يرجع إلى أطفاله، وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس،

---

(٥٦٣) ابن هشام (٢/ ١٩)، السير والمغازي، ص ١٦١ ـ بدون إسناد. فهو ضعيف.

(٥٦٤) ابن حجر: الفتح (١٥/ ٣٨) بإسناد ضعيف.

(٥٦٥) مغازي رسول الله ﷺ لعروة، ص ١١٦، وسنده موقوف على عروة، ولم يرد خبر أكل الأرضة للصحيفة بإسناد يحتج به ـ انظر تحقيق همام وأبي صعليك (٢/ ١٩) فالأسانيد ضعيفة.

(٥٦٦) الروض الأنف (٢/ ١٢٧ ـ ١٢٨).

(٥٦٧) لم نقف على مكانه، والذي وقفنا عليه في غير هذه المناسبة: فقد روى البخاري من حديث سعد. «كنا نغزو مع النبي ﷺ ومالنا طعام إلا ورق الشجر حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ماله خلط. . . .» ـ البخاري/ الفتح (١٤/ ٢٣١/ح ٣٧٢٨). وانظر تخريج الحديث في فضائل الصحابة لابن حنبل (٢/ ٧٥٠) حاشية المحقق.

(٥٦٨) الخبط: ورق العضاة من الطلح والسلم ونحوه، يخبط بالعصا فيتساقط. وكانت تعلفه الإبل.

(٥٦٩) المغازي والسير، ص ١٩٤، بسنده إلى سعد وقد أبهم أحد رواته. وقد أثبتنا هنا النص المطبوع، ويبدو أن السهيلي قد أخذ عن غير هذا النص، فليقارن.

حتى جهد المؤمنون، ومن معهم جوعا وعريا. . . . وهلك من المحاصرين من هلك كما قال ابن عباس[٥٧٠].

وعلى الرغم من هذه المقاطعة وما جرى للمسلمين وراءها من معاناة إلا أن الرسول ﷺ لم يتوقف عن الدعوة، فقد كان يخرج في المواسم، ويلتقي القادمين على مكة، ويعرض عليهم الإسلام، ويعرض ذلك على كل من يتصل به من قومه[٥٧١].

ولما أفسد الله الصحيفة، خرج رسول الله ﷺ ورهطه وصحابته وخالطوا الناس[٥٧٢].

لم يرد ذكر هذه المقاطعة بتفصيل في الصحاح، إذ وردت الإشارة إليها عند البخاري[٥٧٣] مختصرة جدا. فقد روى من حديث أبي هريرة من طريق إبراهيم بن سعد عن الزهري أن الرسول ﷺ قال حين أراد حنينا: «منزلنا غدا إن شاء الله بخيف[٥٧٤] بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر».

ويروي البخاري[٥٧٥] رواية أخرى من حديث أبي هريرة من طريق شعيب عن الزهري أنه قال حين أردا قدوم مكة: «منزلنا غدا إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر».

وروى من طريق ثالثة، من طريق الأوزاعي عن الزهري أن رسول الله ﷺ قال: «من الغد يوم النحر (وهو بمنى) نحن نازلون غدا بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر، «ـ يعني بذلك المحصب، وذلك أن قريشا وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم ولايبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ ـ[٥٧٦]. . .»

---

(٥٧٠) ذكر ذلك أبونعيم في دلائله (١/ ٢٧٩) بإسناد منقطع، والمنقطع ضعيف.

(٥٧١) ابن هشام (١/ ٤٣٤) ـ بدون إسناد. فهو ضعيف.

(٥٧٢) مغازي عروة، ص ١٦٧، سيرة الذهبي، ص ٢٢٤، وعزاه إلى موسى بن عقبة. والأسانيد ضعيفة.

(٥٧٣) الفتح (١٥/ ٣٨/ح ٣٨٨٢).

(٥٧٤) الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سمي مسجد الخيف في منى. وفيه أقوال أخرى. وأشهر الأخياف: خيف منى ومسجده مسجد الخيف. قالوا وهو خيف بني كنانة. . . انظر: محمد محمد حسن شراب: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، مادة خيف، ص ١١٠

(٥٧٥) الفتح (٧/ ٢٤٢/ح ١٥٨٩).

(٥٧٦) الفتح (٧/ ٢٤٢/ح ١٥٩٠). وما بين المعكوفين مدرج من الحديث من قول الزهري كما نبه إلى ذلك الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الحديث.

قال ابن حجر[٥٧٧] إنه لا تعارض بين الروايتين الأوليين، لأنه يحمل على أنه قال ذلك حين أراد دخول مكة في غزوة الفتح، وفي ذلك القدوم غزا حنينا.

أما الرواية الثالثة، فقال عنها: «فظاهر أنه قال ذلك في حجة الوداع، فيحمل قوله في رواية الأوزاعي حين أراد قدوم مكة، أي صادرا من منى إليها لطواف الوداع، ويحتمل التعدد».

وروى مسلم[٥٧٨] من حديث عبدالرزاق عن أسامة بن زيد أنه قال للرسول ﷺ في حجة الوداع عندما دنوا من مكة: «يارسول الله أين تنزل غدا؟»، فقال: «وهل ترك لنا عقيل منزلا؟»، وفي رواية أخرى: «وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟».

وهذه الرواية تدل على أنه لم ينزل في داره، ولا يتعارض مع روايات البخاري في أنه نزل بشعب أبي طالب.

ب ـ عظات وعبر من هذا المقطع:

إضافة إلى ما ذكرته عند الكلام عن العظات والعبر المستفادة من أساليب المشركين فإنني أضيف إلى ذلك هنا:

١ ـ لا يخلو زمان ولا مكان من أهل المروءة، وعلى الدعاة أن يسعوا دائما إلى الاهتمام بمن يتوسم فيهم هذه الخصلة للاستفادة منهم في أوقات الشدائد والمحن.

٢ ـ إن أعداء الله في كل زمان ومكان يلجؤون إلى استخدام سلاح محاربة الدعاة في أرزاقهم ليستكينوا ويرجعوا عما يدعون إليه. وهو أسلوب يتفق عليه المشركون والمنافقون. ولو كان المسلمون الأوائل موظفين أو مستخدمين في دولة تخالفهم فيما يدعون إليه، للجأت تلك الدولة إلى فصلهم من أعمالهم كوسيلة من وسائل الحرب التي تتخذها ضدهم.

---

(٥٧٧) الفتح (١٥/ ٣٩).
(٥٧٨) الصحيح (٢/ ٩٨٤/ح ١٣٥١).

ولكن الوسيلة المتاحة في ذلك الوقت في هذا الميدان كانت المقاطعة بتلك الكيفية التي وقفنا عليها. وعلى الدعاة أن يعوا هذه الحقيقة بأبعادها المختلفة.

٣ ـ إن ما أصاب الرسول ﷺ من ابتلاءات عزاء لكل مؤمن فيما يصيبه في هذه الحياة من بلاء ومصائب.

٤ ـ لا تكاد تخلو جاهلية من الجاهليات القديمة أو الحديثة من قيم يمكن الاستفادة منها، فقد ضحى بنو هاشم تضحيات كبيرة في سبيل قيمهم الجاهلية الخاصة بحماية القريب، واستفاد الإسلام من هذه التضحيات. وإذا وجدت قيم في مجتمعاتنا المعاصرة، مثل قوانين حقوق الإنسان أو اللجوء السياسي أو الحرية الفكرية، فلا ضير في الاستفادة منها كما استفاد المسلمون الأوائل من مؤازرة بني هاشم لهم في حصار الشعب.

المبحث التاسع والعشرون:

أ ـ وفاة أبي طالب:

مات أبو طالب سنة عشر من المبعث، بعد الخروج من الشعب بزمن يسير[٥٧٩]. وقيل توفي في رمضان، قبل خديجة (رضي الله عنها) بثلاثة أيام[٥٨٠]، وقبل الهجرة بثلاث سنين[٥٨١]. وقيل كان بين وفاته ووفاة خديجة شهر وخمسة أيام[٥٨٢].

وقد ثبت في الصحيح أنه مات كافرا على الرغم من حمايته للرسول ﷺ طوال حياته. فقد روى البخاري[٥٨٣] ومسلم[٥٨٤] عن ابن المسيب أن الرسول ﷺ دخل على أبي طالب عندما حضرته الوفاة، فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال له النبي ﷺ: «ياعم قل لا إله إلا

(٥٧٩) ابن سعد (٨/١٨) من رواية الواقدي. فهي ضعيفة جداً.
(٥٨٠) انظر سيرة الذهبي، ص ٢٣٧، عن الحاكم وأنساب الأشراف (١/٤٠٦).
(٥٨١) ابن سعد (٨/١٨) من طريق الواقدي، سيرة ابن هشام (٢/٦٦) بدون إسناد، ولم يذكر الشهر، وقال قبل الهجرة بثلاث سنين. والأسانيد ضعيفة.
(٥٨٢) ابن سعد (١/٢١١) من طريق الواقدي. وهو متروك.
(٥٨٣) الفتح (١٥/٤١/ح ٣٨٨٤).
(٥٨٤) (١/٥٤/ح/٢٤).

الله كلمة أشهد لك بها عند الله» فقال أبوجهل وعبدالله بن أبي أمية: «يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبدالمطلب؟» فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبوطالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك» فأنزل الله عز وجل ﴿ما كان للنبي والـذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾[٥٨٥] ـ الآيَتَيْنِ، ونزلت: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾[٥٨٦].

وروى مسلم[٥٨٧] أيضا بسنده إلى أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه قال، قال رسول الله ﷺ لعمه: «قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة» قال: «لو لا أن تعيرني قريش، يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك». فأنزل الله: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

أما الروايات التي تدل على أن أبا طالب قد نطق بكلمة الإسلام عند موته فلم يصح منها شيء[٥٨٨]. وما في الصحيح صريح على وفاته كافرا، فلا يعارض.

ب ـ الحكمة من وفاة أبي طالب قبل قيام الدولة الإسلامية:

١ ـ سبق القول إن موت أبي طالب كافرا كان لحكمة يعلمها الله تعالى[٥٨٩].

٢ ـ لقد شاء الله (عز وجل) أن لا يسلم أبوطالب، ويموت **قبل** الهجرة

---

(٥٨٥) التوبة: ١١٣.

(٥٨٦) القصص: ٥٦. وانظر تفسير هذه الآية في زاد المسير لابن الجوزي (٦/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) وتخريج المحقق للأحاديث الواردة في هذا الباب، في الحاشية.

(٥٨٧) الصحيح (١/ ٥٥/ح/ ٢٤) وقد ذكر ابن إسحاق معنى هذا الحديث في السير والمغازي ص ٢٣٧، ولم يسنده.

(٥٨٨) من ذلك رواية ابن إسحاق في أن العباس رأى أبا طالب يحرك شفتيه فأصغى إليه وسمعه يقول ما أمره به الرسول ﷺ. ففي سند ابن إسحاق من لم يسم ـ انظر السير والمغازي، ص ٢٣٨. وعن غير هذه الرواية انظر رد ابن حجر في الفتح (١٥/ ٤١) وفي الإصابة (٤/ ١١٦ ـ ١١٩) على من قال من الرافضة بإسلامه. ورد الذهبي في السيرة، ص ص ٢٣٢ ـ ٢٣٦.

(٥٨٩) انظر: عنوان «موقف المشركين من الدعوة» ـ الأسلوب الأول.

بنحو ثلاث سنوات، حتى لا يتوهم أحد أن له مدخلا في دعوة الرسول ﷺ، أو يظن أن المسألة قبيلة أو اسرة وزعامة ومنصب[٥٩٠]. وربما هناك حكم يعلمها الله ولم نتوصل إليها.

فائـــدة:

يروى أن أبا لهب حمى الرسول ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب ونال من أبي الغيطلة عندما سب رسول الله ﷺ، واحتالت قريش عليه ليرفع حمايته عن الرسول ﷺ فأرسلت عقبة بن أبي معيط وأبا جهل إلى أبي لهب ليسأل الرسول ﷺ عن عبدالمطلب، فقال له الرسول ﷺ: «مع قومه»، فخرج إليهما أبولهب وقال: «قد سألته، فقال: مع قومه، فقالا: يزعم أنه في النار فقال: يامحمد! أيدخل عبدالمطلب النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «ومن مات على ما مات عليه عبدالمطلب دخل النار، فقال أبولهب: والله لا برحت له إلا عدوا أبدا، وأنت تزعم أن عبدالمطلب في النار»، واشتد عند ذلك أبولهب وسائر قريش عليه[٥٩١].

انظر كيف كان عليه السلام صريحا، لايجامل ولا يميِّع قضية الإسلام مهما كانت النتائج.

المبحـــث الثلاثـــون : وفاة خديجـــة:

تباينت الروايات حول تاريخ وفاتها، فقيل: بعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو شهر وخمسة أيام أو بثلاثة أيام، وقيل غير ذلك. وقيل إن ذلك كان في رمضان من السنة العاشرة من المبعث وقبل الهجرة بنحو ثلاث سنين، وهو المشهور[٥٩٢].

---

(٥٩٠) انظر البوطي: فقه السيرة، مرجع سبق ذكره، ص ٥١.

(٥٩١) ذكره ابن كثير في البداية (٣/١٤٧ - ١٤٨) وعزاه إلى ابن الجوزي، ولم يسقه بكامل الإسناد حتى يتم الحكم على إسناده، وكل ما يمكن قوله الآن هو أنه لو كان صحيحا لقطع طريق الخلاف الدائر بين الفقهاء حول حكم أهل الفترة.

(٥٩٢) انظر المبحث السابق (وفاة أبي طالب) وانظر الدكتور قلعه جي: حاشية دلائل النبوة للبيهقي (٢/٣٥٣) حيث ذكر معظم الأقوال في هذا الأمر.

وعندما مات أبوطالب وخديجة في عام واحد وبينهما مدة يسيرة، تتابعت المصائب. فقد كان أبوطالب درعا حصينا للنبي ﷺ، وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام، يسكن إليها عند الشدائد[٥٩٣]. وقد وردت آثار كثيرة تدل على فضلها ومكانتها عند الله ورسوله[٥٩٤].

ومما يروى في ذلك أنه لما هلك أبوطالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياته، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابا[٥٩٥]، ودخل على بيته وعلى رأسه التراب، فغسلته عنه إحدى بناته وهي تبكي، والرسول ﷺ يقول لها: «لا تبكي يابنية، فإن الله مانع أباك»، ويقول بين ذلك: «ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبوطالب[٥٩٦]». وقد سبق القول إلى أنهم تجرؤوا على وضع سلا الجزور بين كتفيه وهو ساجد[٥٩٧].

ولتوالي مثل هذه الآلام في هذا العام، فقد سماه بعض المؤرخين عام الحزن[٥٩٨]، ولم يرو أن النبي ﷺ سماه بهذا الاسم[٥٩٩].

ونميل إلى أن سبب حزنه هو لشدة ما كابد في هذا العام من الشدائد في سبيل الدعوة، وتضييق قريش الخناق عليه في محاولة منهم لإغلاق أبواب الدعوة في وجهه.

المبحث الحادي والثلاثون: زواجه من سودة (رضي الله عنها):

وعلى الرغم من ظروف المحن والشدائد التي كان يعيشها الرسول ﷺ في

---

(٥٩٣) السير والمغازي لابن إسحاق، ص ٢٤٣، بدون إسناد، ابن هشام (٢/٦٦) بدون إسناد ولذا فهو ضعيف.

(٥٩٤) سبق إيراد بعض هذه الآثار عند الكلام عن زواجه ﷺ من خديجة (رضي الله عنها). وللمزيد انظر: السير والمغازي ص٢٤٣ - ٢٤٤، فضائل الصحابة (٢/٨٥٠ - ٨٥٦) فقد استوعب الموضوع جيدا، وزاد ذلك قيمة تخريجات المحقق.

(٥٩٥) ذكر ذلك ابن إسحاق بدون إسناد - ابن هشام (٢/٦٦) فهو ضعيف.

(٥٩٦) ابن هشام (٢/٦٧)، بإسناد حسن ولكنه مرسل.

(٥٩٧) انظر الأسلوب الثاني عشر - الاعتداء الجسدي.

(٥٩٨) تابعهم في هذا الدكتور البوطي في «فقه السيرة»، والشيخ المباركفوري في الرحيق، ص١٣٣. وقد اعترض الشيخ الألباني في «دفاع»، ص١٨ على هذه التسمية، التي جاءت في حديث رواه القسطلاني في المواهب، ومن رواته صاعد وهو غير ثقة.

(٥٩٩) انظر: الألباني: دفاع عن الحديث النبوي والسيرة ص٨.

هذه الفترة إلا أنه لم يألو جهدا في مواساة أصحابه في مصائبهم.

ففي شوال من السنة العاشرة لمبعثه تزوج سودة بنت زمعة. لقد كانت سودة من أوائل المسلمين، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة مع زوجها السكران بن عمرو[٦٠٠]، فتوفي عنها، وتقديرا لها تزوجها الرسول ﷺ[٦٠١]. وسيأتي ذكر حكمة هذا الزواج عند الكلام عن أمهات المؤمنين.

المبحث الثاني والثلاثون: أ ـ هجرته إلى الطائف:

لما هلك أبوطالب ونالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه الإسلام[٦٠٢].

وروى ابن إسحاق[٦٠٣] أن الرسول ﷺ عندما ذهب إلى الطائف التقى سادة ثقيف يومذاك، أبناء عمرو بن عمير الثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب، وعرض عليهم الإسلام، فلم يقبلوه منه، وسخروا منه، وعندما يئس من خير في ثقيف طلب منهم أن يكتموا عنه ما دار بينهم حتى لا يثيروا عليه الناس. ولكنهم لم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فأخذوا في سبه والصياح به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف،

---

(٦٠٠) انظر ترجمته في الإصابة (٢/ ٥٩/ ترجمة رقم ٣٣٣٧).

(٦٠١) انظر ذلك في ترجمتها في الإصابة (٤/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩) حيث ذكر ابن حجر الأحاديث والآثار الواردة في ذلك والطبري في تاريخه (٣/ ١٦١ ـ ١٦٢)، والإستيعاب (٤/ ٣٢٣)، والسير والمغازي لابن إسحاق، ص ٢٥٤، والبداية والنهاية (٥/ ٣٣١).

(٦٠٢) انظر: ابن هشام (٢/ ٦٩)، بدون إسناد، أحمد: الفتح الرباني (٢٠/ ٢٤٣) بإسناد جيد.

(٦٠٣) ابن هشام (٢/ ٧٠ ـ ٧٢)، وإسناده حسن مرسل، ولم يسند الدعاء وما بعده، ورواه ابن سعد (١/ ٢١١ ـ ٢١٢) مختصرا، وفي إسناده الواقدي، وفيه بعض الاختلافات، مثل ذكره أنه كان معه زيد بن حارثه، ولم يذكر الدعاء. ورواه البيهقي في دلائله (٢/ ٤١٤ ـ ٤١٧) من طريق موسى بن عقبة عن الزهري، وهو مرسل عن الزهري، ولم يذكر الدعاء، ورواه الإمام أحمد (٤/ ٣٣٥) وفيه الدعاء. وأورد السيوطي الدعاء في الجامع الصغير وعزاه للطبراني ورمز له بالحسن. وقال الألباني في حاشية فقه السيرة للغزالي، ص ١٣٢، وفي «دفاع»، ص ١٩: «وروى هذه القصة الطبراني في الكبير من حديث عبدالله بن جعفر مختصرا وفيه الدعاء المذكور بنحوه، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٥)، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة. وبقية رجاله ثقات، فالحديث ضعيف» لعنعنة ابن إسحاق.

وجلس في ظل شجرة عنب، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء الطائف.

فلما اطمأن في جلوسه، قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وعندما رآه ابنا ربيعة على هذه الحال، تحركت فيهما عاطفة الرحم، فأمرا غلاما نصرانيا يدعى عداسا[٦٠٤] أن يقدم له عنبا. وتعجب عداس من قول الرسول ﷺ: «بسم الله» قبل أن يأكل. وزال عجبه عندما أعلمه الرسول ﷺ بأنه نبي، فأخذ يقبل رأس النبي ﷺ ويديه وقدميه. وحاول ابنا ربيعة أن يصداه عن النبي ﷺ قائلين له: «لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه».

وفي رواية موسى بن عقبة[٦٠٥] أن سفهاء الطائف قعدوا للرسول ﷺ صفين على طريقه، فلما مر بين صفيهم جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، وكانوا أعدوها، حتى أدموا رجليه. وكان ذلك من أشد ما لقي الرسول ﷺ في جهاده.

وعندما لاقى الرسول ﷺ ما لاقى من الابتلاء والشدة في الطائف عاد إلى مكة مهموما. وعندما بلغ قرن الثعالب ـ قرن المنازل ـ بعث الله إليه جبريل، ومعه ملك الجبال، وجعله رهن إشارته، إذا أراد أن يطبق الأخشبين على أهل الطائف، وكان ذلك دعما معنويا كبيرا له.

---

(٦٠٤) انظر: ترجمته في الإصابة (٢/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧/ برقم ٥٤٦٨).

(٦٠٥) نقلها عنه البيهقي في الدلائل (٢/ ٤١٤)، وهو مرسل لأنه موقوف على الزهري، وفي إسناده محمد بن فليح، وهو صدوق يهم كما ذكر ابن حجر: تقريب التهذيب، ص٥٠٢.

وروى البخاري[٦٠٦] ومسلم[٦٠٧] في هذا أن عائشة (رضي الله عنها) سألت رسول الله ﷺ: «هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟» قال: «لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبديالليل بن عبدكلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت ـ وأنا مهموم ـ على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا بجبريل، فناداني، فقال: «إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: «يامحمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[٦٠٨]»، فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا».

وجاءه دعم معنوي آخر قبل أن يصل مكة. ألا وهو إيمان بعض الجن برسالته. ففي وادي نخلة، قرب مكة، أقام الرسول ﷺ أياما. وخلال هذه الإقامة بعث الله إليه نفرا من الجن، استمعوا إلى القرآن، فآمنوا به. وقد ذكر الله ذلك في سورتي الأحقاف والجن: ﴿وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا: أنصتوا فلما قُضِيَ ولَّوْا إلى قومهم منذرين. قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم[٦٠٩]﴾.

﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا[٦١٠]...﴾.

---

(٦٠٦) الفتح (١٣/ ٣٧ ـ ٣٨/ح ٣٢٣١).

(٦٠٧) مسلم (٣/ ١٤٢٠/ح ١٧٩٥). وهذا الخبر شاهد على أن رواية أهل المغازي والسير في شأن هجرته إلى الطائف لها أصل.

(٦٠٨) هما جبلا مكة: أبو قُبيس والذي يقابله، وهو جبل قُعيقعان، وقيل أبو قبيس والأحمر، وجبلا منى ـ انظر حاشية البداية (٣/ ١٥٠).

(٦٠٩) الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١.

(٦١٠) الجن: ١ ـ ١٥.

وقد ثبت خبر قدوم الجن على الرسول ﷺ في الصحيح[٦١١] أيضا. وذكر ابن حجر[٦١٢] أدلة تؤيد ما ذهب إليه ابن إسحاق[٦١٣] وابن سعد[٦١٤] في أن ذلك كان عندما رجع الرسول ﷺ من الطائف.

لقد شد الله أزر نبيه بهاتين الحادثتين، فقام نشطا في الدعوة إلى الله غير آبه بما يواجهه من أساليب الخصوم. فعندما عزم على دخول مكة في عودته من الطائف قال له زيد: «كيف تدخل عليهم يارسول الله وهم أخرجوك؟» فقال: «يازيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه».

وأرسل في طلب جوار الأخنس بن شريق، فجبن، وتعلل بأنه حليف، والحليف لا يجير كما يقول. وطلب جوار سهيل بن عمرو فرفض بحجة أن بني عمرو لا تجير على بني كعب. وأخيرا أرسل في طلب جوار المطعم ابن عدي، فاستجاب لذلك، وتهيأ هو وبنوه لحماية الرسول ﷺ[٦١٥].

وقال حسان بن ثابت في رثائه له يشيد بهذا الموقف النبيل:

---

(٦١١) رواها البخاري/ الفتح (١٨/ ٣١٤/ح ٤٩٢١)، ومسلم (١/ ٣٣١/ح ٤٤٩) وقد جمع ابن كثير الروايات الواردة في أسباب نزول هذه الآيات، فانظر تفسيره (٧/ ٢٧٢ - ٢٨٤)، وانظر دلائل البيهقي (٢/ ٢٢٥ - ٢٢٣) في ذكر إسلام الجن وما ظهر في ذلك من آيات المصطفى ﷺ ودلائل أبي نعيم (٢/ ٣٦٣ - ٣٦٦).

(٦١٢) الفتح (١٨/ ٣١٥ وما بعدها) وله مناقشة طويلة للأخبار الواردة في قصة لقاء الجن بالرسول ﷺ.

(٦١٣) ابن هشام (٢/ ٧٣) وإسناده مرسل حسن من حديث محمد بن كعب القرظي.

(٦١٤) الطبقات (١/ ٢١١ - ٢١٢) من رواية الواقدي وعنده أن ذلك كان في ليال من شوال سنة عشر من حين نبيء رسول الله ﷺ.

(٦١٥) انظر: ابن هشام (٢/ ٢٤) من روايته، بدون إسناد، وقد أخرج القصة بطولها، وابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٥١)، وابن سعد(١/ ٢١٢) من رواية الواقدي، ولم يتعرض لمحاولات الرسول ﷺ الدخول في جوار الأخنس وسهيل، وعنده أن الرجل الذي أرسله إلى سهيل كان من خزاعة، وعند ابن كثير في البداية (٣/ ١٥١) أن الرجل الذي أرسله الى هؤلاء الثلاثة هو أريقط، وعزا القصة إلى الأموي في مغازيه. قال الألباني في دفاع، ص ١٩: «وقد أخرج القصة باختصار - وفيها الدعاء - الطبراني بإسناده عن ابن إسحاق بسنده عن عبدالله بن جعفر، وابن إسحاق مدلس، وقد عنعنه، ولذلك ضعفت الحديث في (تخريج فقه السيرة للغزالي) ص ١٣٢... أما ابن سعد، فلم يذكر من القصة كلها إلا أحرفا يسيرة. ومع ذلك فهو عنده من قول الواقدي بغير إسناد...».

«أجرت رسول الله منهم فأصبحوا * عبيدك ما لبى مهل وأحرما
فلو سئلت عنه معد بأسرها * وقحطان أو باقي بقية جرهما
لقالوا هو الموفي بخفرة جاره * وذمَّتِهِ يوما إذا ما تذمما[٦١٦]»

وحفظ رسول الله ﷺ للمطعم بن عدي هذا الصنيع، ومن قبله صنيعه في نقض صحيفة المقاطعة، فقال يوم أسرى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له[٦١٧]».

لم يقيد هذا الجوار حركة الرسول ﷺ وأصحابه في الدعوة إلى الإسلام. فعندما هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة، خرج أبوبكر (رضي الله عنه) فيمن خرج مهاجرا إليها، حتى إذا بلغ برك الغماد، لقيه ابن الدغنة ـ سيد القارة ـ فرده إلى مكة، وأدخله في جواره، قائلا له: «مثلك ياأبابكر لا يخرج ولا يخرج...» واشترطت عليه قريش أن يأمر أبابكر فيعبد الله في داخل داره، ففعل أبوبكر ما طلب منه. وبنى مسجدا في فناء داره ليصلي فيه. فكان إذا صلى وقرأ القرآن وقف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون منه، لأنه كان يبكي، وهو يقرأ القرآن. فأفزع ذلك قريشاً خشية إيمان الناس بالقرآن، فطلبوا من ابن الدغنة أن يطلب من أبي بكر عبادة ربه في داخل

---

(٦١٦) انظر: ابن هشام (٢/٢٣ ـ ٢٤) من رواية ابن إسحاق معلقا، والحفرة العهد. وتذمم: أي طلب الذمة والعهد والجوار. قاله ابن حجر في الفتح (١٥/ ١٩٤/ ٠) وذكر الفاكهي بإسناد حسن أن حسان بن ثابت رثى المطعم بن عدي لما مات مجازاة له على ما صنع للنبي ﷺ.

(٦١٧) رواه البخاري/ الفتح (١٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧/ح ٣١٣٩). قال ابن حجر في شرح هذا الحديث (١٥/ ١٩٤/ ...): «والمراد من قوله: ليتركنهم له» ـ أي بغير فداء ـ وبين ابن شاهين من وجه آخر السبب في ذلك، وأن المراد باليد المذكورة ما وقع منه حين رجع النبي ﷺ من الطائف ودخل في جوار المطعم بن عدي وقد ذكر ابن إسحاق القصة في ذلك مبسوطة. وكذلك أوردها الفاكهي بإسناد حسن مرسل وفيه أن المطعم أمر أربعة من أولاده فليسوا السلاح وقام كل منهم عند ركن من أركان الكعبة، فبلغ ذلك قريشا، فقالوا له: أنت الرجل الذي لا نخفر ذمتك. وقيل باليد المذكورة إنه كان من أشد من قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش ضد بني هاشم ومن معهم من المسلمين». ولم يفصح ابن حجر عن الرواية التي وردت فيها كلمة «اليد» والغالب أنها عند الواقدي في المغازي (١/ ١١٠) فقد روى الواقدي هنا بإسناده إلى جبير بن مطعم، وقال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: لو كان المطعم بن عدي حيا لوهبت له هؤلاء النتنى، «وكانت لمطعم بن عدي عند النبي ﷺ يد إجارة حين رجع من الطائف» ورجاله ثقات ما عدا الواقدي، فهو متروك. وأخرجه أبو داود (٣/ ٦١/ح ٢٦٨٩) وفي لفظه: «لأطلقتهم له»، بدلا من «لتركتهم له». والحديث بأسانيده الصحيحة يثبت رواية الجوار المشار إليها، فتصح من هذا الوجه. ويدل الحديث على أن لهجرة الطائف أصلا.

داره من حيث لا يسمعه أحد، وليس في فناء الدار حيث يسمعه الناس. وجاءه ابن الدغنة وقال له: «فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترد ذمتي...» فرد عليه أبوبكر قائلا: «فإني أرد عليك جوارك، وأرضى بجوار الله ورسوله[٦١٨]».

وهذا الموقف يشبه موقف عمر بن الخطاب عندما رد جوار خاله العاصي، رغبة منه أن يكون في جوار الله ورسوله كسائر المستضعفين ممن يترفع الكفار عن إجارتهم[٦١٩].

ب ـ عظات وعبر:

١ ـ إن اختيار الرسول ﷺ الثلاثة الذين كانوا سادة ثقيف يومذاك لدليل على أهمية دعوة الزعماء الذين ينساق وراءهم الناس، وعندما رفضوا دعوته علم أن غيرهم سيرفضها، فلذا لم يستغرق مقامه بالطائف وقتا طويلا.

٢ ـ إن صبر الرسول ﷺ على معارضيه قد بلغ حدا عظيما. فعلى الرغم مما واجهه به أهل الطائف من سوء في المعاملة إلا أنه لم يطلب من الله تعالى عقابهم، بل دعا الله (عز وجل) أن يهديهم، فاستجاب الله لدعائه، وذلك بدليل قدوم ثقيف عليه مسلمة بعد حصار الطائف ورجوعه إلى المدينة.

٣ ـ إن لقاء الجن بالرسول ﷺ بنخلة، دليل على وجود الجن، وأنهم مكلفون، وأن منهم من آمن بالله ورسوله محمد ﷺ ومنهم من كفر ولم يؤمن. وهذا مما هو معلوم من الدين بالضرورة؛ لحكاية القرآن ذلك.

٤ ـ لقد كان إيمان الجن برسول الله ﷺ بعد أن ناله ما ناله على أيدي ثقيف تسلية من الله له أنسته آلامه، وأكدت له أن الله تعالى لن

---

(٦١٨) انظر الخبر بتمامه من رواية: البخاري/ الفتح (١٥/ ٨٤/ح ٣٩٠٥)، وعبدالرزاق في المصنف (٥/ ٣٨٤ ـ ٣٨٩)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٣) وابن إسحاق ـ بإسناد حسن ـ ابن هشام (٢/ ٢٤ ـ ١٥)، وابن إسحاق السير والمغازي، ص ٢٣٥.

(٦١٩) انظر الكلام في المبحث الخاص بإسلام عمر (رضي الله عنه).

يتركه. فإن تخلى عنه أهل الأرض إلى حين ففي العوالم الأخرى من الجن والملائكة من يشد أزره ويؤمن به، وأن الله الذي حول الجن - وهم في أصلهم من شرار خلق الله، ومن نسل إبليس اللعين - إلى مؤمنين ودعاة إلى هذا الدين الجديد، لقادر على تحويل عتاة كفار قريش وثقيف إلى مؤمنين ودعاة بعد حين. وقد كان ذلك كذلك(٦٢٠)

٥ - إن من مآثر الجاهلية ذلك العرف الذي كانوا يحترمونه، ألا وهو الجوار، وهو ما يعد من مآثر كثير من الدول الحديثة، ويعرف بـ«حق اللجوء السياسي»، بمصطلح «الدبلوماسية» الحديثة. وهو ما يمكن أن يستفيد منه الدعاة لتبليغ دعوتهم إلى الناس.

٦ - إن إسلام عداس دليل على أن الرسول ﷺ لم يرجع من الطائف من دون نتائج إيجابية، بل رجع بما هو خير من حمر النعم، فقد هدى الله عداسا على يديه(٦٢١)، والرسول ﷺ يقول: «لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من حمر النعم(٦٢٢)».

٧ - إن في قصة هجرته إلى الطائف وما لاقاه من أذى من سفهاء ثقيف لعظة وعبرة للدعاة الذين يتأسون بسيرة الرسول ﷺ، فإذا كان الرسول ﷺ لقي ما لقي من المشاق في سبيل إقامة الدين، فمن باب أولى أن يلقى الدعاة أشد من ذلك، فعليهم أن يتهيؤوا لذلك، لأنه طريق الأنبياء والصالحين، ولأن حكمة الله اقتضت أن لا ينتصر هذا الدين بدون عمل وجهد البشر.

---

(٦٢٠) انظر الدكتور محمد رواس قلعة جي: قراءة جديدة للسيرة النبوية، ص ٩٩.

(٦٢١) انظر: الإصابة (٢/ ٤٦٦ - ٤٦٧) وقد ساق ابن حجر هنا أدلة على أنه آمن بالرسول ﷺ وهي: رواية ابن إسحاق المذكورة في أول هذا المبحث، وإسنادها حسن مرسل كما قلنا، ورواية سليمان التيمي في السيرة، وهي بدون إسناد، وروايات أخرى فيها مقال: إما من ناحية السند أو المتن. وروى البيهقي في الدلائل (٢/ ٤١٥ - ٤١٧) قصة إيمان عداس بالنبي ﷺ من مرسل الزهري، وفيه محمد بن فليح وهو صدوق يهم. وهذه الروايات بمجموعها تقوى وتدل على أن إسلام عداس أصلا.

(٦٢٢) حديث صحيح، يأتي ذكره في أبحاث أحداث غزوة خيبر.

المبحث الثالث والثلاثون:

أ ـ الإسراء[٦٢٣] والمعراج:[٦٢٤]

تأتي هذه المعجزة تكريما وتثبيتا للرسول ﷺ بعد وفاة عمه الذي كان يحميه وزوجته التى كانت تواسيه، وبعدما أصابه في الطائف ومكة ما أصابه من الأذى. فهي بعد العام العاشر من البعثة كما تدل على ذلك مجريات الأحداث، ولكن اختلف في تحديد زمانها بعد العام العاشر[٦٢٥].

فقد ذكر موسى بن عقبة عن الزهري[٦٢٦] وعروة بن الزبير[٦٢٧]، أن الإسراء إلى بيت المقدس كان قبل خروج النبي ﷺ إلى المدينة بسنة. ومما لا جدال فيه أن الإسراء والمعراج ثابت بالقرآن والسنة.

فقد أشار القرآن الكريم إلى الإسراء والمعراج في سورتي الإسراء والنجم. ففي السورة الأولى ذكر قصة الإسراء وحكمته، في قوله: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير[٦٢٨]﴾.

وذكر في السورة الثانية قصة المعراج وثمرته، في قوله: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى[٦٢٩]﴾.

---

(٦٢٣) يقصد به الرحلة المعجزة التي بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس.

(٦٢٤) يقصد به الرحلة المعجزة التي بدأت من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى.

(٦٢٥) انظر: الأقوال المختلفة في ذلك عند ابن كثير: البداية (٣/ ١١٩)، وابن حجر: الفتح (١٥/ ٤٩).

(٦٢٦) و (٦٢٧) مغازي عروة، ص ١٢٠، وأسانيده مرسلة. وقد اخترنا رواية الزهري من طريق موسى بن عقبة، ورواية عروة لقول ابن معين: «كتاب موسى بن عقبة عن الزهري من أصح هذه الكتب» ابن حجر: تهذيب (١٠/ ٣٦٢) ط ١، الهند ١٣٢٥ هـ/ ١٣٢٧هـ، وقول الإمام أحمد: «عليكم بمغازي موسى بن عقبة فإنه ثقة» الذهبي: تذكرة الحفاظ (١/ ١٤٨) ط ٣، الهند ١٩٥٥م، وقول الإمام مالك: «عليكم بمغازي موسى بن عقبة فإنه ثقة» وقوله: «عليكم بمغازي الرجل الصالح موسى بن عقبة فإنها أصح المغازي». النووي: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١١٨)، ويكفيه أنه من رجال البخاري ومسلم. وانظر حاشية الدكتور الأعظمي على مغازي عروة.

(٦٢٨) الإسراء: ١.

(٦٢٩) النجم: ١٣ ـ ١٨.

إن من أكثر أحداث السيرة بمكة مرويات هي هذه الحادثة، فمجموع رواياتها عند البخاري عشرون رواية، عن ستة من الصحابة (رضي الله عنهم)[٦٣٠]. وعند مسلم نحوا من ثماني عشرة رواية، عن سبعة من الصحابة (رضي الله عنهم)[٦٣١].

ولا توجد رواية واحدة تجمع ما ورد من أحداث خلال هذه الرحلة، وإنما هناك روايات أشارت كل واحدة منها إلى بعض الأحداث.

ومن خلال مجموع الروايات التى وردت عند البخاري ومسلم وغيرهما يمكن تلخيص مضمون تلك الروايات.

١ ـ شـق الصـدر:

بعد صلاة العشاء من تلك الليلة المباركة نزل جبريل (عليه السلام) وفرج عن سقف بيت الرسول ﷺ بمكة، وشق صدره ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغه في صدره، ثم أطبقه ثم أخذ بيده فعرج به[٦٣٢].

٢ ـ الإسـراء:

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته، فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم

---

(٦٣٠) انظر عرجون: محمد رسول الله ﷺ (٢/٣٥٧).

(٦٣١) المرجع نفسه، (٢/٣٥٩). قال الشامي في السبل (٣/١١٣): «اعلم رحمني الله وإياك أن في حديث كل من الصحابة السابق ذكرهم في الباب السابع ما ليس في الآخر، فاستخرت الله تعالى وأدخلت حديث بعضهم في بعض ورتبت القصة على نسق واحد لتكون أحلى في الآذان الواعيات، وليعم النفع بها في جميع الحالات..» فانظر سياقه للقصة بهذه الكيفية التي ذكرها في الباب الثامن (٣/١١٣ ـ ١٣٥) والتنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج وشرح مشكلها في الباب التاسع (٣/١٣٦ ـ ٢٤٢) وعددها (١١١) تنبيهاً. وتناول في الباب العاشر صلاة جبريل (عليه السلام) بالنبي ﷺ ليلة الإسراء وكيف فرضت الصلاة.

(٦٣٢) انظر: البخاري/ الفتح (١٧/٢٨٤/ح ٤٧٠٩، ٤٧١٠) و(١٥ ـ ٤٣ ـ ٧٠/ح ٣٨٨٦، ٣٨٨٨) و(١٨/٢٤٢/ح ٤٨٥٦، ٤٨٥٨)، ومسلم (١/١٤٨/ح ١٦٣) و(١/١٥١/ح ١٦٤)، ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق (١/٣٨٦ ـ ٣٨٧)، وقال الذهبي في السيرة «هذا حديث حسن غريب».

دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فأتاني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة. قال: ثم عرج بي. . .[٦٣٣]» وفي رواية أخرى انه صلى بالأنبياء قبل المعراج، ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء (عليهم السلام) فأمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة[٦٣٤].

٣ ـ المعـراج:

ثم عرج به إلى السماوات، وفي كل سماء يستفتح جبريل، ثم يسأل، ومن معك؟ فيقول: «محمد» فيرحب به. فرأى في السماء الدنيا آدم، وفي الثانية عيسى ويحيى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم، مستندا إلى البيت المعمور، ثم ذهب إلى سدرة المنتهى وفرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة، وفي طريق عودته من معراجه، انتهى إلى موسى، فسأله موسى: «ما فرض ربك على أمتك؟» فأخبره، فطلب منه موسى أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف، ففعل وخفف الله عنه خمس صلوات. ثم ما زال صاعدا ونازلا بين ربه وموسى، وفي كل مرة يطلب منه موسى أن يرجع لربه ليخفف عنه، حتى خففها الله، فأصبحت خمس صلوات. وعندما طلب منه موسى الرجوع بعد هذا، قال: «قد سألت ربي حتى استحيت» فنادى مناد: «قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي»[٦٣٥].

وفي رواية أنس عن أبي ذر، قال بعد ذكر السماوات: «ثم عرج بي حتى

---

(٦٣٣) رواه أحمد: الفتح الرباني (٢٠/ ٢٥١ ـ ٢٥٢) وإسناده صحيح، والبخاري/ الفتح (٢١/ ١٧٦/ح ٥٥٧٦)، ومسلم (١/ ١٤٥/ح ١٦٢)، وانظر: البخاري/ الفتح (٢١/ ١٧٦/ح ٥٦١٠).

(٦٣٤) رواه البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٨٨)، وقال الدكتور قلعة جي في الحاشية (٢/ ٣٨٧): «تضافرت الروايات على أنه ﷺ صلى بالأنبياء قبل العروج، قال ابن حجر: «وهو الأظهر»، وقال: «أثبت الصلاة في بيت المقدس الجمهور من الصحابة». وانظر أحاديث هذا الباب عند الإمام أحمد: الفتح الرباني (٢٠/ ٢٤٤ ـ ٢٦٤)، أبواب قصة الإسراء والمعراج برسول الله ﷺ.

(٦٣٥) البخاري/ الفتح (١٣/ ٢٤/ح ٣٢٠٧)، مسلم (١/ ١٤٩/ح ١٦٣)، أحمد: الفتح الرباني (٢٠/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨) من حديث أنس عن مالك بن صعصعة، وإسناده صحيح، والنسائي (١/ ٢١٧)

ظهرت في مستوى أسمع فيه صريف الأقلام، ثم ذكر فرض الصلاة، وقال: «ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ماهي؟ ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك[٦٣٦]».

وتناول النووي[٦٣٧] قضية رؤية محمد ﷺ الله (عز وجل) في المعراج واختلاف العلماء في ذلك، ثم رجح أن الرسول ﷺ رأى ربه، استنادا إلى حديث ابن عباس في هذا، الذي قال فيه: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين». قلت: وهذا الشاهد يؤيد من يقول بعدم الرؤية.

٣ ـ العـودة:

يتبين من الروايات أن طريق العودة كان من السماوات العلا الى بيت المقدس ثم إلى مكة. فقد روى الترمذي عن شداد بن أوس: «. . . . ثم انصرف بي فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيرا لهم، قد جمعه فلان، فسلمت عليهم فقال بعضهم: هذا صوت محمد، ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة»[٦٣٨].

كانت وسيلة الإسراء البراق، بينما في المعراج استعملت الروايات الفعل المبني للمجهول «عـرج»، فلم تبين الوسيلة، وفي بعضها: «نصب لي المعراج»، قال ابن كثير[٦٣٩]: «وهو السلم، فصعد فيه إلى السماء، ولم يكن الصعود على البراق كما توهمه البعض».

موقف قريش من الإسراء والمعراج:

خشي الرسـول ﷺ أن يكذبه قومه، فأصبح في ذلك اليوم مهموما.

---

(٦٣٦) البخاري/ الفتح (٣/ ٩/ح ٣٤٩)، مسلم (١/ ١٤٩/ح ١٦٣).

(٦٣٧) شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٤ ـ ١٥/ك. الإيمان/ب. معنى قول الله (عز وجل) ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾. وانظر ابن كثير: التفسير (٧/ ٤٢٢ ـ ٤٣٠) قصة الرؤية وممن تناول هذه القضية أيضا الشامي: السبل (٣/ ٨٢ ـ ٩٣) وناقش الأدلة المختلفة ولعله من الجماعة التي ذهبت إلى الوقف في هذه المسألة ولم يجزموا بنفي أو إثبات لتعارض الأدلة. . .

(٦٣٨) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٧) من رواية الترمذي بإسناده إلى شداد بن أوس، وقال البيهقي: «هذا إسناد صحيح».

(٦٣٩) البداية والنهاية (٣/ ١٢٢).

فجلس إليه أبوجهل وهو في هذه الحال، وسأله مستهزئا، «هل كان من شيء؟» فأخبره النبي ﷺ بالإسراء. فلم يشأ أن يكذبه ساعتئذ خشية أن يكتم ذلك أمام الناس، واكتفى بقوله: «أرايت إن دعوت قومك إليك، أتحدثهم بما حدثتني؟»، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فأسرع إلى قومه، فدعاهم، فجاؤوا إليه، وطلب منه أبوجهل أن يحدثهم فحدثهم. فتعجبوا من حديثه، وطلب منه من رأى المسجد الأقصى أن يصفه لهم. فرفعه الله له، فأخذ يصفه لهم، وهو ينظر إليه، فقالوا: «أما النعت فقد والله أصاب[٦٤٠]».

وفي رواية أنهم استنكروا أن يذهب الرسول ﷺ إلى الشام ثم يعود في ليلة واحدة، وهم يذهبون ويعودون في مدة شهرين، ولذا ارتد ناس ممن كان قد أسلم[٦٤١].

أما أبوبكر فعندما أخبر بالخبر، صدقه دون تردد، قائلا: «والله لئن كان قاله لقد صدق، وما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فهذا أبعد مما تعجبون منه»، ثم أقبل على النبي ﷺ يسأله عن وصفه، وكلما ذكر شيئا قال: صدقت. أشهد إنك رسول الله... فقال النبي ﷺ: «وأنت يا أبابكر الصديق»، فيومئذ سماه الصديق[٦٤٢].

الأدلة على أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معا:

قال القاضي عياض[٦٤٣]: «اختلف العلماء في الإسراء والمعراج برسول

---

(٦٤٠) البخاري/ الفتح (١٧/ ٢٨٤/ح ٤٧١٠)، ومسلم (١/ ١٥٦/ح ١٧٠) وأحمد: الفتح الرباني (٢٠/ ٢٦٢ - ٢٦٣) من حديث ابن عباس باسناد صحيح، واللفظ لأحمد وانظر تخريج الساعاتي للحديث، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٦٣ - ٣٦٤) وغيرهم.

(٦٤١) انظر ابن هشام (٢/ ٤٥) من رواية ابن إسحاق، معلقا. وخبر ارتداد بعض المسلمين جاء في أحاديث صحيحة، من ذلك ما رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢ - ٦٣) وصححه ووافقه الذهبي.

(٦٤٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢ - ٦٣)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي في تلخيصه على المستدرك.

(٦٤٣) انظر أحمد شهاب الدين الخفاجي: نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض، دار الفكر، بيروت، د. ت (٢/ ٢٦٥) وانظر القصة كاملة في هذا المصدر.

الله ﷺ، فقيل إنما كان جميع ذلك في المنام، والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أُسريَ بجسده ﷺ، والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل ولا استحالة في حملها عليه فيحتاج إلى تأويل..»

وقال ابن حجر[٦٤٤]: «إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد البعث، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل..».

وقال عرجون[٦٤٥]: «والأمة مطبقة ـ إلا بعض روايات لم تثبت صحة أسانيدها عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) وعن معاوية (رضي الله عنه) قوله عن الحسن البصري ـ على أن الإسراء الذي أخبر به رب العزة مفتتحا له بعلم التقديس الذي يرمز إلى عظمة الاقتدار الإلهي، وأن قدرة الله تعالى لايتعاظمها شيء... والافتتاح بالتقديس لا يقال إلا في الأمور المستبعدة عادة لتعاظمها، والتي لا تألفها مدارك العقول في متعارف الحياة...» ثم يقول: «إن كلمة «عبد» التي في الآية لا تطلق في لغة العرب وفهومهم إلا على الروح والجسد معا، وإن جملة ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ تفيد كذلك الجسد والروح... ورواية الحسن البصري لم تعرف في عهد الصحابة، فهي مستحدثة، وعائشة لم تكن حينها زوجا للرسول ﷺ، ولا في سن من يضبط، ولعلها لم تكن ولدت بعد[٦٤٦]... ولم يرجح خبرها على خبر غيرها؟ فليس حديثها بالثابت عنها. قال الخفاجي: لما في متنه من العلة القادحة وفي سنده محمد بن إسحاق وقد ضعفه مالك وغيره[٦٤٧]، والأحاديث

---

(٦٤٤) الفتح (١٥/٤٤/ك. المبعث/ ب. حديث الإسراء.

(٦٤٥) محمد رسول الله ﷺ (٢/٣٤٢ ـ ٣٥٠).

(٦٤٦) وهذا مما قاله عياض معلقا على حديث عائشة (رضي الله عنه). انظر الشفا: (١/٣٧٢) تحقيق الرفاعي وزملائه.

(٦٤٧) حديثه في درجة الحسن لذاته إذا صرح بالتحديث وكان سنده متصلا، وهذا الحديث إسناده منقطع ـ ابن هشام (٢/٤٦).

الأخرى أثبت منه. . .» ثم يقول الزرقاني[٦٤٨]: «بل الذي دل عليه صحيح قولها إن الإسراء كان بجسده الشريف، لإنكارها رؤيته لربه رؤية عين، ولو كانت عندها مناما لم تنكره. ورواية معاوية[٦٤٩] جاءت بعد انعقاد الإجماع على كونه بالروح والجسد، على أن الرواية عنه لم تثبت بسند صحيح، وهي من رواية ابن إسحاق، وعلى فرض ثبوتها فهي اجتهاد متأخر عن الإجماع، غير ملزم ولا ناقض للإجماع. وللحسن قولان، والمشهور عنه أنه كان يقظة. .».

ولو كان الإسراء والمعراج مناما لما استنكرته قريش ولما ارتد بعض المسلمين، ولم يكن فيه شيء من الإعجاز. ثم كونه مناما يخالف صريح الآيات الكريمة: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾. فابتداء الآية بالتسبيح لفت نظر لأمر هام، ولفظ «بعبده» معناه الروح والجسد معا، كما أشار إلى ذلك عرجون وغيره[٦٥٠].

ب ـ دلالات وعظات وعبر:

١ ـ إن حديث الإسراء والمعراج متفق عليه بين أهل الحديث والسيرة، وثبت بآيات قرآنية وبأحاديث نبوية، فهو قطعي الثبوت. وهو بإجماع جماهير المسلمين من معجزاته ﷺ. وفي إنكاره إنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة.

٢ ـ جاءت هذه المعجزة بعد المحن التي ابتلي بها الرسول ﷺ لتجدد عزيمة الرسول ﷺ ولتدلل على أن هذا الذي يلاقيه من قومه ليس سببه تخلي الله عنه، وإنما هي سنة الله مع أحبائه في كل عصر ومصر، وبينت للرسول ﷺ أن المستقبل لدينه، وذلك بإقرار إمامته للأنبياء السابقين،

---

(٦٤٨) شرحه على المواهب اللدنية للقسطلاني (٦/ ٤ ـ ٥/ المقصد الخامس).

(٦٤٩) رواه ابن إسحاق موقوفاً على يعقوب بن عتبة فهو وإن كان ثقة لم يدرك أحدا من الصحابة ـ ابن هشام (٢/ ٤٦).

(٦٥٠) سبق ذكره وانظر أيضا الشامي: من معين السيرة، ص١١٢.

وما تمثل له من رموز لهذا المعنى، وبينت له أن الارض إذا ضاقت في وقت، فإن السماء تفتح أبوابها لتستقبله، ولئن آذاه بعض أهل الأرض في وقت، فإن أهل السماء يقفون له مستقبلين ومرحبين.

٣ ـ إن الاقتران الزماني والمكاني بين إسرائه ﷺ إلى بيت المقدس والعروج به إلى السماوات السبع، لدلالة باهرة على مدى مالهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى. و فيه دلالة واضحة أيضا على العلاقة الوثيقة بين ما بعث به كل من عيسى بن مريم ومحمد بن عبدالله (عليهما السلام)، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذي بعثوا به[٦٥١] وفيه دلالة على واجب المسلمين في الحفاظ على هذه الأرض وحمايتها من مطامع أعداء الإسلام.

٤ ـ ولعل الحكمة في مرور هذه الرحلة ببيت المقدس، ولم تكن من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة، هو أنه عندما أهدر اليهود كرامة الوحي وأسقطوا أحكام الله، حلت بهم لعنة الله، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد، على الرغم من أنها ظلت فيهم زمانا طويلا، ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقالا بالقيادة في العالم من أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد، ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية إسماعيل، وهو انتقال فيه احترام للإيمان الذي درج ـ قديما ـ في رحابه[٦٥٢].

٥ ـ إن في اختيار رسول الله ﷺ اللبن على الخمر حينما قدمهما له جبريل، دلالة على أن الاسلام هو دين الفطرة. لأن اللبن مادة لم تتغير طبيعتها، والخمر نتيجة تغيير كيماوي في طبيعة العنب و غيره من مصادر الخمر، إضافة إلى أن الخمر يغيّر فطرة الإنسان؛ لأنه يذهب العقل.

٦ ـ إن في جمع الله المرسلين السابقين من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها، ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة دليلاً على أن النبوات يصدق بعضها بعضا، وأن محمدا هو خاتمهم الذي اكتمل به الدين، وبيان

(٦٥١) إشارتي هنا إلى الحديث الصحيح: «... والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» رواه البخاري ومسلم وغيرهما، فانظره في: البخاري/ الفتح (١٣/٢٤٨ ـ ٢٤٩/ح ٣٤٢، ٣٤٤٣).

(٦٥٢) الغزالي: فقه السيرة، ص ١٣٧، الدكتور قلعة جي: قراءة جديدة... ص١٠٧.

لمكانة محمد ﷺ عند ربه.

٧ ـ إن رؤية طرف من آيات الله الكبرى في ملكوت السماوات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين ومعرفة عقباهم ورفع لمعنويات نبيه ﷺ وأصحابه ليواجهوا قوى الكفار المتألبة عليهم.

٨ ـ إن وقوع مثل معجزة الإسراء والمعراج للرسول ﷺ بعد مضي إثنى عشر عاما من مبعثه دليلاً على أن الخوارق والمعجزات تأتي في طريق محمد ﷺ ضربا من التكريم والإيناس لشخصه، غير معكرة ولا معطلة للمنهج العقلي العادي، وذلك على عكس ما وقع لبعض الأنبياء، مثلما وقع لموسى (عليه السلام)، حيث إن الخوارق في سير هذا البعض قصد بها قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة.

وتأكيدا لهذا فعندما اقترح المشركون على النبي ﷺ أن يرقى في السماء، جاء الجواب من الله (عز وجل) ﴿قل: سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾[٦٥٣].

فلما رقي في السماء بعد ذلك، لم يذكر قط أن ذلك ردا على التحدي أو إجابة على الاقتراح السابق.

٩ ـ إن فرض الصلوات الخمس في ليلة المعراج دليل على أهمية هذا الركن من أركان الإسلام، الذي يجب أن يكون معراجا يرقى بالناس كلما تدلت بهم شهوات النفوس وأغراض الدنيا[٦٥٤].

المبحث الرابع والثلاثون:

أ ـ عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل:

كان الرسول ﷺ في حركة دائبة للبحث عن مكان يعبد الله فيه آمنا، ولذا كان أمره للصحابة بالهجرة إلى الحبشة، وهجرته هو إلى الطائف، ثم عرض نفسه على القبائل. وكانت مواسم الحج وأسواق العرب مناسبات هامة

---

(٦٥٣) الإسراء: ٩٣.

(٦٥٤) انظر: الغزالي، فقه السيرة، ص ص ١٣٧ ـ ١٤٣.

للالتقاء بذوي الشأن من رؤساء القبائل وغيرهم من الأفراد العاديين. وكان يطلب من ذوي الشأن ان يحموه، دون أن يكرههم على دعوته[٦٥٥].

ومما كان يقوله في هذه المواسم: «هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي[٦٥٦]»، و: «يابني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به . . .[٦٥٧]».

وكان عمه أبولهب يسير خلفه، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من حديثه، قال: «هذا يدعوكم إلى أن تفارقوا دين آبائكم وأن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلال . . .»[٦٥٨].

ومن القبائل التي عرض رسول الله ﷺ نفسه عليها ودعاها إلى الإسلام فأبوا: كندة، وفيهم سيدهم مليح ـ أو فليح[٦٥٩]، وبنو عبدالله من كلب[٦٦٠]، وبنو حنيفة، وكان ردهم عليه قبيحا[٦٦١]، وبنو عامر بن صعصعة، وقال رجل

---

(٦٥٥) انظر: مغازي رسول الله ﷺ لعروة، ص ١١٧، من حديث ابن لهيعة وموقوفة على عروة، فهي مرسلة. ورواه البيهقي في الدلائل (٢/ ٤١٤) من حديث موسى بن عقبة عن الزهري مرسلا «وهذين المرسلين أصل صحيح كما في الحاشية التالية مباشرة».

(٦٥٦) أخرجه أبوداود في سننه (٥/ك. السنة/ح ٤٧٣٤)، وابن ماجة في المقدمة (ب ١٢/ ص ٧٣/ح ٢٠١)، وأحمد: الفتح (٢٠/ ٢٦٧) من حديث جابر (رضي الله عنه)، وذكره الذهبي في سيرته. ص ٢٨٢، وقال: «هو على شرط البخاري».

(٦٥٧) رواه ابن إسحاق بإسناد فيه حسين بن عبدالله، وهو ضعيف ـ ابن هشام (٢/ ٧٤) والسير والمغازي، ص ٢٣٢، ورواه أحمد: المسند (٣/ ٤٩٢) و (٤/ ٣٤١) من غير طريق ابن إسحاق. وقال الساعاتي في الفتح (٢٠/ ٢١٦ ـ ٢١٧ و ٦٥): «وسنده جيد». وقال محققا زاد المعاد (٣/ ٤٤): «وسنده حسن، وله شاهد عند ابن حبان (١٦٨٣) من حديث طارق بن عبدالله المحاربي. ورواه الطبراني في الكبير (٥/ ٥٦ ـ ٦٣/ح ٤٥٨٣ ـ ٥٦٩٠) منها طرق بمثل رواية أحمد وابن إسحاق» وانظر معناه في المستدرك (٢/ ١٦٤) من حديث جابر، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٦٥٨) جاء ذلك في رواية أحمد وابن إسحاق المذكورة آنفا، وفي رواية عند ابن إسحاق في السير والمغازي، ص ٢٣٢، بإسناد حسن من حديث طارق المحاربي، أن عمه أبا لهب كان يتبعه ويرميه بالحجارة، وقد أدمى كعبيه.

(٦٥٩) رواه ابن إسحاق عن الزهري مرسلا: ابن هشام (٢/ ٧٥)، السير والمغازي ص ٢٣٢.

(٦٦٠) ابن إسحاق إسناده منقطع: ابن هشام (٢/ ٧٥)، السير والمغازي ص ٢٣٢. فهو ضعيف

(٦٦١) ابن إسحاق ابن هشام (٢/ ٧٥ ـ ٧٦) ولم يسم من حدثه.

منهم يدعى بيحرة بن فراس: «والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، . . . أرأيت إن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟» قال: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»، قال: «أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك[٦٦٢]»، ومحارب بن حصفة وفزارة وغسان ومرة وسليم وعبس وبنو النضر وبنو البكاء، وعذرة والحضارمة[٦٦٣]، وربيعة وبنو شيبان الذين كان فيهم وعلى رأسهم: مفروق ابن عمرو وهانئ بن قبيصة والمثنى بن حارثة، وقد تعللوا بحجج منها الرغبة في التريث لحين أخذ مشورة من وراءهم من قومهم، وفي هذا قال المثنى: «وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، لا نحدث حدثا و نؤوي محدثا، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعو إليه مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤيدك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من أحاطه الله من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟» فقال النعمان بن شريك: «اللهم! نعم،» فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إنا أرسلناك شاهدا ومبشراً ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا[٦٦٤]﴾. وقد سر رسول الله ﷺ من أخلاقهم[٦٦٥].

لقد كان أهل المدينة أكثر الناس تجاوبا مع دعوة الرسول ﷺ عندما عرض عليهم الإسلام. فعندما عرض الرسول ﷺ الإسلام على سويد بن الصامت، لم يعلن الإسلام ولم يبعد عنه، واستحسن ما سمع من القرآن. وعندما عاد إلى بلاده، وقتل في حرب بعاث، كان رجال من قومه يقولون إنه مات مسلما[٦٦٦].

---

(٦٦٢) ابن إسحاق عن الزهري مرسلا - ابن هشام (٢/٧٦).
(٦٦٣) ذكر هؤلاء ابن سعد في طبقاته (١/٢١٦ - ٢١٧) من حديث الواقدي.
(٦٦٤) الأحزاب: ٤٥ - ٤٦.
(٦٦٥) روى قصة لقاء الرسول ﷺ لربيعة: ابن حبان في السيرة، ص ص ٩٣ - ١٠١.
(٦٦٦) روى قصته كاملة ابن إسحاق بإسناد منقطع، لجهالة الأشياخ المذكورين في الإسناد - ابن هشام (٢/٧٧ - ٧٩).

وروى ابن إسحاق[٦٦٧] أن وفدا من بني عبد الأشهل على رأسه أبوالحيسر، أنس بن رافع، وفيه إياس بن معاذ، قدموا مكة يلتمسون الحلف مع قريش ضد قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: «هل لكم خير مما جئتم له؟» فقالوا له: «وما ذاك؟» قال: «أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، وأنزل عليّ الكتاب». ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ، وكان غلاما حدثا: «أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له». فزجره أبوالحيسر، فصمت، وسمعه قومه عند موته يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلما.

لقد استشعر إياس الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من الرسول ﷺ ما سمع.

وفي السنة الحادية عشرة من البعثة عرض نفسه على نفر[٦٦٨] من الخزرج، عند العقبة، فجلسوا معه. فدعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان مما مهد أفئدتهم لقبول الإسلام أن اليهود كانوا معهم في بلادهم، ومعلوم أنهم أهل كتاب وعلم، فكان إذا وقع بينهم وبين اليهود نفرة أو قتال قال لهم اليهود: «إن نبيا مبعوثا الآن قد أطل زمانه، سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم!».

فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام نظر بعضهم لبعض وقالوا: «تعلمون والله أنه للنبي الذي تدعوكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه». فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الإسلام. وقالوا: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم

---

(٦٦٧) رواها بإسناد حسن: ابن هشام (٢/ ٨٠ - ٨١) ورواها غيره من طريقه.

(٦٦٨) عددهم ستة عند ابن إسحاق: سيرة ابن هشام (٢/ ٨٢) وقال ابن كثير في البداية (٣/ ١٦٤): «وذكر موسى بن عقبة فيما رواه عن الزهري، وعروة بن الزبير أنهم كانوا ثمانية» وذكر ابن سعد القولين، وعندما ذكر الرواية التي تقول بأنهم ستة، وهي رواية ابن إسحاق، قال: «قال محمد بن عمر - الواقدي - هذا عندنا أثبت ما سمعناه فيهم، وهو المجتمع عليه» - انظر الطبقات (١/ ٢١٩).

فندعوهم إلى أمرك. ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين. فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك».

ثم انصرفوا، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ(٦٦٩).

وهناك سبب آخر أدى إلى تمهيد أفئدة أهل المدينة لقبول الإسلام، وهو يوم بعاث(٦٧٠). فقد روى البخاري(٦٧١) عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: «كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله ﷺ فقدم رسول الله ﷺ، وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام».

ب ـ عظـات وعبـر:

١ ـ إن أمثال أبي جهل لا ينعدم في مجتمعات الكفر والانحراف العقدي الصريح، وهي نماذج من الناس مثل سلوك وتفكير أبي لهب، تقف في وجه الدعاة في كل زمان ومكان، بمثل موقف أبي لهب من أبن أخيه محمد ﷺ، ويصدون عن سبيل الحق ويبغونها عوجا، بما يتاح لهم

---

(٦٦٩) رواه ابن إسحاق من حديث عاصم بن عمر عن أشياخ من قومه، وقد صرح بالتحديث ـ ابن هشام (٢/ ٨١ ـ ٨٣). وقد ضعف محققا سيرة ابن هشام هذا الإسناد لجهالة هؤلاء الأشياخ، ولكن الدكتور العودة حسن إسناده لترجيحه أن هؤلاء الأشياخ من الصحابة الذين يروي عنهم عاصم أمثال: جابر ومحمود بن لبيد وجدته رميثة ـ انظر العودة: السيرة النبوية.. ص٣٣١، ونحن نوافق في هذا.

ورواه ابن سعد ١/ ٢١٧ ـ ٢١٩) من طريق الواقدي وفيها زيادات مثل طلب الرسول ﷺ منهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه، فاعتذروا حتى يصلحوا ذات بينهم أولا في المدينة. وعند عرجون أن هذه هي بيعة العقبة الأولى والتي بعدها (١٢) هي الثانية، التي بعدها (٧٣ رجلا) وامرأتان هي الكبرى ـ محمد رسول الله ﷺ) ومسلم (٢/ ٣٧٩ وما بعدها).

(٦٧٠) قال ابن حجر في شرح حديث عائشة الآتي ذكره في الفتح (١٤/ ٢٦٢ح ٣٧٧٧): «وهو مكان، ويقال حصن، وقيل مزرعة عند بني قريظة على ميلين من المدنية، كانت به وقعة بين الأوس والخزرج، فقتل فيها كثير منهم... وذلك قبل الهجرة بخمس سنين، فقيل بأربع وقيل بأكثر، والأول أصح... فقتل فيها من أكابرهم من كان لا يؤمر أي يتكبر ويأنف أن يدخل في الإسلام حتى لا يكون تحت حكم غيره، وقد كان منهم من هذا النحو عبدالله بن أبي بن سلول...».

(٦٧١) الفتح ١٤/ ٢٦٢/ح ٣٧٧٧).

من وسائل، فيصفون دعاة الدين الحق بأنهم دعاة بدعة وضلالة، ودعاة دين جديد أو مذهب خامس، أي ليس من بين المذاهب الأربعة المشهورة. ولم يتأثر الرسول ﷺ لموقف عمه أبي لهب، بل استمر في دعوته. فعلى الدعاة أن لا يتأثروا بمواقف المغرضين.

٢ ـ على الدعاة أن يطرقوا جميع الأبواب التي يمكن أن تقود إلى التمكين للدين في الأرض وعدم اليأس مهما تكررت محاولات الاتصالات الفردية والجماعية، ومهما كانت النتائج القريبة سلبية.

المبحث الخامس والثلاثون:

أ ـ بيعة العقبة الأولى:

في الموسم التالي من العام الثاني عشر للبعثة، جاء إلى أداء مناسك الحج اثنا عشر رجلا من المسلمين من المدينة بعضهم ممن لقي النبي ﷺ في الموسم السابق وآمن به، فلقوا الرسول ﷺ مع جماعة من أصحابه حتى بايعوه. وقد روى البخاري[٦٧٢] ومسلم[٦٧٣] والنسائي[٦٧٤]وأحمد[٦٧٥] وابن إسحاق[٦٧٦] وابن سعد[٦٧٧] وغيرهم، من حديث عبادة بن الصامت الذي كان ضمن حجاج المسلمين من المدينة، رووا صيغة هذه البيعة، وهو:

قال عبادة: إن الرسول ﷺ قال لهم: «تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئا، فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه»، فبايعوه على ذلك.

---

(٦٧٢) الفتح (١٥/ ٧٤/ح ٣٨٩٢)، واللفظ له.
(٦٧٣) صحيحه (٢/ ٣٣٣١/ح ١٧٠٩).
(٦٧٤) (٧/ ١٤١ ـ ١٤٢/ك البيعة على الجهاد).
(٦٧٥) المسند (٥/ ٣١٣).
(٦٧٦) ابن هشام (٢/ ٨٥ ـ ٨٦)، وإسناده حسن.
(٦٧٧) الطبقات (١/ ٢١٩ ـ ٢٢٠)، من رواية الواقدي فالإسناد ضعيف جداً.

قال عبادة بن الصامت[٦٧٨] في رواية ابن إسحاق: «فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء[٦٧٩]، وذلك قبل أن تفرض الحرب».

وعندما أرادوا العودة إلى بلادهم، بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى «مقرىء المدينة». وكان منزله على أسعد بن زرارة[٦٨٠].

روى أبو داود[٦٨١] وابن إسحاق[٦٨٢] وغيرهما من طريق عبدالرحمن بن كعب بن مالك أن أول من أقام صلاة الجمعة بالمدينة هو أسعد بن زرارة. وعندما بلغوا الأربعين شخصا أمهم مصعب بن عمير. فقد كتب إليه الرسول ليجمع بهم[٦٨٣].

أسلم خلق كثير من الأنصار على يد مصعب بمعاونة أسعد بن زرارة، وممن أسلم من أشرافهم: أسيد بن الحضير وسعد بن معاذ، وأسلم بإسلامهما يومئذ جميع بني عبدالأشهل الرجال والنساء[٦٨٤]، إلا أصيرم عمرو بن

---

(٦٧٨) ابن هشام (٢/ ٨٦).

(٦٧٩) أي على غرارها. والإشارة هنا إلى بيعة الرسول ﷺ للنساء في اليوم الثاني من فتح مكة، كما سيأتي - إن شاء الله - وليس فيها البيعة على الجهاد.

(٦٨٠) انظر في هذا: ابن إسحاق - بدون إسناد: ابن هشام (٢/ ٨٦). وقد روى البيهقي في دلائله (٢/ ٤٣١) والذهبي في سيرته، ص ٢٩٤، كلاهما من حديث موسى بن عقبة عن الزهري أنه بعثه إليهم بعد أن التقى بالنفر الستة عند العقبة. وروى أيضا في دلائله (٢/ ٤٣٨) من رواية ابن إسحاق عن عاصم بن عمر - مرسلا - أن رسول الله ﷺ إنما بعثه بعدهم بعدما كتبوا إليه، وروى أيضا في دلائله (٢/ ٤٣٨) من طريق ابن إسحاق من حديث عبدالله بن أبي بكر وعبدالله ابن المغيرة بن معيقيب أن رسول الله ﷺ بعث مصعب مع النفر الأثنى عشر الذين بايعوه في العقبة الأولى. وعند ابن سعد (١/ ٢٢٠) أن الرسول ﷺ بعثه إليهم عندما كتبوا إليه بعد ذهابهم إلى المدينة طالبين منه إرسال من يقرئهم القرآن - وفي إسناده الواقدي. وهكذا وجدت روايتان لابن إسحاق نقولان بأن الرسول ﷺ قد أرسل مصعبا مع الأنصار حين عودتهم، وتقول الرواية الثالثة إنه أرسله بعد ذهابهم ثم طلبهم ذلك وهي تتفق مع رواية ابن سعد. ويمكن الجمع بين القولين بأن يكون النفر الستة الذين أسلموا أولا بعثوا إليه ليرسل إليهم معلما، فأرسله في الموسم الثاني مع الاثنى عشر المذكورين هنا.

(٦٨١) السنن (١/ ٦٤٥ - ٦٤٦/ح ١٠٦٩).

(٦٨٢) بإسناد حسن لابن هشام (٢/ ٨٧)، ومن طريقه رواه غير أبي داود، مثل: ابن ماجة (١/ ٣٤٣ - ٣٤٤/ ك. الصلاة/ ب. فرض الجمعة)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٨٧).

(٦٨٣) سنن الدار قطني، كما قال ابن حجر في الفتح (١٥/ ٧٥) وقال ابن كثير في البداية (٣/ ١٦٦): «وفي إسناده غرابة، والله أعلم».

(٦٨٤) روى خبر إسلام أسيد ومعاذ وبني عبدالأشهل ابن إسحاق بإسناد حسن ولكنه مرسل لأنه موقوف على عبدالله بن أبي بكر وعبيد الله بن المغيرة بن معيقيب - ابن هشام (٢/ ٨٨ - ٩٠).

ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد، وأسلم حينئذ، وقاتل فقتل قبل أن يسجد لله سجدة واحدة، فأخبر عنه النبي ﷺ، فقال: «عمل قليلا، وأجر كثيرا[٦٨٥]».

ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف «وتلك أوس الله» وهم الأوس ابن حارثة؛ وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت الشاعر - وكانوا يطيعونه - فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة[٦٨٦].

وقبل حلول موسم الحج التالي - أي حج السنة الثالثة عشرة - عاد مصعب بن عمير إلى مكة ليبشر الرسول ﷺ بنجاح مهمته، بتوفيق الله تعالى[٦٨٧].

المبحث السادس والثلاثون:

أ - بيعة العقبة الثانية:

وفي موسم الحج التالي من العام الثالث عشر للبعثة، قدم مكة لأداء مناسك الحج مجموعة كبيرة من مسلمي المدينة، ضمن حجاج كثيرين من مشركي المدينة، وكان زعيمهم جميعا البراء بن معرور[٦٨٨].

وقد تساءل مسلمو الأنصار فيما بينهم حتى متى يتركون رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف[٦٨٩].

---

(٦٨٥) روى تأخر إسلامه وقصته يوم أحد وصرح بإسمه ابن إسحاق في كتاب السير والمغازي، بإسناد صحيح عن أبي هريرة (رضي الله عنه) كما ذكر ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٨٦). وروى قصته يوم أحد ولم يصرح باسمه البخاري/ الفتح (١١/ ٢٨٦/ح ٢٨٠٨)، ومسلم (٣/ ١٥٠٩/ح ١٩٠٠)، وأبوداود (٣/ ٤٣/ح ٢٥٣٧/ الدعاس) ولم يذكر قوله ﷺ «عمل قليلا وأجر كثيرا».

(٦٨٦) رواه ابن إسحاق مرسلا: ابن هشام ٢/ ٩١) وانظر خبره مطولاً عند ابن كثير في البداية (٣/ ١٦٨ - ١٧٣).

(٦٨٧) ذكر خبر رجوعه ابن إسحاق - ابن هشام (٢/ ٩٢) - بدون إسناد.

(٦٨٨) من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن - ابن هشام (٢/ ٩٢).

(٦٨٩) من حديث جابر بن عبدالله (رضي الله عنه) عند أحمد: الفتح الرباني (٢٠/ ٢٧٠)، وإسناده صحيح. وقد رواه البيهقي في الدلائل (٢/ ١٤٤٢)، والذهبي في السيرة ص ٢٨٩.

وجرت بينهم وبين الرسول ﷺ اتصالات سرية أدت إلى الاتفاق على تحديد زمان ومكان اللقاء؛ لإبرام اتفاق من أعظم وأهم الاتفاقيات في تاريخ الإسلام.

وقد روى ابن إسحاق(٦٩٠) قصة هذا اللقاء عن كعب بن مالك، قال (رضي الله عنه): «.... ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق. فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها... فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا في رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب ـ أم عمارة ـ وأسماء بنت عمرو بن عدي... وهي أم منيع.

فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس ابن عبدالمطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبدالمطلب، فقال: «يامعشر الخزرج ـ وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها ـ إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن رأيهم مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده». قال: فقلنا له: «قد سمعنا ما قلت، فتكلم يارسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت».

---

(٦٩٠) بإسناد حسن ـ ابن هشام (٢/ ٩٤ ـ ٩٧)، ومن طريقه رواه: أحمد الفتح الرباني (٢٠/ ٢٧١ ـ ٢٧٥)، وفضائل الصحابة (٢/ ٩٢٣) باختصار، وصحح المحقق إسناده، والهيثمي في المجمع (٦/ ٤٥)، والطبراني كما في المجمع (٦/ ٤٢ ـ ٤٥)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٤٤ ـ ٤٤٧) والبيهقي في السنن (٩/ ٩): «وابن حبان في موارده، ص٤٠٨ والحاكم في مستدركه (٢/ ٦٢٤ ـ ٦٢٥) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «صحيح»: والذهبي في سيرته، ص ص ٣٠١ ـ ٣٠٣)، وصححه الألباني في حاشيته على فقه السيرة للغزالي ص ١٥٩.

فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: «والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يارسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرا عن كابر». فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ، أبوالهيثم بن التيهان، فقال: «يارسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟» فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «بل الدم الدم والهدم الهدم[٦٩١]، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».

بعد الاتفاق على شروط هذه البيعة، وقبل الشروع في عقدها، أراد اثنان من الأنصار، ممن أسلم في مواسم حج عام إحدى عشرة واثنتي عشرة من المبعث، وهما: العباس بن عبادة بن نضلة وأسعد بن زرارة، أرادا أن يبينا لقومهما حقيقة وخطورة الالتزام بهذه البيعة، حتى يبايعوا على علم ويقين تام، وليعرفا ويتأكدا من مدى استعداد الأنصار للجهاد والاستشهاد.

قال العباس بن نضلة: «هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟» قالوا: «نعم»، قال: «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا، أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة»، قالوا: «فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف فمالنا بذلك يارسول الله ونحن وفينا بذلك؟» قال: «الجنة». قالوا: «أبسط يدك»، فبسط يده فبايعوه[٦٩٢]».

---

(٦٩١) قال ابن هشام (٢/ ٩٦): ويقال الهدم الهدم ـ بالفتح: يعني الحرمة، أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم.

(٦٩٢) ابن إسحاق، مرسلا موقوفا على عاصم بن عمر ـ ابن هشام (٢/ ١٠).

وقال أسعد بن زرارة عندما قام الناس للبيعة: «رويدا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإمّا أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإمّا أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله». فقالوا له: «يا أسعد، أمط عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها[٦٩٣]».

وعندما تأكد لأسعد موقف قومه، ضرب على يد الرسول ﷺ - أي صافحه - مبايعا، ثم تتابع القوم رجلا رجلا لمبايعة الرسول ﷺ مبشرا بالجنة من وفي بها[٦٩٤].

وأما عن كيفية مبايعة المرأتين فقد قال ابن إسحاق[٦٩٥]: «يزعمون أنهما قد بايعتا - يعني صافحتا - وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء، إنما كان يأخذ عليهن، فإذا أقررن قال: اذهبن فقد بايعتكن».

وعندما تمت البيعة قال لهم رسول الله ﷺ: «أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبا، ليكونوا على قومهم بما فيهم» فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهم: عبادة بن الصامت، البراء بن معرور، عبدالله بن رواحة، سعد بن الربيع، أبوأمامة أسعد بن زرارة، سعد بن عبادة، المنذر بن عمرو، أسيد بن حضير، سعد بن خيثمة، عبدالله بن حرام، رافع بن مالك، أبوالهيثم بن التيهان[٦٩٦]. وذكر ابن إسحاق[٦٩٧] جميع من حضر البيعة.

---

(٦٩٣) سبق الكلام عن هذه الرواية - رواية أحمد عن جابر - وهي صحيحة - وفيها شروط البيعة.

(٦٩٤) انظر حديث جابر المذكور. وذكر ابن إسحاق بإسناد حسن أن أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور. وروى بدون إسناد أن بني النجار يزعمون أن أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده، وأن بني عبدالأشهل يقولون: بل أبوالهيثم بن التيهان - ابن هشام (٢/ ١٠١). ولعلهم حسبوا ما دار بينهم وبين الرسول ﷺ بيعة، وإلا فأحرى الناس بالتقديم إذ ذاك هو أسعد بن زرارة لأنه كان زعيم الحجاج، وحصن الدعوة في المدينة - أنظر الرحيق المختوم، ص ١٦٨ الحاشية.

(٦٩٥) ابن هشام (٢/ ١٢٠) بدون إسناد. ويشهد لكلام ابن إسحاق ماروواه البخاري في هذا المعنى - انظر: الفتح (٢٠/ ٩٩/ح ٥٢٨٨)، ومسلم (٣/ ١٤٨٩/ح ١٨٦٦) وغيرهما.

(٦٩٦) ابن إسحاق دون إسناد - ابن هشام (٢/ ٩٧ - ٩٨) فهو ضعيف.

(٦٩٧) دون إسناد - ابن هشام (٢/ ١٠٩ - ١٢٠).

وروى ابن إسحاق[٦٩٨] أن رسول الله ﷺ قال للنقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا: نعم»

لقد روى البخاري[٦٩٩] ومسلم[٧٠٠] وابن إسحاق[٧٠١] بنود هذه البيعة. ولكن رواها أحمد[٧٠٢] من حديث جابر، والبيهقي[٧٠٣] من حديث جابر وعبيد بن رفاعة بتفصيل أكثر مما جاء عند البخاري ومسلم وابن إسحاق.

قال جابر: «قلنا يا رسول الله علام نبايعك؟» قال:

١ - على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

٢ - وعلى النفقة في العسر واليسر.

٣ - وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤ - وعلى أن تقوموا في الله، ولا تأخذكم في الله لومة لائم.

٥ - وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة» وهو لفظ أحمد.

أما لفظ ابن إسحاق المشار إليه فهو، قال ابن الصامت: «بايعنا رسول

---

(٦٩٨) ابن هشام (٢/ ١٠٠) بإسناد حسن ولكنه مرسل لأنه موقوف على عبدالله بن أبي بكر فهو ضعيف.

(٦٩٩) الفتح (٢٧/ ٨/ح ٧٠٥٦)، و (٢٧/ ٢٢٣/ح ٧٢٩٩، ٧١٢٠٠)، وألفاظ الحديث في المكانين إذا ضمت بعضها إلى البعض هي الفاظ حديث ابن إسحاق نفسها. وإسناد الحديث (٧١٩٩) (٧١٢٠٠) من نفس طريق رجال ابن إسحاق، وقد نبه ابن حجر إلى أن ذلك كان في العقبة الثانية - انظر: الفتح (٢٧/ ٨).

(٧٠٠) صحيحه (٣/ ١٤٧٠/ح ١٧٠٩) من نفس طرق رجال ابن إسحاق، كما في رواية البخاري في كتاب الأحكام (الفتح ٢٧/ ٢٢٣/ح ٧١٩٩، ٧١٢٠٠) وبألفاظ ابن إسحاق نفسها.

(٧٠١) ابن هشام (٢/ ١٠٨) ورجاله رجال الصحيح ما عدا ابن اسحاق، وقد صرح بالتحديث فإسناده حسن.

(٧٠٢) الفتح الرباني (٢٠/ ٢٧٠). وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٢٥٠٦٢٤) وصححه ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في البداية (٣/ ١٧٥): «هذا إسناد جيد على شروط مسلم ولم يخرجوه»، وحسن ابن حجر إسناده كما في الفتح (١٥/ ٧٥)، وقال عنه الألباني في حاشية فقه السيرة للغزالي، ص١٥٧ «وفيه علة وهي عنعنة أبي الزبير، وكان مدلسا، وليس من رواية الليث بن سعد عنه، فلعل تصحيحه أو تحسينه لشواهده، والله أعلم» وانظر تخريج الساعاتي للحديث.

(٧٠٣) انظر رواية جابر عند البيهقي في الدلائل (٢/ ٤٤٣). أما رواية عبيد بن رفاعة فهي عنده في الدلائل (٢/ ٤٥٢). وقال ابن كثير في البداية (٣/ ١٨) عن رواية عبيد: «وهذا إسناد جيد قوي ولم يخرجوه». وقال الدكتور سليمان السعود في رسالة الهجرة ص٩٢: «وهو حديث ضعيف بهذا الإسناد، ولكن يتقوى بالشواهد المتقدمة الدالة على شروط البيعة كحديث جابر».

الله ﷺ على السمع والطاعة، في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم».

بعد أن تمت البيعة وتعين النقباء، كان القوم على وشك مغادرة مكان اللقاء، فاذا بالشيطان يكتشف هذا اللقاء. وليتمكن زعماء المشركين من المجيء والقبض على المسلمين قبل أن ينفضوا، صرخ الشيطان على العقبة بأنفذ صوت سمع، قائلا: «يا أهل الجباجب[٧٠٤]، هل لكم من مذمم[٧٠٥] والصباة[٧٠٦] معه قد اجتمعوا على حربكم؟» فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزب العقبة[٧٠٧]، هذا ابن أزيب، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك[٧٠٨]».

وعند سماع صراخ وقول هذا الشيطان، قال العباس بن عبادة بن نضلة: «والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا». فقال لهم رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعوا وناموا حتى أصبحوا[٧٠٩].

قال كعب بن مالك: «فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا يامعشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعون على حربنا، وإنه ـ والله ـ ما من حي من العرب أبغض إلينا إن نشبت الحرب بيننا وبينهم منكم. قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه. قال: وقد صدقوا، لم يعلموه. قال: وبعضنا ينظر إلى بعض... قال: ونفر الناس من منى فتنطس[٧١٠] القوم الخبر، فوجدوه قد كان».

---

(٧٠٤) الجباجب: منازل منى.

(٧٠٥) المذمم: المذموم.

(٧٠٦) الصباة: جمع صابيء أطلق على الذي يدخل في الإسلام على عهد الرسول ﷺ.

(٧٠٧) أزب العقبة: أسم شيطان يسكن العقبة.

(٧٠٨) رواه ابن إسحاق بإسناد حسن من حديث كعب بن مالك في قصة بيعة العقبة الثانية ـ ابن هشام (٢/ ١٠١ ـ ١٠٢).

(٧٠٩) المصدر نفسه.

(٧١٠) بالغوا في التحري عنه.

وتقول الرواية إنهم خرجوا في طلب القوم، ولم يدركوا غير سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو. فأفلت منهم المنذر وقبضوا على سعد، وعادوا به، مغلولة يداه إلى عنقه، ويجذبونه من شعره، ويلكزونه، حتى أنقذه الله منهم بجبير ابن مطعم والحارث بن حرب، إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة المنورة في طريقها من وإلى الشام(٧١١).

ب ـ **نتائج وعبر من بيعة العقبة الثانية:**

لقد كان لهذه البيعة نتائج قريبة وأخرى بعيدة. فمن النتائج القريبة:

١ ـ إن الأنصار قد فهموا أن حماية الرسول ﷺ سوف تعرضهم لعداوة واعتداء أعداء الرسول ﷺ من المشركين واليهود. وهذا يعني الجهاد، على الرغم من أن بنود البيعة لم تنص صراحة على أبعد من ذلك، أي التصدي لمن يقف في طريق الدعوة الإسلامية.

٢ ـ إن سعي مشركي مكة للقبض على مسلمي المدينة عندما اتضح لهم أن هناك ثمة تدبيرا منهم لحماية رسول الله ﷺ، يدل على أن عداء الشرك والكفر للإيمان في كل مكان.

٣ ـ إن السرية التي أحيطت بهذه البيعة وغيرها دليل على مشروعية أخذ الحذر والحيطة عند تدبير الأمور، لاسيما الأمور التي تتعلق بمستقبل الدعوة.

٤ ـ لقد كانت هذه البيعة الأساس الذي هاجر عليه المسلمون ـ بمن فيهم الرسول ﷺ ـ إلى المدينة المنورة.

٥ ـ أضحى الإسلام عزيزا في المدينة، فاستعلن بإسلامه من كان قد استخفى به.

٦ ـ ضيق كفار مكة الخناق على المسلمين عندما عرفوا خطورة اتصال

---

(٧١١) رواية كعب، المصدر نفسه (٢/ ١٠١ ـ ١٠٤)، ويبدو أن الدكتور العودة قد وهم عندما قال إن رواية قصة القبض على سعد والمنذر مرسلة، فلعله حكم عليها في ضوء سند القصة الخاصة بعبدالله بن أبي بن سلول كونه لم يعلم بأمر العقبة، وفي تقديرنا أنها رواية إعتراضية، جاءت أثناء رواية كعب المتصلة ـ انظر: السيرة في الصحيحين وعند ابن إسحاق... ص٣٦٢، وابن هشام (٢/ ١٠٣).

الرسول ﷺ بمسلمي المدينة. وكان هذا التضييق سببا في تعجيل الرسول ﷺ بأمر هجرتهم إلى المدينة.

٧ ـ أما على المدى البعيد، فقد كانت هذه البيعة الأساس الذي قامت عليه الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وانطلاقها من هناك إلى أنحاء الدنيا[٧١٢].

٨ ـ ولأهمية هذه البيعة، ولما ترتب عليها من نتائج قريبة وبعيدة، فقد كان للمبايعين فيها وفي التي قبلها فضل لا يكاد يقل عما لأهل بدر والهجرتين ـ هجرة الحبشة وهجرة المدينة ـ وبيعة الرضوان، من شرف وفضل.

٩ ـ إن عداوة الشيطان للحق وتألمه من علو نجمه ظاهرة ماضية، فهو دائما ما يغري أعداء الإسلام بالمؤمنين من أهل المدينة والرسول ﷺ.

١٠ ـ كانت بيعة العقبة الثانية شاملة للمبادىء التي سيتم مشروعيتها بعد الهجرة إلى المدينة، وفي مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة، وهو حكم وإن لم يكن قد أذن الله بشرعيته في مكة إلا إن الله (عز وجل) قد ألهم نبيه محمدا ﷺ أن ذلك سيشرع في المستقبل القريب، والدليل على ذلك رد الرسول ﷺ على العباس بن عبادة الذي أبدى الاستعداد على حرب أهل منى، فقال له الرسول ﷺ: «لم نؤمر بذلك....».

ومن المتفق عليه أن أول آية نزلت في مشروعية الجهاد قوله تعالى ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير[٧١٣]﴾، حيث نزلت عندما قال أبوبكر (رضي الله عنه) مستنكرا إخراج قريش الرسول ﷺ من مكة: «أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن». وعندما نزلت الآية، قال أبوبكر: فعرفت أن سيكون قتال[٧١٤]».

---

(٧١٢) انظر: من معين السيرة، ص ١٣٦، وفقه السيرة للبوطي، ص ١٣٢.

(٧١٣) الحج: ٣٩.

(٧١٤) رواه النسائي في سننه (٢/٥٢)، والترمذي (٤/١٥١) من حديث ابن عباس وقال: «حديث حسن»، وصححه الألباني في: صحيح سنن الترمذي (٣/٧٩/ح ٣٣٩٧) وأحمد في المسند (٣/٢٦٢/ شاكر) من حديث ابن عباس وصحح شاكر إسناده، وابن كثير في التفسير (٥/ ٤٣٠ ـ ٤٣١)، والطبري في التفسير (١٧/١٢٣).

١١ ـ اقتضت رحمة الله بعباده أن لا يحملهم واجب القتال، إلى أن توجد لهم دار إسلام، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه، ولقد كانت المدينة أول دار في الإسلام[٧١٥]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى حتى يتربوا التربية التي تؤهلهم للجهاد.

١٢ ـ ومن هنا تعلم ان مشروعية القتال في الإسلام لم تكن إلا بعد هجرته على الصحيح، وليس كما يفهم من كلام ابن إسحاق[٧١٦] انه إنما شرع قبل الهجرة عند بيعة العقبة الثانية[٧١٧] من حديث كعب بن مالك (رضي الله عنه).

فائـــدة:

روى ابن إسحـاق[٧١٨] بإسنـاد حسن أن البراء بن معرور (رضي الله عنه) عندما جاء إلى مكة لمبايعة الرسول ﷺ في العقبة الثانية، كان يصلي ـ في تلك السفرة ـ إلى الكعبة، وعندما التقى بالرسول ﷺ قال يانبي الله إني خرجت في سفري هذا، وقد هداني الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر، فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يارسول الله؟ قال: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها. فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ وصلى (رض) إلى الشام...».

وبذلك يكون البراء أول من صلى إلى الكعبة في الإسلام.

---

(٧١٥) انظر: البوطي فقه السيرة، ص ١٣٣.

(٧١٦) ابن هشام (٢/٩٤٠٩٢) ورواه الحاكم في المستدرك (ب/٢٥٠٦٢٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٧١٧) ابن هشام (٢/١٠٨) بإسناد حسن لذاته.

(٧١٨) انظر: البوطي: فقه السيرة، ص ١٣٢ وأبو شهبة: السيرة النبوية (١/٤٥٤) وقال إن هذا من أوهام ابن إسحاق.